

الأعمال الكاملة

٢٢

فراس السواح

أساطير الأولين

القصص القرآني ومتوازياته التوراتية



أساطير الأولين
القصص القرآني
ومتوازياته التوراتية

❧ لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومسبقاً.

فراس السّواح

أساطير الأولين

القصص القرآني
ومتوازياته التوراتية

الطبعة الثانية 2016

© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة

لـ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963 112257677

ص.ب: 11418 ، دمشق - سوريا

taakwen@yahoo.com

مقدمة

لطبعة الأعمال غير الكاملة

عندما وُضعت أمامي على الطاولة في دار التكوين كومة مؤلفاتي الاثنين والعشرين ومخطوط كتاب لم يُطبع بعد، لنبحث في إجراءات إصدارها في طبعة جديدة عن الدار تحت عنوان الأعمال الكاملة، كنت وأنا أتأملها كمن ينظر إلى حصاد العمر. أربعون عاماً تفصل بين كتابي الأول مغامرة العقل الأولى والكتاب الجديد «الله والكون والإنسان»، ومشروع تكامل تدريجياً دون خطة مسبقة في ثلاث وعشرين مغامرة هي مشروع المعرفي الخاص الذي أحببت أن أشرك به قرائي. وفي كل مغامرة كنت كمن يرتاد أرضاً بكرةً غير مطروقة ويكتشف مجاهيلها، وتقودني نهاية كل مغامرة إلى بداية أخرى على طريقة سندباد الليالي العربية. ها هو طرف كتاب مغامرة العقل الأولى - دراسة في الأسطورة بيدولي في أسفل الكومة. أسحبه وأتأمله، إنه في غلاف طبعته الحادية عشرة الصادرة عام 1988 والتي عاد ناشرها إلى غلاف الطبعة الأولى الصادرة عام 1976 الذي صممه الصديق الفنان إحسان عنتابي، ولكن ألوانه بهتت حتى بدت وكأنها بلون واحد لعدم عناية الناشر بتجديد بلاكاتها المتأكلة من تعدد الطبعات التي صدرت منذ ذلك الوقت. وفي حالة التأمل هذه، يخطر لي أن هذا الكتاب قد رسم مسار حياتي ووضعني على سكة ذات اتجاه واحد. فقد وُلد نتيجة ولع شخصي بتاريخ الشرق القديم وثقافته وانكباب على دراسة ما أنتجته هذه الثقافة من معتقدات وأساطير وآداب، في زمن لم تكن فيه هذه الأمور موضع اهتمام عام، ولكنني لم أكن أخطط لأن أغدو متخصصاً في هذا المجال، ولم أنظر إلى نفسي إلا كهوا عاكفٍ بجذ على هوايته. إلا أن النجاح المدوّي للكتاب الذي نفذت طبعته الأولى الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ستة أشهر، ثم تابعت طبعاته في بيروت، أشعرنني بالمسؤولية، لأن القراء كانوا يتوقعون مني عملاً آخر ويتلهفون إليه.

إن النجاح الكبير الذي يلقاه الكتاب الأول للمؤلف يضعه في ورطة ويفرض عليه التزامات لا فكاك منها، فهو إما أن يتنقل بعده إلى نجاح أكبر أو يسقط ويؤول إلى النسيان عندما لا يتجاوز نفسه في الكتاب الثاني. وقد كنت واعياً لهذه الورطة ومُدركاً لأبعادها، فلم أتعجل في العودة إلى الكتابة وإنما تابعت مسيرتي المعرفية التي صارت وقفاً على التاريخ العام والميثولوجيا وتاريخ الأديان. وعاماً بعد عام، كان كتاب لغز عشتار يتكامل في ذهني وأعدُّ له كل عدّة ممكنة خلال ثمانية أعوام، ثم كتبه في عامين ودفعته إلى المطبعة فصدر عام 1986، أي بعد مرور عشر سنوات على صدور الكتاب الأول. وكان نجاحاً مدوياً آخر فاق النجاح الأول، فقد نفذت طبعته الأولى، 2000 نسخة، بعد أقل من ستة أشهر وصدرت الطبعة الثانية قبل نهاية العام ثم تالت الطباعات.

كان العمل الدؤوب خلال السنوات العشر الفاصلة بين الكتابين، والذي كان لغز عشتار من نواتجه، قد نقلني من طور الهواية إلى طور التخصص، فتفرغت للكتابة بشكلٍ كامل ولم أفعل شيئاً آخر خلال السنوات الثلاثين الأخيرة التي أنتجت خلالها بقية أفراد أسرة الأعمال الكاملة، إلى أن دعيت جامعة بكين للدراسات الأجنبية في صيف عام 2012 للعمل كمحاضر فيها، وعهدت إلي بتدريس مادة تاريخ العرب لطلاب اللسانيات ومادة تاريخ أديان الشرق الأوسط لطلاب الدراسات العليا، وهناك أنجزت كتابي الأخير «الله والكون والإنسان». على أنني أفضّل أن أدعو هذه الطبعة بالأعمال غير الكاملة، وذلك على طريقة الزميلة غادة السمان التي فعلت ذلك من قبلي، لأن هذه المجموعة مرشحة دوماً لاستقبال أعضاء جدد مازالوا الآن في طي الغيب.

وعلى الرغم من أنني كنت أخطب العقل العربي، إلا أنني فعلت ذلك بأدوات ومناهج البحث الغربي، ولم أكن حريصاً على إضافة الجديد إلى مساحة البحث في الثقافة العربية، قدر حرصي على الإضافة إلى مساحة البحث على المستوى العالمي، وهذا ما ساعدني على اختراق حلقة البحث الأكاديمي الغربي المغلقة، فدعاني الباحث الأميركي الكبير توماس تومبسون المتخصص في تاريخ فلسطين

تقديم والدراسات التوراتية إلى المشاركة في كتاب من تحريره صدر عام 2003 عن
دار T & T Clark في بريطانيا تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

ونشرت فيه فصلاً بعنوان:

Jerusalem During the Age of Judah Kingdom

كنت قد تعرفت على تومبسون في ندوة دولية عن تاريخ القدس في العاصمة
الأردنية عمان عام 2001، شاركتُ فيها إلى جانب عددٍ من الباحثين الغربيين في
التاريخ وعلم الآثار، وربطتُ بيننا صداقةٌ متينة استمرت بعد ذلك من خلال
المراسلات، إلى أن جمعتنا مرة ثانية ندوة دولية أخرى انعقدت في دمشق
بمناسبة اختيار القدس عاصمةً للثقافة العربية، وكانت لنا حواراتٌ طويلة حول
تاريخ أورشليم القدس وما يُدعى بتاريخ بني إسرائيل، واختلفنا في مسائل عديدة
أثارها تومبسون في ورقة عمله التي قدمها إلى الندوة. وكان الباحث البريطاني
الكبير كيث وايتلام قد دعا كلينا إلى المشاركة في كتابٍ من تحريره بعنوان :

The Politics of Israel's Past

فاتفقنا على أن نشير هذه الاختلافات في دراستينا اللتين سُنشران في ذلك
الكتاب، وهكذا كان. فقد صدر الكتاب الذي احتوى على دراساتٍ لباحثين من
أوروبا وأميركا عام 2013 عن جامعة شيفلد ببريطانيا، وفيه دراسةٌ لي عن نشوء
الديانة اليهودية بعنوان :

The Faithful Remnant and the Invention of Religious Identity

خصصتُ آخرها لمناقشة أفكار تومبسون، ولتومبسون دراستان الأولى
بعنوان:

What We Do And Do Not Know About Pre-Hellenistic Al-Quds.

والثانية خصصها للرد عليّ بعنوان:

The Literary Trope of Return - A Reply to Firas Sawah.

أي: العودة من السبي كمجاز أدبي - رد على فراس السواح.

الكتاب يُشبه الكائن الحي في دورة حياته، فهو يُولد ويعيش مدةً ثم يختفي ولا تجده بعد ذلك إلا في المكتبات العامة، ولكن بعضها يقاوم الزمن وقد يتحول إلى كلاسيكيات لا تخرج من دورة التداول. وقد أطال القراء في عمر مؤلفاتي حتى الآن، ولم يختف أحدها من رفوف باعة الكتب، أمّا تحوّل بعضها إلى كلاسيكيات فأمرٌ في حكم الغيب.

فإلى قرائي في كل مكان أُهدي هذه الأعمال غير الكاملة مع محبتي وعرفاني.

فراس السواح

بكين، كانون الثاني - يناير 2016

فاتحة

ينشأ كل دين في بيئة ثقافية معينة تقدم له الخلفية الاعتقادية والميثولوجية التي يشيد بنيتها الجديدة انطلاقاً من نقدها وتجاوزها، ولكن مع الإبقاء على بعض آثار تلك الخلفية القديمة. فالعلاقة بين القديم والجديد هنا علاقة جدلية، يتبادل الاثنان فيها التأثير والتأثير وصولاً إلى حالة من الاستقرار يلتقي عندها الاثنان في تركيب لا يشبه أيّاً منهما.

إن الأمثلة التي يمكن إيرادها عن العلاقة بين القديم والجديد في تاريخ الأديان كثيرة، ويمكن أن تأخذنا بعيداً عن مقاصد هذه الدراسة. ولهذا سوف أكتفي بما يتلاءم مع هذه المقاصد، وأقدم عرضاً سريعاً يتناول الأديان الثلاثة المعروفة بالتوحيدية أو السماوية، على الرغم من تحفظي على هذه التسمية، لأن صفة التوحيدية يمكن إسباغها أيضاً على أديان أخرى مثل الزرادشتية والمناوية، بينما يمكن الطعن بصفة التوحيدية التي تسبغ عادة على اليهودية.

فعلى الرغم من تميز كتاب التوراة عن بقية الأدب الديني المشرقي، إلا أنه يحتوي على الكثير من مادة ذلك الأدب، لا سيما الرافديني منه والكنعاني. وعلى الرغم من الاستقلالية التي أعلنها يسوع المسيح عن التاريخ الديني اليهودي منذ البدايات الأولى لكرازته، إلا أن سيرته التي تقصها علينا الأناجيل الأربعة تحتوي على الكثير من المادة التوراتية، ومؤلفوها يقتبسون في معظم الأحيان مقاطع توراتية من أجل توضيح مقاصدهم، وكثيراً ما نجد مثل هذه المقتبسات في أقوال يسوع، مثل قوله: "الحجر الذي رذله البناءون صار رأس الزاوية"، وهو مقتبس عن سفر المزامير 118: 22. وقبل أن يسلم الروح على الصليب قال: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني"، وهو نداء يبتدئ به المزمور 22 من سفر المزامير التوراتي حيث نقرأ: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي

عن كلام زفيرى... إلخ" فإذا جئنا إلى القرآن الكريم وجدناه على تفردِه واستقلالية رسالته عن كل من التوراة والإنجيل، يشير في أكثر من آية إلى وجود ما يربطه بهما، وإلى كونه الحلقة الأخيرة في سلسلة الوحي التي لم تنقطع منذ أيام آدم. نقرأ في سورة آل عمران على سبيل المثال: ﴿لَمْ يَكُنْ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هَدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾، أي إن القرآن قد صادق على ما ورد في الكتابين السابقين، لأن الوحي واحد لا يتجزأ من حيث جوهره، وإنما في تفاصيله التي تأتي في اتفاق مع كل عصر.

وهكذا نكون أمام نظريتين في تفسير تشابك الكتب المقدسة: الأولى تنظر إلى الدين باعتباره ظاهرة ثقافية ينطبق عليها ما ينطبق على بقية ظواهر الثقافة الإنسانية من نشوء وتطور وتأثر وتأثير؛ والثانية تنظر إلى الدين باعتباره نتاج وحي إلهي مباشر ألقى في قلب النبي (= القرآن الكريم)، أو باعتباره نتاج إلهام من الروح القدس خطته يد بشرية (= التوراة والإنجيل).

في هذه الدراسة التي أتابع فيها ما بدأت في كتابي السابق "الإنجيل برواية القرآن"، لا أنطلق من موقف مسبق من مسألة التشابه بين القصص القرآني والقصص التوراتي، وإنما من موقف باحث يعتمد منهج علم الأديان المقارن. أما عن مادة المقارنة، وهي التي دعوتها بالقصص، فإنها لا تقتصر على القصص بمفهومه الضيق، مثل قصة يوسف والطوفان الكبير، بل تشمل أيضاً على أخبار الأنبياء، وعلى مسائل لاهوتية معينة مثل البعث والقيامة وما إليها من تصورات أخروية، وموضوعات متفرقة أخرى. ومن الجدير بالذكر أن المادة التوراة التي اعتمدتها للمقارنة لا تقتصر على ما ورد في الأسفار الرسمية للكتاب، وإنما تتعداها إلى تلك الأسفار غير الرسمية التي بقيت على هامش التوراة، ولكنها أدت مع ذلك دوراً هاماً في تشكيل الصيغة الأخيرة لليهودية بدءاً من القرن الثاني الميلادي، وهي اليهودية التلمودية.

مدخل

إطالة على النصين

تاريخ التوراة العبرانية (العهد القديم)

التوراة العبرانية، هو الكتاب المقدس عند اليهود، ويشكل القسم الأول من الكتاب المقدس المسيحي تحت اسم "العهد القديم" ويؤمن كلا الطرفين بأن أسفار هذا الكتاب قد دونت بإلهام من روح الله، على الرغم من أن يد البشر هي التي خطته.

والتوراة أشبه بمكتبة منها بكتاب. فهي مجموعة من الكتب عكف على تدوينها محررون مختلفون وعلى فترات زمنية متباعدة، ولكن فكرة واحدة تنظمها جميعاً، وهي علاقة الإله يهوه بشعب إسرائيل الذي اختاره شعباً خاصاً له، وسار إلى جانبه عبر جميع مراحل تاريخه. أما عن زمن تدوين هذه الكتب فأمر خلافي بين علماء التوراة، ولكن الرأي الأكثر قبولاً لدى معظمهم اليوم هو أنها قد دُوِّنت بعد عودة سبي يهوذا من بابل، وعلى مدى قرنين أو ثلاثة قرون، وذلك من أواسط القرن الخامس قبل الميلاد إلى أواسط القرن الثاني قبل الميلاد. وبما أن التاريخ الذي تكتبه التوراة لشعب إسرائيل القديم ينتهي مع تدوين سفر نحemia، وأن آخر حدث في هذا السفر هو سفر نحemia إلى البلاط الفارسي عام 433 ق.م، فإن المحررين الذين عكفوا على رواية تاريخ بني إسرائيل، كانوا يقصّون عن أحداث معظمها مغرق في القدم وتفصلهم عنها قرون متطاولة. وهذا ما يلقي اليوم ظلالاً من الشك على مصداقية الرواية التوراتية، التي دُوِّنت من وجهة نظر دينية، وعلى قيمتها التاريخية.

لقد وُلدت الوحدات الأساسية للرواية التوراتية كلٌّ على حدة، وتم إنتاجها من قبل محررين مختلفين ومتباعدين زمنياً؛ ثم جاءت عملية التنسيق الأخيرة لتتجمع بينها في رواية مطردة، ومن خلال منظور إيديولوجي و كرونولوجي مفروض عليها

من خارجها. وقد استخدم كل محرر، أو مجموعة محررين، مصادر وموروثات متباينة المنشأ: من قصص شعبي، وموروثات متداولة شفهيًا، إضافة إلى مصادر مكتوبة أشاروا إليها في مواضع مختلفة من النص، لا نعرف منها سوى عناوينها، ولا نعرف شيئاً عن مصداقيتها التاريخية، ولا عن الطريقة التي استفادوا بها منها. وهذا ثبتٌ بعناوينها والمواضع التي وردت فيها الإشارة إليها:

- 1- كتاب حروب الرب: (سفر العدد 21: 14).
- 2- سفر ياشر: (سفر يشوع 10: 13 و صموئيل الثاني 1: 18).
- 3- سفر أمور سليمان: (سفر الملوك الأول 11: 41).
- 4- سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا: (سفر الملوك الأول 14: 19 و 15: 7).
- 5- سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل: (سفر الملوك الثاني 1: 18 و 14: 28).
- 6- أخبار صموئيل الرائي: (سفر أخبار الأيام الأول 29: 29).
- 7- أخبار ناثان النبي: (سفر أخبار الأيام الثاني 9: 29).
- 8- أخبار شمعيا النبي وعِدّو الرائي: (سفر أخبار الأيام الثاني 12: 15).
- 9- أخبار ياهو بن حناني: (سفر أخبار الأيام الثاني 20: 34).

تدعى الكتب المؤلفة للتوراة بالأسفار، مفردها سِفَر: ويعني في الأصل دَرَج أو لفافة الورق، لأن كل كتاب كان يدون على صحيفة طويلة من الورق ثم تُدرج وتحفظ إلى جانب الصحف المدروجة الأخرى. وتوزع هذه الأسفار على أربع مجموعات رئيسة هي:

- 1- الأسفار الخمسة، أو الـ "Pentateuch" باللغة اليونانية. وتدعى أيضاً بأسفار موسى الخمسة، لأن الأسطورة تعزو إلى موسى نفسه أصولها الأولى. وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، وتثنية الاشتراع. تنقسم موضوعات سفر التكوين إلى قسمين: في القسم الأول يقصص المحرر عن خلق العالم وخلق نباتات الأرض وكائناتها الحية ثم خلق الإنسان، وعن الأجيال الأولى للبشرية، وعن الطوفان الكبير الذي أفناها، ثم عن عروق البشر التي

تسلسلت من أولاد نوح الثلاثة؛ وفي القسم الثاني يركز على سيرة أسرة واحدة فقط هي أسرة الأب الأول إبراهيم، وأولاده وأحفاده وصولاً إلى يوسف الذي رحل إلى مصر واستقدم إليه أباه اسحق وإخوته الأحد عشر، حيث تكاثروا هناك ثم وقعوا تحت نير العبودية بعد وفاة يوسف.

في سفر الخروج، وسفر العدد، واللاويين، وتثنية الاشتراع، يقص المحرر عن خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وإنقاذهم من العبودية، وإعطائهم الشريعة التي تلقاها من الرب، والسير بهم إلى الأرض التي وعد الرب إبراهيم أن يعطيها لنسله.

2- الأسفار التاريخية: وتحكي قصة بني إسرائيل منذ دخول أرض كنعان حتى العودة من السبي البابلي، وهي:

- سفر يشوع: ويحكي قصة الاقتحام العسكري لفلسطين، أو بلاد كنعان كما يدعوها النص التوراتي، وذلك بقيادة يشوع بن نون خليفة موسى، وكيف وزع يشوع الأراضي المكتسبة على القبائل الإسرائيلية الاثني عشر. ويُفترض أن أحداثه قد تمت في آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

- سفر القضاة: ويغطي أحداثاً جرت على مدى قرنين من الزمان فيما بين عام 1200 ق.م و 1030 ق.م. وقد عاش بنو إسرائيل خلال هذه الفترة دون سلطة مركزية تجمعهم، وكانوا موضع اضطهادٍ وتعدياتٍ من قبل ممالك الفلسطينيين المجاورة لهم، وممالك شرقي الأردن.

- سفر صموئيل الأول: ويحكي قصة صعود الملك شاول وتأسيسه لأول سلطة مركزية للقبائل الإسرائيلية، وحروبه مع أعداء بني إسرائيل حتى مقتله في آخر معركة له مع الفلسطينيين. ومن المفترض أن شاول قد حكم من عام 1030 ق.م إلى عام 1009 ق.م.

- سفر صموئيل الثاني: ويقص عن عصر الملك داود الذي بدأ حياته العامة كحاملٍ لسلاح الملك شاول، وكيف شق طريقه في الجيش والحياة العامة وصولاً إلى كرسي الملك، وكيف أسس بعد ذلك لملكٍ مستقر، ووسع حدود

ممتلكاته التي امتدت من حدود مصر إلى نهر الفرات. ومن المفترض أن داود قد حكم من 1009 ق.م إلى 969 ق.م

- سفر الملوك الأول: ويقص عن العصر الذهبي للمملكة الموحدة لكل إسرائيل، إبان فترة سليمان بن داود، وعن حكمته وثرائه وأعماله وسلطته على كل من حوله من الممالك، وبنائه لبيت الرب في العاصمة أورشليم، ومنجزاته العمرانية الأخرى، ثم وفاته وانقسام مملكته إلى مملكة شمالية تدعى إسرائيل (أو السامرة فيما بعد)، ومملكة جنوبية تدعى يهوذا عاصمتها أورشليم. ومن المفترض أن سليمان قد حكم من 969 ق.م إلى عام 931 ق.م.

- سفر الملوك الثاني: ويتناول الأحداث التي جرت في المملكتين، ودورهما في الصراعات الإقليمية، وصولاً إلى نهاية مملكة إسرائيل وتدمير عاصمتها السامرة من قبل الآشوريين عام 721 ق.م، ثم نهاية مملكة يهوذا بعد ذلك بنحو قرن ونصف القرن، وتدمير عاصمتها أورشليم على يد الكلدان البابليين عام 587 ق.م. وقد أعقب كلا التدميرين سبي واسع النطاق لسكان المملكتين باتجاه مناطق بلاد الرافدين.

- سفراً أخبار الأيام الأول والثاني: ويعيد هذان السفران (الليذان كتباً في وقت متأخر) سرد الأحداث الواردة في أسفار صموئيل والملوك من منظور سياسي و أيديولوجي مختلف.

- سفراً عزرا و نحميا: ويقصان عن عودة سبي يهوذا من بلاد بابل وإعادتهم لبناء مدينة أورشليم المهدامة وبناء هيكل سليمان القديم بشكل أكثر تواضعاً. وعلى هذا الشكل تنتهي الرواية التوراتية نحو أواسط القرن الخامس قبل الميلاد.

- سفر استير: ويحكى قصة فتاة يهودية تدعى بهذا الاسم، تزوجها الملك الفارسي، وقد أفادت من مكانتها لديه وحمى شعبها من الإبادة التي كان يخطط لها الوزير هامان.

3- أسفار الحكمة: مجموعة أسفار يغلب عليها التأمل الفلسفي، وهي: راعوث، ويونان، وأيوب، والأمثال، والمزامير، ونشيد الإنشاد.

4- أسفار الأنبياء: وتحكي عن حياة وتعاليم ونبوءات عدد من أنبياء بني إسرائيل، وهم: إشعيا، وإرميا، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي.

ويبدو أن هذه الأسفار الـ39 التي تؤلف اليوم التوراة العبرانية قد اتخذت وضعاً شبه قانوني منذ القرن الثاني قبل الميلاد، لأن الترجمة اليونانية للتوراة التي قام بها يهود الإسكندرية، والتي اكتملت في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، قد احتوت على هذه الأسفار الـ39، إضافة إلى عدد قليل آخر من الأسفار دونت أصلاً باللغة اليونانية، وهي: يهوديت، وطوبيا، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، ورسالة إرميا. إلا أن الأصل العبري الذي قامت عليه هذه الترجمة المدعوة بالسبعينية⁽¹⁾ - Septuagent (ويرمز إليها بالأحرف LXX) مفقود. والترجمات التي بين أيدينا اليوم إلى اللغات الحية بما فيها العربية، تعتمد مخطوطات للتوراة يعود تاريخها إلى القرن التاسع أو العاشر الميلاديين. وهذا ما يقودنا إلى إلقاء نظرة عامة على تاريخ النص التوراتي، وترجماته القديمة المتنوعة التي أعقبت الترجمة السبعينية⁽²⁾

عندما اكتملت الترجمة السبعينية للتوراة في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، على يد عدد متنوع من المترجمين وعبر عقود طويلة متتالية، كانت هذه الفترة تشهد نشاطاً أدبياً يهودياً لا مثيل له في الفترات السابقة، الأمر الذي أدى إلى ظهور أسفار توراتية جديدة كتبها مؤلفون مجهولون ونسبوا إلى شخصيات توراتية بارزة. وعندما شاع تداول هذه الأسفار الجديدة بين اليهود

(1) والاسم مأخوذ من الحكاية التي تقول إن اثنين وسبعين يهودياً من علماء التوراة قد اجتمعوا لترجمة الكتاب إلى اليونانية، فقبعوا كل واحد في غرفة مغلقة مدة 72 يوماً أنهوا خلالها الترجمة. وعندما جرت مقارنة الاثنين والسبعين ترجمة على بعضها وجدت مطابقة تماماً، الأمر الذي يدل على أن النص هو كلمة الله الموحاة..

(2) هذه الإطالة على تاريخ النص العبري للتوراة وترجماته القديمة تعتمد الفصل الرابع من كتاب: - John Allegro. The Dead Sea Scrolls, Penguin Books, 1966..

(وبعد ذلك بين المسيحيين)، وذابت الفوارق بين ما هو قانوني وغير قانوني في الأدبيات التوراتية، لاسيما بعد دمار أورشليم على يد الرومان عام 70م، وفقدان السلطة الدينية المركزية، ارتأى عدد من الربانيين اليهود وضع حد لهذه الفوضى، فاجتمعوا في مدينة يمينيا (بينة القديمة) قرب حيفا، من أجل إقرار قراءة موحدة للأسفار من بين قراءات متعددة، وأيضاً من أجل إقرار الأسفار التي اعتبروها ملهمة من الرب، والأسفار الأخرى الزائفة. وبذلك ظهر إلى الوجود النص الموحد للتوراة العبرانية الذي بين أيدينا اليوم، وعدد أسفاره 39 سفرًا، بعد أن استبعد مجمع يمينيا الأسفار الثمانية الزائدة في الترجمة السبعينية التي كتبت أصلاً باليونانية، وغيرها من الأسفار العبرية التي اعتبرت زائفة. ولكن القول بأن نص مجمع يمينيا الموحد هو النص الذي بين أيدينا اليوم، ليس دقيقاً تماماً، وذلك لأننا لا نملك نسخة من ذلك النص من جهة، ومن جهة أخرى لأن النص القانوني الأول كان مكتوباً بالأحرف العبرية الساكنة، وكان تحريكه يعتمد على التقاليد الشفوية المتوارثة. أما النص الحقيقي الذي يشكل أساس الترجمات الحديثة فهو النص الماسوري المحرّك الذي أنجزه العلماء الماسوريون أثناء الفترة الانتقالية من القرن التاسع إلى القرن العاشر الميلادي، انطلاقاً من النص القانوني لمجمع يمينيا. وكلمة ماسورين وماسوري مشتقة من ماسوراه التي تعني التقليد أو الموروث، لأن علماء الكتاب في ذلك الوقت قرروا وضع الصيغة التقليدية النهائية لقراءة كتاب التوراة، خوفاً من الاختلاف في القراءات بعد أن صارت اللغة العبرية القديمة في عداد اللغات الميتة، وحلت محلها لهجات عبرية شعبية كان اليهود يستعملونها في حياتهم اليومية.

نعود الآن إلى موضوع ترجمة الكتاب إلى لغات العالم القديم، فقد كانت الترجمة السبعونية إلى اللغة اليونانية هي أول الترجمات، وقد اعتمدها في البداية يهود الإسكندرية الذين كانوا لا يقرؤون العبرية؛ كما اعتمدها المسيحيون الأوائل ومؤلفو الأناجيل وبقية أسفار العهد الجديد. ومعظم المقتبسات التوراتية التي أوردها هؤلاء المؤلفون، مثل النبوءات بخصوص قدوم المسيح وغيرها، مأخوذة عن النص السبعيني. وبذلك فقد شاعت هذه الترجمة بين اليهود

المتكلمين باليونانية في بلدان حوض المتوسط وبين المسيحيين؛ وما لبثت الكنيسة الناشئة حتى اعتمدتها نصاً قانونياً للعهد القديم. ولكن عندما أخذ المسيحيون يحتاجون اليهود اعتماداً على النص السبعيني، فقد هذا النص جاذبيته عند اليهود، فعمدوا إلى إنجاز ترجمة يونانية بديلة، وهكذا ظهرت إلى الوجود ترجمة Aquila، وذلك نحو منتصف القرن الثاني الميلادي. ويبدو أن هذه الترجمة قد اعتمدت نصاً عبرياً أقرب إلى النص القانوني منه إلى أصل الترجمة السبعينية. وبذلك حل نص Aquila محل النص السبعيني لدى اليهود. وبعد ذلك بقليل ظهرت Symmachus التي تميزت بحرية أكثر في التعبير وبأسلوب يوناني أكثر جزالة. وبعدها ظهرت ترجمة Theodotion التي يبدو أن أصلها العبري كان أقرب إلى نص Aquila والنص القانوني منه إلى أصل السبعينية. ونحو منتصف القرن الثالث قام أوريجين الإسكندري بوضع نص مقارن قسمه إلى عدة أعمدة، حيث وضع في العمود الأول النص التقليدي القانوني، وفي العمود الثاني ترجمة Aquila، وفي الثالث ترجمة Symmachus، وفي الرابع ترجمة Theodotion، وفي الأخير النص السبعيني مراجعاً من قبله. وما لبثت هذه المراجعة التي قام بها للنص السبعيني حتى غدت بحد ذاتها ترجمة مستقلة، وتم تداولها على هذا الأساس. وفي هذه الأثناء أيضاً ظهرت أكثر من ترجمة آرامية كانت واحدها تدعى ترجوم. ويتميز الترجوم بتداخل المتن مع الشروح والتعليقات، الأمر الذي يجعله أقرب إلى عامة اليهود المتكلمين بالآرامية، سواء في فلسطين أم في بقية أنحاء سوريا وبلاد الرافدين. كما ظهرت الترجمة اللاتينية في القرن الخامس الميلادي.

حتى أواسط القرن العشرين كان الاعتقاد سائداً لدى علماء التوراة بأن النص الماسوري المنقط الذي يعود في أصوله إلى نص مجمع يمينيا، هو أقدم نص مكتوب للتوراة، وأنا لن نعثر في المستقبل على ما هو أقدم منه. ولكن حدث في عام 1948 اكتشاف غير مجرى الدراسات التوراتية، حين بدأت الوثائق المعروفة بمخطوطات البحر الميت تظهر تباعاً من كهوف وادي قمران على السفوح الغربية للمرتفعات الفلسطينية المنحدرة نحو البحر الميت. وقد تبين أنها من نتاج فرقة يهودية غير أرثوذكسية (ربما كانت الفرقة الأسينية) كانت تقيم في

دير في هذه البوادي البعيدة عن المراكز الحضرية. وقد تم العثور بين هذه المخطوطات على نصوص كاملة لعدد لا بأس به من أسفار التوراة، إضافة إلى نصوص منقوصة أو شذرات نصوص من بقية الأسفار. وبما أن مخطوطات قمران تعود بتاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي (تم تدمير دير قمران نحو عام 70م من قبل الرومان)، فإن أقدم مخطوط لكتاب التوراة الآن هو مخطوط قمران الذي يفوق في القدم نص مجمع يمينيا بنحو قرنين من الزمان.

وقد ألفت هذه المخطوطات ضوءاً على أصول الترجمة السبعينية، التي كانت تبدو بين بقية الترجمات اليونانية تنتمي وحدها إلى تقليد مختلف وأصل مستقل. كانت لفافة سفر إشعيا أول ما تم ترميمه ودراسته. وقد تبين أنها تتبع بدقة النص الماسوري حتى في أصغر جزئيات التهجئة، الأمر الذي أكد قدم أصل النص الماسوري. إلا أن العثور بعد ذلك على لفافة سفر صموئيل الأول، قد قدم للعلماء مفاجأة، لأنه قدم لنا نصاً يتفق مع الترجمة السبعينية كلمة فكلمة تقريباً، الأمر الذي دل على أن جماعة قمران كانت تحتفظ بلفائف تنتمي إلى أكثر من أصل وتقليد، وأن الترجمة السبعينية تمثل فعلاً تقليداً يختلف عن تقليد النص الماسوري. أما عن الأسفار الثمانية الزائدة في الترجمة السبعينية، فقد قيض لها الاستمرار في النص المقدس للعهد القديم عندما تبنّت الكنيسة الكاثوليكية النص الماسوري وأضافت إليه هذه الأسفار التي دونت أصلاً باللغة اليونانية، واعتبرتها أسفاراً قانونية من الدرجة الثانية. ولكن حركة الإصلاح البروتستانتي التي انطلقت في القرن السادس عشر عادت إلى التقليد القديم، والتزمت في عهدها القديم الأسفار العبرية فقط والبالغ عددها 39 سفرًا.

أثناء الفترة التي شهدت عملية تنميط وتوحيد التوراة العبرانية في نص قانوني معتمد، لم يكن النشاط الأدبي الديني قد خف، ولم تتوقف عملية إنتاج الأسفار غير القانونية، التي ندرجها اليوم تحت مصطلح أو عنوان Pseudepigrapha، أي الكتابات الزائفة، والتي نستطيع تمييزها عن بقية الأجناس الأدبية اليهودية بأنها تعالج موضوعات وأفكاراً شبيهة بموضوعات وأفكار

الكتاب المقدس القانوني ، وتدعي مثلما تدعي الأسفار القانونية بأنها تحتوي على رسالة الرب وكلمته إلى الناس. ولكنها من ناحية أخرى تنفرد بالتركيز على أفكار وموضوعات لم تركز عليها الأسفار القانونية ، وأهمها: معنى الخطيئة ، وأصل الشر والشیطان ، وتنزيه الخالق ، وقدوم المسيح ، وبعث الأجساد في اليوم الأخير ، والثواب والعقاب الآخرين ، والجنة والنار. وجميع هذه الأسفار غير القانونية دون أثناء الفترة من 200 ق.م إلى 200 م ، والوثائق التي تعود إلى ما بعد هذا التاريخ ترجع في أصولها إلى نسخ مفقودة من تلك الفترة. بعض هذه النصوص وصلنا عن طريق النسخ ، وبعضها فقد تماماً ، وبعضها تم العثور عليه في القرنين الماضيين ، وذلك بعون قوائم بها وضعها مؤلفون قدماء. وقد مارست هذه النصوص ، على الرغم من بقائها على هامش النص الرسمي ، تأثيراً كبيراً في الفكر الرباني التلمودي اللاحق ، وساهمت في تكوين الديانة اليهودية التي نعرفها اليوم. ولكي أعطي فكرة عن حجم هذا الأدب غير القانوني ، أشير على أنه قد بلغ في أحدث ترجمة إنكليزية له⁽¹⁾ عدداً من الصفحات لا يقل عن عدد صفحات التوراة الرسمية.

(1) J. H. Charlesworth, ed, The Old Testament Pseudepigrapha, Doubleday, New York, 1983.

تاريخ المصحف الشريف

يؤمن المسلمون بأن القرآن الكريم هو كلام الله أنزله على رسوله الكريم بواسطة الملاك جبريل. وقد استغرق نزول القرآن على النبي مدة اثنتين وعشرين سنة. وكان كلما تلقى شيئاً منه جمع الصحابة في اليوم التالي وقال لهم: إن ربكم يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا. وتروي الأخبار المتواترة عن الصحابة وعن أزواج الرسول أنه كان يعاني من نزول الوحي ألماً شديداً، فيتصبب عرقاً ويتصدع رأسه، وربما أغمي عليه. وكان الوحي ينزل بآية واحدة أو بجملة آيات متتابعات، فيعتمد الرسول إلى توجيه كتاب الوحي لأن يضعوا الآيات الجديدة في مكانها الصحيح من السياق القرآني.

يتألف القرآن، وفق المصحف الذي أقره الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وهو المصحف المتداول اليوم، من 114 سورة. والسورة تعني القطعة من البناء، فهي والحالة هذه قطعة أو قسم من الأقسام المكونة للقرآن. وقيل أيضاً إن السورة من السُّور، فهي تحيط بآياتها إحاطة السور بأحياء المدينة. وتتميز كل سورة باسم خاص بها يميزها عن بقية السور، مستمد من طبيعتها وأبرز موضوعاتها، فنقول: سورة آل عمران، أو المائدة، أو يوسف، أو يونس، وما إلى ذلك. وتتألف كل سورة بدورها من عدد من الآيات جرى ترقيمها لسهولة الرجوع إليها. فأقصر السور يتألف من ثلاث آيات فقط، مثل سورة العصر وسورة الكوثر، وأطولها وهي سورة البقرة تحتوي على 286 آية.

والسُورة تنقسم إلى نوعين: النوع الأول يدعى بالسور المكية، وهي التي نزلت على الرسول وهو في مكة، والنوع الثاني يدعى بالسور المدنية، وهي التي نزلت بعد هجرته إلى المدينة، سواء نزلت بالمدينة يشرب نفسها أو بمكة بعد عام الفتح، أو نزلت أثناء سفر من أسفار الرسول. وتتميز السور المكية بقصر الآيات، والكلام القوي المكثف والمسجوع، واللهجة الخطابية التي

يكثُر فيها الوعد والوعيد؛ كما تتميز بأطروحاتها الجدلية، ووحدة موضوعاتها التي تدور حول شجب الكفر والشرك بالله، والدعوة إلى عبادة الله الواحد، وقرب يوم القيامة، ومشاهد الآخرة، والملائكة والجن والشياطين، والاستشهاد بأحداث الماضي وأخبار الأمم الغابرة. أما السُّور المدنية، فتتميز بندرة السجع، وطول نَفَس الآيات، والخطاب السردي الهادئ، وقلة الجدل، وقلة أخبار الأمم الغابرة ومشاهد القيامة واليوم الآخر، وظهور التشريع الذي نادراً ما تطرقت إليه السور المكية.

هذه السور كانت تكتب بأمر النبي مفرقة على الرقاع وعظام الأكتاف وعُسب النخل وتحفظ في بيت النبي. أما عن جمعها في كتاب واحد هو المصحف الشريف، فإن الأخبار متضاربة بهذا الشأن. فبعض الأخبار تقول إن الجمع قد تم في حياة الرسول. فقد رُوِيَ عن قتادة قال: "سألت أنس بن مالك من جمع القرآن على عهد النبي؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار، وهم أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، ونحن ورثناه"⁽¹⁾. وعن زيد بن ثابت: "كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع"⁽²⁾. وعن محمد بن كعب القرظي: جمع القرآن على عهد رسول الله خمسة من الأنصار هم معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري"⁽³⁾. وعن علي بن إبراهيم: "إن النبي أمر بجمع القرآن الذي كان في صحف وحرير وقرطاس في بيته، لكي لا يضيع كما ضيَّع التوراة والإنجيل"⁽⁴⁾.

وبعض الأخبار تقول إن الجمع قد تم بعد وفاة الرسول مباشرة، وإن الإمام علي كرم الله وجهه هو من تصدى لهذه المهمة. فيروى عن فقيه البصرة محمد بن سيرين قوله: "لما توفي النبي أقسم عليّ أن لا يرتدي برداء حتى يجمع القرآن

(1) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي، ج 5.

(2) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 299.

(3) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 72.

(4) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 20.

في مصحف، ففعل⁽¹⁾. ويروى عن ابن المنادي سماعه لرواية تقول إن علياً لما رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي، أقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن؛ فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن، فهو أول مصحف جُمع فيه القرآن من قبله⁽²⁾. ويبدو أن مصحف علي هذا كان مرتباً حسب النزول. يقول السجستاني: "فمنهم من رتبها على النزول، وهو مصحف علي كان أوله سورة اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمل، وهكذا إلى آخر المكي والمدني"⁽³⁾.

وبعض الأخبار تقول إن جمع القرآن تم في عهد خلافة أبي بكر بتحريض من عمر بن الخطاب وإشرافه. فقد ورد في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت، قال: أرسل إلي أبو بكر يوم مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: "إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن". قلتُ لعمر: "كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟" فقال عمر: "هذا والله خير". فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رآه عمر". قال زيد: قال أبو بكر: "إنك رجل شاب عاقل لا تهتمك. وكنت تكتب الوحي لرسول الله. فتتبع القرآن فاجمعه". فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: "كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله؟". قال: "هو والله خير". فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتبعت القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد لها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ حتى خاتمة السورة. فكانت المصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر خلال حياته، ثم عند حفصة بنت عمر⁽⁴⁾.

(1) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 17.

(2) ابن النديم: الفهرست، طبعة طهران، ص 30.

(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 62.

(4) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن. وأيضاً السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 57.

وبعض الأخبار يعزو إلى عمر في ولايته جمع القرآن. فقد روي عن أبي ذر من طريق الحسن "أن عمر سأل عن آية من كتاب الله، فقيل: كانت مع فلان فُتِل يوم اليمامة، فقال: إنا لله. وأمر بجمع القرآن فكان أول من جمعه في المصحف"⁽¹⁾. وعن يحيى بن عبد الرحمن حاطب قال: "أراد عمر أن يجمع القرآن، فقام في الناس فقال: "من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأتنا به". وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعصب. وكان لا يقبل شيئاً من ذلك حتى يُشهد عليه شاهدين. فجاء خزيمة فقال: إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. فقال: وما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾⁽²⁾. وروى ابن سعد أن أول من جمع القرآن عمر بن الخطاب. ويروى أن عمر كان يشدد على التزام لهجة قريش في تدوين القرآن. فقد سمع رجلاً يقرأ في الآية 25 من سورة يوسف: "لَيْسَ جُنَّتْهُ عَيْنِي"، تبديل الحاء إلى عين. فقال له عمر: من أقرأك هذا؟ قال: ابن مسعود. فقال عمر: "حَتَّى حِينَ" ثم كتب إلى ابن مسعود يقول: "سلام عليك. أما بعد. فإن الله أنزل القرآن فجعله قرآناً عربياً مبيناً، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقري الناس بلغة قريش ولا تُقرّتهم بلغة هذيل"⁽³⁾.

وبعض الأخبار تقول بجمع الخليفة الثالث عثمان بن عفان للقرآن. فقد قال الشعبي: "لم يجمع القرآن أحد من الخلفاء الأربعة إلا عثمان"⁽⁴⁾. وفي رواية ثانية أن عمر توفي قبل أن تكتمل عملية جمع القرآن، فقام عثمان بن عفان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به. وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يُشهد شاهدين⁽⁵⁾. وفي روايات أخرى، فإن عثمان لم يجمع القرآن وإنما أخذ المصحف الذي جُمع تحت إشراف عمر في عهد أبي بكر، وكان محفوظاً في بيت عمر حتى

(1) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 58.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، ج 3، ص 211.

(3) الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله. دمشق مجمع اللغة العربية، ص 13.

(4) الشعبي: معرفة القراء الكبار، 1 ص 27.

(5) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 16.

قُتل، فأل إلى ابنته حفصة زوجة الرسول، وهو المعروف بمصحف حفصة. فأرسل إليها عثمان يطلبه من أجل استنساخه على أن يعيده إليها بعد انتهاء المهمة⁽¹⁾.

ولكن شكوكاً تحوم حول أصل مصحف حفصة، لأن البعض يقول إنه كان نسخة عن مصحف سابق، وأنها تدخلت أثناء نسخه في ترجيح بعض القراءات الخلافية. فعن سالم بن عبد الله أن حفصة أمرت أحد الكتّاب أن ينسخ لها مصحفاً وقالت له: إذا بلغت هذه الآية (السورة 2 الآية 238) فاكتب: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى و صلاة العصر، وقوموا لله قانتين"⁽²⁾. و صلاة العصر في الآية 238 من سورة البقرة غير موجودة في المصحف العثماني الموحد، حيث ورد: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

وقيل أيضاً أن أم المؤمنين عائشة كانت تحتفظ بمصحف وردت فيه الآية إياها مثلما وردت في مصحف حفصة⁽³⁾.

دعوى التحريف واختلاف القراءات:

هذا الغموض الذي يحيط بعملية جمع القرآن خلال العقدين اللذين أعقبا وفاة الرسول، يوضح لنا سبب وجود اختلافات في عدد سور القرآن في مصاحف الصحابة، إضافة إلى اختلافات في القراءة. فمصحف عبد الله بن مسعود كان يحتوي على 112 سورة بدل 114 سورة في المصحف العثماني، لأنه ترك المعوذتين، أي سورة الفلق "قل أعوذ برب الفلق..." وسورة الناس "قل أعوذ برب الناس" لظنه أنهما ليستا من القرآن. فقد كان يرى النبي يعوذ بهما الحسن والحسين في صغرهما مثلما كان يعوذهما بقوله: "أعوذ بكلمات الله التامة..."، وبغير ذلك مما ليس من القرآن⁽⁴⁾. وفي رواية أخرى أن مصحف ابن مسعود تنقصه الفاتحة أيضاً، وبذلك يكون عدد سوره 111 سورة⁽⁵⁾.

(1) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 26.

(2) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 95-97.

(3) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 94.

(4) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت، ص 26.

(5) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 142.

أما مصحف أبي بن كعب، فقد كان يحتوي على 116 سورة بعد أن أضاف افتتاح دعاء القنوت وظنّه سورتين، لأنه رأى الرسول يدعو بهما في الصلاة فظنّهما من القرآن⁽¹⁾. وهنالك من يقول إن السورتين الزائدتين في مصحف أبي هما دعاء الخلع: "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع (أي ننزع من بيننا) ونترك من يفجرک"، ودعاء الحفد: "اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد (أي نأتي خفافاً)، نرجو رحمتك ونخشى نقمته، إن عذابك بالكافرين ملحق (أي آتٍ)"⁽²⁾. ويبدو أن غير واحد من الصحابة قد اعتبر هذين الدعاءين من القرآن، فقد روي أن عمر قد قرأ في صلاته بعد الركوع فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم إنا نستعينك ونستغفرك.... إلى آخر الدعاءين⁽³⁾. وهنالك من يقول إن مصحف أبي كان يحتوي على 115 سورة لا على 116 سورة، لأنه أدمج سورة الفيل وسورة قريش في سورة واحدة⁽⁴⁾.

ويقال بالمقابل إن مصحف عثمان الموحد قد أسقط من نصه أكثر من آية لعدم ثبوتها عن طريق شاهدين. ويبقى العلم عند الله أن تكون من القرآن أم لا، فقد روي عن عائشة قولها: "كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن"⁽⁵⁾. وروي عنها أيضاً: "لقد نزلت آية الرجم، ورضاعة الكبير عشراً. ولقد كانت في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله وتشاغلنا بموته دخل الداجن فأكلها"⁽⁶⁾.

ويروى أن عمر أتى بآية الرجم إلى زيد بن ثابت فلم يكتبها، لأن عمر كان وحده⁽⁷⁾. ولكن عمر بقي مصرّاً على موقفه، ويروى عنه أنه قال غاضباً: "لولا

(1) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت، ص 26.

(2) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 143.

(3) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 143.

(4) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 144.

(5) صحيح مسلم، طبعة مصر، ج 4، ص 167.

(6) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، بيروت ص 310.

(7) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 58.

يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي⁽¹⁾. وآية الرجم تقول وفق رواية أبي بن كعب: "إذا زنيا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم"⁽²⁾

ومن الأخبار القائلة بسقوط آيات كثيرة من مصحف عثمان، ما هو مغرق في المبالغة، ولكننا نذكره من باب العلم بالشيء. فقد رُوي عن عائشة قولها: "كانت سورة الأحزاب تُقرأ في زمن النبي متي آية، فلما كتب عثمان المصحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن (أي 73 آية)"⁽³⁾. ويروي عن زر بن حبیش قال: "قال لي أبي بن كعب كَأَيِّنْ تَقْرَءُونَ سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين وإما أربعاً وسبعين. قال: قط؟ إن كانت لتقارب سورة البقرة أو هي أطول منها، وإن كانت فيها سورة الرجم"⁽⁴⁾. وقيل في سورة براءة (أو التوبة) الشيء نفسه. فقد روي عن مالك أن سورة براءة كانت تعدل بطولها سورة البقرة⁽⁵⁾.

وحول الموضوع نفسه لدينا أخبار أقل مبالغة من سابقاتها. فقد روى أبو سفيان القلاءي أن مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذات يوم: أخبروني بأيّتين في القرآن لم تكتبنا في المصحف، فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك. فقال لهم: "إن الذين آمنوا وهاجروا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ألا أبشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم، وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم، أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين، جزاء بما كانوا يعملون"⁽⁶⁾ وروى المسور بن مخرمة قال: قال عمر بن الخطاب لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أنزل علينا "أن جاهدوا كما جاهدتم أول

(1) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 58.

(2) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25.

(3) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25.

(4) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25.

(5) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 65.

(6) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25.

مرة؟" فإننا لا نجدها. قال ابن عوف: أسقطت فيما أسقط من القرآن⁽¹⁾. ويروى عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله إذا أوحى إليه أتيناہ فعلّمنا مما أوحى إليه، فجئت ذات يوم فقال: "إن الله يقول: إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون إليه الثاني، ولو كان إليه الثاني لأحب أن يكون إليهما الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب"⁽²⁾. وهذه الآيات غير موجودة في مصحف عثمان، ويروى عن عبد الله بن عباس أنه قال: لما نزلت: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ"⁽³⁾. ولا تحتوي الآية المذكورة (الشعراء: 214) في مصحف عثمان على "ورھطك منهم المخلصين" ويروى عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقرأ في مصحفه: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويستعينون بالله على ما أصابهم"⁽⁴⁾. ولا تحتوي الآية 104 من سورة آل عمران على جملة "ويستعينون بالله على ما أصابهم". وكان ابن الزبير يقرأ أيضاً: "لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام..."⁽⁵⁾. وقد وردت الآية 198 من سورة البقرة في مصحف عثمان على الشكل الآتي: "ليس عليكم من جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام..." ونلاحظ هنا أن مصحف ابن الزبير قد زاد جملة "في مواسم الحج"، كما قرأ "ليس عليكم من جناح": "لا جناح عليكم وهذا ما يحيلنا إلى نوع آخر من الاختلافات وهو الاختلاف في القراءة. وهو ما سنلتفت إليه الآن، دون مزيد من الأمثلة بخصوص النقص والزيادة.

(1) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25.

(2) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، ج 2، ص 25.

(3) السيوطي: الدر المنثور، طبعة قم، ج 5، ص 96.

(4) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 93.

(5) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 92.

فقد روى البعض أن عمر بن الخطاب صلى في الناس فقراً في سورة الفاتحة: "صراط من أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، وغير الضالين" وهي في مصحف عثمان ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ وأنه قرأ الآية الأولى من سورة آل عمران: "الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم" بدلاً من الحي القيوم⁽¹⁾. وروى أن عبد الله بن مسعود قرأ في مصحفه الآية 40 من سور النساء: "إن الله لا يظلم مثقال نملة" بدلاً من "مثقال ذرة"؛ وأنه قرأ الآية 43 من سورة آل عمران: "واركعي واسجدي في الساجدين" بدلاً من "واسجدي واركعي مع الراكعين"؛ وأنه قرأ في الآية 64 من سورة المائدة: "بل يدها بسطان" بدلاً من "بل يدها مبسوطتان"؛ وأنه قرأ الآية 197 من سورة البقرة: "وتزودوا، وخير الزاد التقوى" بدلاً من "وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى"؛ وقرأ في الآية 61 من سورة البقرة: "من بقلها وقثائها وثومها" بدلاً من "من بقلها وقثائها وفومها"⁽²⁾

وروي عن أصحاب ابن مسعود أنهم قرؤوا في الآية 202 من سورة البقرة: "أولئك لهم نصيب ما اكتسبوا" بدلاً من "أولئك لهم نصيب مما كسبوا"؛ وفي الآية 148 من سورة البقرة: "ولكل جعلنا قبله يرضونها" بدلاً من "ولكل وجهة هو موليها"؛ وفي الآية 196 من سورة البقرة: "وأقيموا الحج والعمرة للبيت" بدلاً من "وأتموا الحج والعمرة لله"؛ وفي الآية 144 من سورة البقرة: "وحيثما كنتم فولوا وجوهكم قبله" بدلاً من "وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره"؛ وفي الآية 110 من سورة الإسراء: "ولا تُخافت بصوتك ولا تُعال به" بدلاً من "ولا تخافت بها صوتك"⁽³⁾ ويتابع السجستاني في كتاب المصاحف الذي نعتمد عليه هنا تعداد 130 موضعاً في القرآن اختلفت فيه قراءة ابن مسعود عن قراءة مصحف عثمان. ثم ينتقل إلى مصحف ابن عباس الذي نقتطف من اختلافاته مع مصحف عثمان

(1) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 60-61.

(2) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 64-65.

(3) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 66-67.

المواضع الآتية: فقد قرأ ابن عباس في الآية 158 من سورة البقرة: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما" بدلاً من ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ وفي الآية 202 من سورة البقرة: "أولئك لهم نصيب مما اكتسبوا" بدلاً من "مما كسبوا"؛ وفي الآية 175 من سورة آل عمران: "إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أوليائه" بدلاً من "يخوف أوليائه"؛ وفي الآية 196 من سورة البقرة: "وأقيموا الحج والعمرة للبيت" بدلاً من "وأقيموا الحج والعمرة لله"؛ وفي الآية 159 من سورة آل عمران: "وشاورهم في بعض الأمر بدلاً من وشاورهم في الأمر"؛ وفي الآية 30 من سورة ياسين: "يا حسرة العباد" بدلاً من "يا حسرة على العباد"؛ وفي الآية 187 من سورة الأعراف: "كأنك حفي بها" بدلاً من "كأنك حفي عنها"؛ وفي الآية 227 من سورة البقرة: "وإن عزموا السراح" بدلاً من "وإن عزموا الطلاق"، وكذا الأمر في عشرة مواضع أخرى⁽¹⁾.

وقد اختلفت قراءات التابعين مثلما اختلفت قراءات الصحابة، فقد قرأ عبيد ابن عمير الآية الأولى من سورة العلق: "سبح اسم ربك الذي خلقك بدلاً من "الذي خلق"؛ وقرأ عطاء الآية 175 من آل عمران: "الشيطان يخوفكم أوليائه" بدلاً من "الشيطان يخوف أوليائه"؛ وقرأ عكرمة في الآية 184 من سورة البقرة "وعلى الذين يطوقونه" بدلاً من "وعلى الذين يطيعونه"؛ وقرأ مجاهد الآية 158 من سورة البقرة: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما" بدلاً من "فلا جناح عليه أن يطوف بهما"؛ وقرأ سعيد ابن جبير أيضاً في الآية 5 من سورة المائدة: "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب من قبلكم". وجملة "من قبلكم غير واردة في مصحف عثمان؛ وقرأ ابن جبير أيضاً في الآية 117 من سورة الأعراف: "فإذا هي تلقم ما يأفكون بدلاً من "تلقف ما يأفكون"؛ وقرأ علقمة الأسود في سورة الفاتحة: "صراط من أنعمت عليهم" بدلاً من "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ".... وأمور أخرى من هذا القبيل⁽²⁾

(1) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 86-87.

(2) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 98-100.

ومن الاختلاف في القراءات ما هو ناجم عن الاختلاف في لفظ بعض الكلمات تبعاً لللهجات العرب المتباينة، فكان من سمع الآية أنه ينطقها بلهجة قومه. وهذا ما يدعى باختلاف الأحرف. وعلى الرغم من أن الرواة قد أوردوا أحاديث عن الرسول يفهم منها أنه قد أجاز مثل هذا الاختلاف، كقوله: "نزل القرآن على ثلاثة أحرف" أو "نزل القرآن على أربعة أحرف" أو "نزل القرآن على سبعة أحرف"، إلا أن الموقف الحقيقي للرسول من هذه المسألة يوضحه ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن زر بن حبیش، عن ابن مسعود، أنه قال: اقرأني رسول الله سورة الأحقاف، فخرجت إلى المسجد فإذا رجل يقرؤها على غير ما أقرأني، فقلت: من أقرأك؟ فقال: رسول الله. فقلت: يا رسول الله، هذان يخالفاني في القراءة. فغضب وتمعر وجهه، وقال: إنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف... إن الله يأمركم أن يقرئ كل رجل منكم كما أقرئ⁽¹⁾، وهذا هو الموقف الذي تبناه عمر بن الخطاب عندما أمر ابن مسعود أن يقرئ القرآن بلغة قريش، مما رويناه سابقاً.

مع انتشار العرب في الأمصار عقب الفتوحات، استفحل أمر الاختلافات في القراءة، الأمر الذي دعا الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى القيام بخطوته الجريئة في توحيد المصاحف في مصحف قانوني واحد. ويروى عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيا وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى... فأمر عثمان بجمع المصاحف⁽²⁾. ويروى عن حذيفة نفسه قوله: غزوت في فتح أرمينيا فحضرها أهل العراق وأهل الشام، فإذا أهل الشام يقرؤون على قراءة أبي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع به أهل العراق، فتكفرهم أهل العراق؛ وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة ابن مسعود فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام، فتكفرهم أهل الشام، فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفاً⁽³⁾.

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت، ج 1، ص 419.

(2) تفسير الطبري، ج 1، ص 25.

(3) تفسير الطبري، ج 1، ص 21.

ويبدو أن حذيفة بن اليمان قد أوكل بمهمة الإشراف على إعداد المصحف الموحد، وأن هذه العملية قد تمت من قبل لجنة شُكلت لهذا الغرض. فقد روى السجستاني في كتاب المصاحف أن عثمان استدعى الكتاب وهم: زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن حارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير، وأمرهم بإعداد المصحف الموحد، وقال لهم: ما اختلفتم فيه فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. وورد في رواية أخرى أن عدد أفراد هذه اللجنة كان اثني عشر كاتباً من المهاجرين والأنصار⁽¹⁾. أما عن الطريقة التي اتبعتها هذه اللجنة في العمل، فيبدو أنها اعتمدت أساساً مصحف حفصة بنت عمر، بدليل الخبر القائل بأن عثمان أرسل إلى حفصة يقول: "أرسلني لي بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك"⁽²⁾، وأن هذا المصحف قد قورن على المصاحف الأخرى. وفي مواضع الاختلاف كان يجري الاستعانة بالشهود، وذلك بدليل الرواية التي تقول إن عثمان عندما جمع القرآن قام في الناس فقال: من كان عنده شيء من كتاب الله فليأتنا به، وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يُشهد شاهدين⁽³⁾. وبعد انتهاء العمل من المصحف الموحد، الذي دعي منذ ذلك الوقت بالمصحف العثماني، نُسخ منه نسخٌ وزعت على الأقطار الإسلامية، وأمر عثمان بإحراق بقية المصاحف ومنع تداولها. وقد أثنى علي بن أبي طالب على ما فعله عثمان وقال: "لو وُلِّيتُ لفعلتُ مثلما فعل"⁽⁴⁾ ووفق رواية ثانية: "لو كنت أنا لصنعت في المصاحف ما صنع عثمان"⁽⁵⁾. وهكذا ظهر المصحف القانوني الموحد قبل انقضاء أربعة عقود على وفاة الرسول الكريم.

على أن المشكلة لم تنته عند هذا الحد. فالحروف العربية لم تكن بعد قد قبلت الحركات الصوتية التي توضع فوق الحروف الساكنة لتحريكها وضبط

(1) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 26 و 43-44.

(2) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 26.

(3) السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت، ص 16.

(4) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، بيروت، ج 1، ص 302.

(5) مكّي بن أبي طالب: الإبانة عن معاني القراءات، دمشق ص 79.

أواخر الكلمات، مثلما لم تكن الحروف المتشابهة قد قبلت النقاط بعددها ومكانها من الحرف للتفريق بينها، وذلك مثل التاء والياء والباء والنون، فكلمة "عف" يمكن أن تقرأ "بنت" أو "بيت" أو "نبت"، ولذلك كان لا بد من الشروع بعملية الإعجام، وهي تزويد الحروف المتشابهة بالنقاط وبعملية التنقيط، وهي وضع الحركات الصوتية فوق الحروف. وهاتان العمليتان تدعيان اختصاراً بالتنقيط. وقد تم تنقيط القرآن الكريم في العصر الأموي. وتعزى هذه العملية إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي تارة، وإلى أبي الأسود الدؤلي تارة أخرى. وبهذه الطريقة تم ضبط القرآن بشكل نهائي مع نهاية القرن الأول الهجري.

دراسة مقارنة

١١- إبراهيم الخليل

وُلد إبراهيم وفق الرواية التوراتية في موطن آبائه بمدينة أور الواقعة في المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين (=العراق)، والتي يدعوها المحرر التوراتي بأور الكلدان نسبة إلى الشعب الكلداني السامي الذي استوطن في هذه المنطقة وأسس في نهاية القرن السابع قبل الميلاد المملكة البابلية الجديدة التي كان من أبرز ملوكها نبوخذ نصر^(١). ولسبب لا يذكره نص سفر التكوين (ولكن توضحه بعض الأسفار غير القانونية، على ما سنرى لاحقاً)، فقد قرر أبو إبراهيم المدعو تارح ترك موطنه والتوجه إلى بلاد كنعان للإقامة فيها، فارتحل مع ولديه إبراهيم (أو أبرام) وناحور، وزوجتيهما ساراي وملكة، ولوطاً ابن ابنه الثالث المتوفى المدعو هاران. ولكن تارح توقف في مدينة حرّان (أو حاران) الواقعة في الشمال السوري، ليقم فيها مدة من الزمن قبل أن يتابع طريقه إلى كنعان، ولكنه توفي هناك (التكوين 11: 27-32).

بعد وفاة تارح خاطب الرب إبراهيم وقال له: "اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة". فذهب إبراهيم كما قال له الرب، وأخذ معه ساراي امرأته وكانت عاقراً لا تنجب، ولوطاً ابن أخيه المتوفى هاران، وكل مقتنياتهما والنفوس التي امتلكوها في حاران، وأتوا إلى أرض كنعان. أما أخوه ناحور فقد بقي في الشمال السوري (التكوين 12: 1-5).

(١) إن إطلاق اسم أور الكلدان على هذه المدينة، يدل على أن أخبار إبراهيم التوراتي قد دونت لأول مرة خلال تواجد سبي يهوذا في منطقة بابل، لأن الشعب الكلداني لم يكن معروفاً أثناء الحقبة التي من المفترض أن إبراهيم قد عاش فيها، وهي النصف الأول من الألف الثاني ق.م.

في أرض كنعان ظهر الرب لإبراهيم وقال له: "لنسلك أعطي هذه الأرض
فبنى إبراهيم مذبحاً للرب في شكيم حيث ظهر له، ثم ارتحل جنوباً إلى قرب
مدينة بيت إيل، فألى أقصى الجنوب الفلسطيني (التكوين 12: 6-9).

عاش إبراهيم وابن أخيه لوط في كنعان حياة الرعي المتنقل، وكان يقيم مع
أسرته وعبيده تحت الخيام على أطراف المدن الكنعانية. وفي إحدى سنوات
الجفاف حصل جوع في الأرض، فارتحل إبراهيم ولوط إلى مصر. وكانت
ساراي زوجته فائقة الجمال، فقال عنها للمصريين إنها أخته لكي لا يُقتل بسببها
وتؤخذ منه. ولكن بعض أعوان فرعون رأوها وامتدحوها لدى سيدهم، فأمر أن
يؤتى بها وضمها إلى حريمه، وصنع لإبراهيم خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر
وحمير وعبيد وإماء وجمال. ولكن الرب ضرب فرعون وبيته ضربات عظيمة
بسبب ساراي، فدعا فرعون إبراهيم وقال له: "لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟
لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي؟ والآن هي ذي امرأتك خذها
واذهب". وأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له
(التكوين 12: 10-20).

عاد إبراهيم إلى جنوب بلاد كنعان، وكانت مواشيه ومواشي ابن أخيه لوط
كثيرة، فاختم رعاتهما، وقرر الاثنان الافتراق حتى لا تصير بينهما خصومة.
فارتحل لوط شرقاً وسكن في عبر نهر الأردن، وكانت هناك مدينتان مزدهرتان
هما سدوم وعمورة. فخيّم لوط على أطراف مدينة سدوم⁽¹⁾، أما إبراهيم فسكن
على أطراف مدينة حبرون (=الخليل) في الجنوب الفلسطيني. وقال الرب
لإبراهيم بعد اعتزال لوط عنه: "ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه
شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي ترى لك أعطيها ولنسلك
إلى الأبد". (التكوين: 13).

قصة إبراهيم في سفر التكوين طويلة وملیئة بالتفاصيل، والقرآن الكريم لم
يورد من أحداثها إلا عدداً من المفاصل الرئيسة التي من شأنها إلقاء الضوء على

(1) لم يرد ذكر اسم هاتين المدينتين في سجلات ثقافات الشرق القديم.

أصول عقيدة التوحيد الصافي التي بشر بها الإسلام. فإبراهيم لم يكن أباً للشعب العبراني وإنما أباً للأنبياء: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (29 العنكبوت: 27). ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ.....*.....* مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (3 آل عمران: 65-67).

القصة في القرآن موزعة بين عدد من السور، وهي تبتدئ بإبراهيم الشاب وقد اهتدى إلى فكرة التوحيد وعزف عن دين قومه.

شباب إبراهيم في موطنه، وهدايته:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَنِّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (6 الأنعام: 74). ﴿وَإِذْ تَكُنْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *.....*.....* قَالَ أَأَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (19 مريم: 41-48). ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَبَأْسًا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ قَالُوا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاقِبِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ﴾ (26 الشعراء: 69-73). ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ.....* إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (29 العنكبوت: 16-17). ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (37 الصافات: 95-96).

لم يذكر سفر التكوين شيئاً عن أيام إبراهيم في موطنه أور الكلدان، ولا عن قصته مع أبيه الذي يدعى في التوراة تارح ويدعى في القرآن آزر. ولكن هذه القصة وردت في أحد الأسفار غير القانونية، وهو المعروف بكتاب اليوبيلات. فهنا نجد أبرام بعد أن اعتزل أهله وملته، يوجه لأبيه خطاباً يتطابق مع خطاب إبراهيم في الرواية القرآنية، حيث يقول له:

"ما نفع هذه الأصنام التي نسجد لها ونطلب عونها؟ إنها خرساء ولا روح فيها، إنها ضلالة للقلب فلا تعبدها، بل اعبد رب السماء الذي يرسل المطر والندى، الذي صنع كل شيء على الأرض، وخلق كل شيء بكلمته، ومنه تُستمد كل حياة. لماذا تعبد هذه الأصنام التي يصنعها الناس بأيديهم وتحملها على كتفك، وليس فيها نفع لأحد. سوف يخزي من صنعها ويضل قلب من يعبدها. فقال له أبوه: أعرف ذلك يا ولدي، ولكن ماذا أفعل وقد أوكل إلي القوم أمر سدانتها؟ لو كلمتهم بالبر لقتلوني لأن قلوبهم متعلقة بها. إلزم الصمت يا بني لكي لا يصيبك أذى منهم. ثم إن أبرام حدث أخويه بما حدث به أباه فاستعر غضبهما عليه"⁽¹⁾

ولكن إبراهيم بقي مصرًا على موقفه. وقد دفعته جرة الشباب وتهوره إلى اقتحام المعبد وتحطيم تماثيل الآلهة فيه. نتابع في القرآن الكريم:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا آأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *.....*.....*.....* قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ *﴾ (21 الأنبياء: 55-71). وفي الآية الأخيرة إشارة إلى مغادرة إبراهيم لموطنه في أور الكلدان والتوجه إلى الأرض المباركة في كنعان.

وقد وردت هذه القصة في كتاب اليوبيليات، ولكن بتنوع آخر؛ فإبراهيم لا يحطم الأصنام في المعبد وإنما يشعل النار فيه ويقضي على الأصنام:

(1) J. H. Charlesworth, the Old Testament Pseudepigrapha, Doubleday, New york, 1983, vol. 2 p. 7 FF.

"وكان بعد مدة أن أبرام تسلل في الليل إلى بيت الأصنام وأشعل فيه النار وأحرق كل ما في البيت. فهب القوم لإنقاذ آلهتهم من النار، وكان هاران بينهم فاحترق ومات ودفن في أور. فقام تارح ومعه أبرام ولوط ابن هاران المتوفى، وارتحل من أور الكلدان قاصداً بلاد كنعان، ولكنه توفي في حاران حيث أقام لفترة." (كتاب التكوين).

وقبل ذلك عرضت لإبراهيم الشاب تجربة روحية عميقة وهو يبحث عن الله في الآفاق. نقرأ في القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَصَافًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِعًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ *﴾ (6 الأنعام: 74-80).

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَتُنْفِكَوْنَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَتَنَظَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ *﴾ (37 الصافات: 83-93).

في كتاب التكوين تحدث هذه التجربة لإبراهيم وهو في حران، عندما كان يراقب النجوم أيضاً:

"وذاث مساء جلس أبرام في حران يراقب النجوم من الغسق إلى الفجر، يستخيرها فيما سوف تأتي به السنة الجديدة من خير ومطر، ولكن قلبه نبض بكلمات، وحدث نفسه قائلاً: إن كل شارات السماء وشارات النجوم والشمس تحمر هي في يد الرب. فما الذي أنا باحث عنه فيها؟ إن شاء الرب جعل الشمس

تمطر من الصباح إلى المساء، وإن شاء أغلقها، لأن كل شيء ملك يديه. ثم قام فصلى قائلاً، أيها الإله العلي، أنت وحدك إلهي. لقد خلقت كل شيء وكل ما في الوجود صنعة يدك. لقد اخترتك واخترت ملكوتك، فأنقذني من الأرواح الشريرة التي تسيطر على قلوب البشر، ولا تجعلهم يضلوني عنك. ثم حدث نفسه متسائلاً: هل أعود إلى أور الكلدان حيث يطلبون نفسي هناك أم أمكث في هذا المكان؟ وما إن أنهى صلاته حتى جاءته كلمة الرب: اخرج من أهلك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة"

الضيوف السماويون:

في الأرض الجديدة التي نجاه الرب إليها عاش إبراهيم ولوط عيشة رغداً. ولكن زوجة إبراهيم كانت عاقراً، وكان راغباً في ولد يرثه بعد أن شاخ وتقدم به السن. ثم جاءته بشرى الحمل الإعجازي بواسطة ملائكة لم يذكر النص القرآني عددهم، ولكنهم في النص التوراتي ثلاثة. وقد كان هؤلاء الملائكة في طريقهم لإهلاك القوم الذين عاش لوط بينهم، وهم أهالي مدينتي سدوم وعمورة، وذلك بسبب كثرة شرورهم. عندما وصل الملائكة ظنهم إبراهيم من البشر، ودعاهم إلى ضيافته، وجاء بعجل فذبحه وأعطاه إلى أهله ليجهزوه طعاماً. وعندما وضع المائدة أمامهم وجد أن أيديهم لا تصل إلى الطعام، فأوجس منهم خيفة. نقرأ في سورة هود:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ⁽¹⁾﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَهَرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا اتَّبِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَّكَانُ عَالِكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرِى مُجَادِلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (11 هود: 69-76).

(1) عجل حنيد، أي مشوي على الحجارة المحممة.

أي عندما رأى إبراهيم ضيوفه يأكلون دون أن يأكلوا داخله الخوف، ولكنهم كشفوا له عن هويتهم وعن مهمتهم المزدوجة؛ فهم ينقلون له بشرى الرب بحمل زوجته في شيخوختها، ثم إنهم منقلبون إلى قوم لوط لإهلاكهم لأن شرهم قد كثر. فلما سمعت سارة زوجته بالبشرى ضحكت لأنها تجاوزت سن الحمل والولادة، فقالوا لها ألا تعجب من أمر الله لأنه ليس شيء غير ممكن لديه. وبعدما هدأت خواطر إبراهيم راح يجادلهم في أمر قوم لوط، ويحاول ثنيهم عما جاؤوا من أجله، فقالوا له ألا يتشفع لهم لأن أمر الله قد تم بشأنهم.

وفي سورة الذاريات لدينا تنوع آخر على القصة نفسها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ⁽¹⁾ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَْلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَةٍ⁽²⁾ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا⁽³⁾ * وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَنٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ *﴾

(51 الذاريات: 24-37)

ترد قصة إبراهيم وضيوفه بعناصرها القرآنية جميعها في سفر التكوين 18، مع فارق واحد، وهو أن الضيوف الثلاثة كانوا إله التوراة يهوه نفسه ومعه اثنان من ملائكته. وبدل الامتناع عن الأكل فقد أكل الثلاثة وهم متكئون تحت الشجرة أمام خباء إبراهيم:

"وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد، إن كنت قد وجدت نعمة في

(1) قوم منكرون: أي قوم لا نعرفهم.

(2) في صرة: أي في جلبه وضجة.

(3) صكت وجهها: أي لطمت وجهها براحتها، على عادة النساء الشرقيات.

عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكثوا تحت الشجرة، فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون. فقالوا: هكذا نفعل كما تكلمت. فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: أسرع بثلاث كيلات دقيقتاً سميداً واعجني واصنعي خبز ملة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ووضعه قدامهم. وإذا كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا.

وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة⁽¹⁾ ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة متقدمين في الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ؟ فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة؟ هل يستحيل على الرب شيء؟

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشياً معهم ليשיعهم. فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله، وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض... إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهم الآتي إلي؟ وإلا فأعلم. وانصرف الرجال (=الملاك) من هناك وذهبوا نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب.

فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه؟... فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين باراً فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعت أكلّم المولى وأنا تراب ورماد، ربما نقص الخمسون باراً خمسة، أهلك كل المدينة بالخمسة؟ فقال: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين، فعاد يكلمه أيضاً وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون. فقال: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم،

(1) أي بعد تسعة أشهر، وهي المدة اللازمة للحمل والإنجاب.

عسى أن يوجد هناك ثلاثون. فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال: إني شرعت أكلّم المولى، عسى يوجد هناك عشرون، فقال: لا أهلك من أجل العشرين، فقال: لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط. عسى أن يوجد هناك عشرة. فقال: لا أهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى مكانه" (التكوين 18).

وكما نلاحظ من قراءة الروايتين القرآنية والتوراتية بخصوص الضيوف السماوين فإنهما تسيران على التوازي وتقومان على العناصر نفسها، على ما تظهر المقارنة:

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
1- بينما هو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار، رفع إبراهيم عينيه وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم.	- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿ (51 الذاريات 24-25)
2- ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمله، ووضعه قدامهم.	- ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ (51 الذاريات 26-27)
3- وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن.	- ﴿....فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ (11 هود 71)
4- فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ؟	- ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَانَنَةُ فَضَحِكَتْ....﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿ (11 هود 71-72)

5- فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكك سارة؟ هل يستحيل على الرب شيء؟

6- صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهم الآتي إلي؟ وإلا فأعلم.

7- فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأئيم؟ عسى أن يكون خمسون باراً... (بقية الحوار)...

- ﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ....﴾

(11 هود 73)

- ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾

(51 الذاريات 32-34)

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾

(11 هود 74)

وهناك قصتان من سلسلة قصص إبراهيم في التوراة سوف نتعرض لهما عندما نأتي إلى الحديث عن إسماعيل، وهما الخلاف بين سارة زوجة إبراهيم وجاريته هاجر وما نجم عن ذلك من إبعاد هاجر وابنها إسماعيل إلى البرية، وكيف هم إبراهيم بتقديم إسحاق (أو إسماعيل) قرباناً للرب.

2- لوط

الرواية التوراتية:

بعد الزيارة التي قام بها الضيوف السماويون، مما عرضناه في قصة إبراهيم، يتوجه الملاكان اللذان كانا برفقة يهوه إلى مدينتي سدوم وعمورة في شرقي الأردن لتدميرهما بسبب كثرة شرور أهلها وخطاياهم، ولاسيما خطية اللواط التي اشتهر بها رجال هاتين المدينتين. وكان لوط بعد افتراقه عن عمه إبراهيم قد نصب خيامه على أطراف مدينة سدوم، وراح يرعى مواشيه هناك (على ما ورد في سفر التكوين 14: 5-13). وعندما وصل الملاكان كان لوط جالساً في باب سدوم. نتابع في سفر التكوين 19:

"فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً، وكان لوط جالساً في باب سدوم، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض وقال: يا سيديّ ميلاً إلى عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما، ثم تبرا وتذهبان في طريقكما. فقالا: لا بل في الساحة نبيت. فألح عليهما جداً، فمالا إليه ودخلا بيته، فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلّا.

"وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة، رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ، كل الشعب من أقصاها، فنادوا لوطاً وقالوا له: أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما (=فعل الفاحشة)⁽¹⁾. فخرج إليهم لوط وأغلق الباب وراءه وقال: لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً، أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي. فقالوا: أبعد إلى هناك، الآن نفعل بك شراً أكثر منهما. فألحوا على لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب.

(1) كلمة (عَرَفَ) هي صيغة مهذبة لكلمة (ضاجع) على ما نفهم في أكثر من موضع في التوراة.

فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب، وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى ففجزوا عن أن يجدوا الباب.

وقال الرجلان للوط: من لك أيضاً ههنا؟ كل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان، إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه. فخرج لوط وكلّم أصهاره الآخذين بناته، وقال قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة. فكان كمازح في أعين أصهاره. ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً قائلين: قم خذ امرأتك وابتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة. ولما توانى أمسك الرجلان بيده ويده امرأته ويده ابنتيه لشفقة الرب عليه ووضعاه خارج المدينة. وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال: اهرب لحياتك، لا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة. أهرب إلى الجبل لئلا تهلك... وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر. فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح". (التكوين 19: 1-26).

الرواية القرآنية:

ورد اسم لوط بين أنبياء الله في أكثر من موضع في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عَجُوزَافِي الْغَابِرِينَ ۖ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۖ﴾ (37 الصافات: 133-136). ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ....﴾ (21 الأنبياء: 74). وهناك إشارات متعددة أخرى إلى إهلاك قوم لوط، ولكن القصة الأكثر تفصيلاً لما جرى له مع قومه والملاكان الضيفان، ترد في سورة هود، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وسورة الحجر.

ففي سورة هود، وبعد أن غادر الملاكان خيام إبراهيم توجهها إلى موطن لوط ودخلا عليه وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعتهما، فرحب بهما ولكنه توجس شراً يأتي من أهل البلدة، فضايق صدره بهذه الزيارة خوفاً من عدم قدرته على حماية ضيفيه اللذين جاءا في أجمل صورة بشرية:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ⁽¹⁾ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا⁽²⁾ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ⁽³⁾ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ⁽⁴⁾ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مُوعِدُهُمُ الصُّبْحَ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمَرُنَا جَعَلْنَاهَا عَلَيْهِمَا سَافِلِيهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ⁽⁵⁾ * مُّسَوِّمَةً⁽⁶⁾ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (11 هود: 77-83).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا مِمَّا مِنَ الْغَايِبِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (27 النمل: 54-58).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (29 العنكبوت: 28-34).

-
- (1) أي أصابه منهم سوء وضجر لخوفه عليهم.
 - (2) أي ضاق صدره بمجيئهم لما يتوقعه من شر.
 - (3) أي لو كنت أعادلكم قوة لأهلككنكم، ولكني ألجأ إلى الله.
 - (4) أي انطلق بأهلك ليلاً، وليكن مسيركم في آخر الليل.
 - (5) السجّيل هو طين شوي بالنار، والمنصود هو المتتابع الإرسال.
 - (6) أي كل حجر مُعلَم بعلامة، وقيل إن اسم من تصيبه مكتوب عليها.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون * قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذْنَاهُمُ الصُّبْحَةَ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ *﴾

(15 الحجر : 61-74).

لا تختلف الرواية القرآنية عن الرواية التوراتية إلا بخصوص شعور لوط بالضيق، وذلك لتوقعه مسبقاً لسلوك أهل المدينة. وهذه مقارنة بين العناصر الرئيسة للقصتين :

الرواية التوراتية	الرواية القرآنية
1- فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً، وكان لوط جالساً في باب سدوم، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض.	- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (11 هود 77)
2- وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة، رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ، وقالوا: أخرجهما إلينا لنعرفهما.	- ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ....﴾ (11 هود 78)
3- فخرج إليهم لوط وقال: لا تفعلوا شراً يا إخواني هو ذال لي ابتنان لم تعرفا رجلاً، أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي.	- ﴿.... قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي مَن أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (11 هود 78)

4- فقالوا: أبعد إلى هناك، الآن نفعل بك شراً أكثر منهما. فآلحوا على لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب.

5- قم خذ امرأتك وابنتيك لئلا تهلك ياثم المدينة اهرب لحياتك، لا تنظر إلى ورائك.

6- وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب.

7- ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح.

- ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

(11 هود 79)

- ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ....﴾ (11 هود 81)

- ﴿....إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ*﴾ (11 هود 81-82)

- ﴿....وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ....﴾

(11 هود 81)

- ﴿....إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

(29 العنكبوت 33)

3- إسماعيل

في الرواية التوراتية:

كان إبراهيم في سن الخامسة والسبعين من عمره عندما ارتحل من حران إلى كنعان. ولما كانت امرأته عاقراً لا تنجب، فقد أمضى إبراهيم في كنعان عشر سنوات دون أن يرزق ولداً. ولما يئس الزوجان من الإنجاب قالت له زوجته ساراي أن يدخل على جاريتها المصرية هاجر عساهما يرزقان منها بذرية. فسمع إبراهيم لقول ساراي ودخل على هاجر فحملت منه. وعندما رأت هاجر أنها قد حملت صغرت مولاتها في عينيها، فتظلمت ساراي إلى إبراهيم فقال لها: هو ذا جاريتك في يدك فافعلي بها ما تشائين. فأذلتها ساراي فهربت من وجهها إلى البرية، فوجدها ملاك الرب عند عين ماء وأمرها أن ترجع إلى مولاتها وتخضع لها، وقال: تكثيراً أكثر نسلك فلا يُعد من الكثرة، ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل، لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإسماعيل سيكون رجلاً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن (التكوين 16).

وبلغ إبراهيم سن التاسعة والتسعين دون أن ينجب ولداً من سارة. فظهر له الرب وقال له: "أنا الله القدير"⁽¹⁾. سر أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك... وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة، وأباركها وأعطيك منها ابناً فقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً... وتدعوه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره تكثيراً جداً" (التكوين 17: 1-20). وبعد زيارة الضيوف السماويين

(1) في النص العبري "أنا إيل شداي": أي إيل الشديد أو القدير.

وتوكيد الرب وعده لإبراهيم في الإنجاب القريب، افتقد الرب سارة كما قال، فجلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي تكلم الله عنه. ودعا إبراهيم ابنه إسحاق. وكان في ذلك الوقت ابن مئة سنة حين وُلد له إسحاق (التكوين 21: 1-5).

ورأت سارة ابن هاجر المصرية يمزح، فقالت لإبراهيم: أطرده هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقُبِح الكلام جداً في عيني إبراهيم بسبب ابنه، فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقوله لك سارة اسمع لقولها. فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعاً إياهما على كتفها، والولد، وصرفها. فمضت وتاهت في بركة بئر السبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس، لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملِي الغلام وشدي يدك به، لأنني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فبكر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس. وسكن في بركة فاران وأخذت له أمه زوجة مصرية (التكوين 21: 1-21).

وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم. فقال: هأنذا. فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المِريَا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك. فبكر إبراهيم صباحاً وقام إلى الموضع الذي قال له الله. فلما أتيا الموضع بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضع على المذبح فوق الحطب. ثم مدَّ إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم، إبراهيم. فقال: هأنذا. فقال: لا تمتد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأنني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني. فرفع إبراهيم عينيه ونظر،

وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال: أباركك مباركة وأكثر نسلك كثيراً كنجوم السماء، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي (التكوين 22: 1-18).

الرواية القرآنية:

يرد ذكر إسماعيل في القرآن الكريم على أنه واحد من أنبياء الله الكرام: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ....﴾

(2 البقرة: 136)

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ....﴾ (3 آل عمران: 84).

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ....﴾ (4 النساء: 163).

أما أخبار إسماعيل فقليلة ومختصرة، وليس هناك من خبر عن مولده سوى قول إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (14 إبراهيم: 39). وهذا يعني أن الرواية قد قفزت فوق كل التفاصيل المتعلقة بزواجتي إبراهيم هاجر وسارة ونزاعهما. وأخبار إسماعيل لا تتجاوز الثلاثة، وهي تتفق مع أخباره التوراتية، عدا إقامته في منطقة الحجاز وتعاونه مع إبراهيم أبيه على بناء الكعبة، على ما تبينه لنا المقارنة التالية:

1- إبعاد هاجر وابنها إلى الصحراء:

في سورة إبراهيم، هناك إشارة غائمة ودون تفاصيل إلى قصة إبعاد هاجر وابنها إسماعيل إلى بركة قاحلة، حيث نقرأ على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرَّتَيْ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (14 إبراهيم: 37).

وهناك إجماع بين المفسرين استناداً إلى أحاديث متواترة على أن من أسكنهم إبراهيم من ذريته في الوادي القاحل هما هاجر وابنها إسماعيل. والقصة الكاملة تروى عن الصحابي عبد الله بن عباس وهذا ملخصها:

لما وجدت سارة أنها لن تحمل من إبراهيم، طلبت منه أن يدخل على جارتها المصرية هاجر. فحملت هاجر وأنجبت لإبراهيم غلاماً دعاه إسماعيل. ولكن سارة بدأت تغار من هاجر وطلبت من إبراهيم إبعادها. فأوحى الله إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى الحجاز. قاد جبرائيل إبراهيم ومن معه إلى مكة حيث كان المقام الذي بناه آدم. وكانت قبيلة العماليق أول من سكن في هذه المنطقة، حيث أقاموا في الجبال المحيطة بالمقام. هناك صنع إبراهيم لأسرته كوخاً من القش، وتركهم لكي يعود إلى موطنه. ولكن هاجر نادته قائلة: إلى من تتركنا؟ فقال: أترككم إلى الله. فقالت: هل طلب منك الله أن تفعل ذلك؟ قال: نعم. ثم مشى إبراهيم خطوات والتفت إلى الوراء وقلبه يتمزق على زوجته وابنها، ثم تابع طريقه وهو يقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ.... الْآيَةُ﴾.

بعد بضعة أيام نفذ ما لدى هاجر من التمر والماء. وجف الحليب في صدرها وساءت حالة إسماعيل. فقالت في نفسها: لن ألبث هنا وأراه يموت. فصعدت إلى تلة الصفا وضرعت لله من أجل المعونة، ثم هبطت وسارت نحو تلة المروة فارتقتها وراحت تنظر إلى حيث كان إسماعيل. ثم إنها سعت بين الصفا والمروة سبع مرات وهي قلقة حائرة. وسمعت صوتاً فمشت نحو مصدره حتى وصلت إلى إسماعيل، وهناك ظهر لها الملاك جبريل فضرب الأرض بكاحله فانبثق من الموضع نبع ماء، فشربت هاجر وتدفق الحليب في صدرها فأرضعت ولدها. ولخوفها من أن يضيع الماء، أحاطته بحاجز ترابي فتحول إلى بئر هو بئر زمزم. فقال لها الملاك بأن هذا البئر لن ينضب، وأن ابنها سوف ينشأ ويكبر في هذا المكان، ولسوف يزوره أبوه ويعملان معاً على بناء مقام تقصده الناس من كل الجهات تلبية لنداء الله، ويطوفون حول المقام ويشربون من ماء البئر.

بعد ذلك مرّ بالقرب شابان من قبيلة جرهم يبحثان عن ناقة شاردة، فتعجبا لرؤية طيور تحوم في سماء المكان، لعلمهما بعدم وجود ماء هنا، فتبعاً أثر

الطيور حتى وصلا موضع البئر، واجتمعا بهاجر التي روت لهما قصتها. فعاد الشبان إلى قومهما وأخبروهم بالأمر، فجاءت قبيلة جرهم وسكنت في جوار سارة التي سعدت بوجودهم.

2- القربان والفداء:

في بضعة أسطر تعبر عن الأسلوب القرآني المختزل، تحافظ الرواية القرآنية للقربان والفداء على أهم عناصر الرواية التوراتية الطويلة والملئية بالتفاصيل:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ⁽¹⁾ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي آرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آدَمُ مَا تَأْمُرُ سَجِدْ لِلَّهِ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا⁽²⁾ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ⁽³⁾ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا⁽⁴⁾ إِنَّا كَذَبُكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ⁽⁵⁾ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (37 الصافات: 99-112).

وكما نلاحظ من قراءة النصين، فإن الرواية القرآنية قد جعلت من إسماعيل موضوعاً للقربان بدلاً من إسحاق في الرواية التوراتية، وذلك على الرغم من عدم ذكرها لإسماعيل بالاسم. ونستدل على ذلك من قوله تعالى في نهاية القصة: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. أي إن إسحاق لم يكن قد وُلد حينئذٍ، وبطل القصة هنا هو إسماعيل. كما نلاحظ أن إسحاق كان في الرواية التوراتية طفلاً غافلاً عما يجري من حوله، وقد استسلم للربط على المحرقة دون مساءلة أو توقع لما سيحدث له، أما في الرواية القرآنية فقد كان إسماعيل فتياً يافعاً وضرب مثلاً في الخضوع للمشيئة الربانية عندما قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَجِدْ لِرَبِّكَ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

(1) أي فلما كبر إسماعيل واشتد عوده. ويقال إنه كان في ذلك الوقت في سن الثالثة عشرة.

(2) أي فلما استسلما لأمر الله.

(3) أي أكبه على وجهه ليذبحه.

(4) أي يا إبراهيم قد نفذت ما أمرت به في الحلم.

(5) أي إن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الذي يتميز به المخلص من المنافق.

3- بناء الكعبة:

لقد جعلت الرواية التوراتية من بركة فاران موطناً لإسماعيل ، وهي تلك المناطق الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من فلسطين ، أما الرواية القرآنية فتجعل موطنه في الحجاز وتنسب إليه وإلى أبيه بناء الكعبة المشرفة : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ *... * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *﴾ (2 البقرة : 125-127).

4- يوسف الصديق

بعد الانتهاء من سرد سلسلة قصص الأب الأول إبراهيم، ينتقل محرر سفر التكوين إلى سرد سلسلة قصص نسل إبراهيم، وهم إسحاق ويعقوب وأولاد يعقوب الاثنا عشر الذين تحدثت منهم القبائل العبرانية. وقد أغفل القرآن الكريم ذكر أي من هذه القصص، وإسحاق ويعقوب لا يظهران إلا في إشارات مقتضبة إلى كونهما شخصيتين بارزتين في التاريخ النبوي. أما أولاد يعقوب فلا يُشار إليهم إلا جملةً تحت اسم الأسباط، ومن دون ذكر أسمائهم.

القصة الوحيدة التي لقيت عناية القرآن الكريم من بين قصص الآباء بعد إبراهيم، هي قصة يوسف، الابن الحادي عشر ليعقوب، وما جرى له مع إخوته في كنعان، ثم ما جرى له في مصر. والقصة القرآنية تسير في توازٍ مع القصة التوراتية وتماثلها في أدق الجزئيات.

ونظراً لطول القصة التوراتية وإسهابها في التفاصيل، فإني سوف ألجأ في المقارنة الآتية إلى تقديم ملخصات لمراحلها الرئيسية، ثم مقارنتها بما ورد في القرآن الكريم في سورة يوسف.

1- حلم يوسف:

سفر التكوين: كان يوسف ابن سبع عشرة سنة، وكان يرعى الغنم مع إخوته. وقد أحبه أبوه أكثر من جميع بنيه لأنه ابن شيخوخته. فأبغضه إخوته ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام. وحلم يوسف حلماً أخبر به أباه وإخوته، فقال: إني حلمت حلماً، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. فازداد إخوته له بغضاً، أما أبوه فقد انتهره وقال: هل تأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك؟ (التكوين 37: 1-11).

سورة يوسف: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿12﴾ يوسف: (4-5).

2- مؤامرة الإخوة:

سفر التكوين: ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم. فقال يعقوب ليوسف: أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأرسلك إليهم. فقال هأنذا... فلما أبصروه من بعيد قال بعضهم لبعض: هو ذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلموا لنقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله. فسمع أخوهم راويين مقالتهم وأراد إنقاذه من بين أيديهم فقال لهم: لا تسفكوا دمًا، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يداً. فكان لما جاء يوسف أنهم خلعوا عنه قميصه وطرحوه في البئر، وكانت جافة ليس فيها ماء. ثم أخذوا القميص وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص بالدم، وعادوا إلى أبيهم به وقالوا: حق، أقميص ابنك هذا أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابني. وحش رديء أكل يوسف. ثم مزق ثيابه ولبس ثياب الحداد، وناح على ابنه أياماً كثيرة. أما يوسف فقد التقطته من البئر قافلة تجار وباعوه في مصر. (التكوين 37: 12-36).

سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ * إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطَ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْنَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَخَشِئْتُ أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⁽¹⁾ *

(1) أي أنه تعالى طمأنه إلى نجاته، وأخبره أنه سيأتي وقت ينبتهم فيه بما فعلوا به وهم لا يعرفونه. وهذا ما حصل في نهاية القصة.

وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبْ
وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ
أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ⁽¹⁾ * وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا
بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً ⁽²⁾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ
وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ * ﴿12﴾ (يوسف: 7-20).

3- فوطيفار يشتري يوسف:

سفر التكوين: فأنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار ⁽³⁾ رئيس شرطة الفرعون. وكان الرب مع يوسف فكان رجلاً ناجحاً، ووجد نعمة في عيني سيده الذي أوكله بجميع شؤون بيته، ولم يكن فوطيفار يعرف من هذه الشؤون بوجود يوسف سوى الخبز الذي يأكله. فبارك الرب بيت فوطيفار وحقله. وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر (التكوين 39: 1-6).

سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *﴾

(12 يوسف: 21-22)

4- الإغواء:

سفر التكوين: وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي. فقال لها: هو ذا سيدي قد دفع إليّ كل ما له، ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟ ثم تركها ومضى. ولكنها عادت إلى إغوائه مرات عديدة وهو يتهرب منها. إلى أن

(1) من الواضح هنا أن يعقوب لم يصدق القصة، وشك في حقيقة ما جرى.

(2) أي أمسكوا به أسيراً واعتبروه بضاعة للبيع.

(3) وتدعوه الرواية القرآنية بالعزيز، وهو لقب وليس باسم.

جاء يوم دخل فيه يوسف إلى المنزل ولم يكن هناك غيرهما، فأمسكت بثوبه قائلة: اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وخرج هارباً من البيت. فنادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا لقد دخل إلي هذا الرجل العبراني ليضطجع معي فصرختُ بصوت عظيم، فترك ثوبه بجانبه وهرب. ثم وضعتُ ثوبه بجانبها حتى جاء سيدها إلى بيته فكلّمته بمثل هذا الكلام، فحُمي غضب فوطيفار على يوسف ووضعه في السجن الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه. ولكن الرب كان مع يوسف فاستلطفه رئيس السجن وأوكل إليه أمر بقية السجناء (التكوين 39: 1-23).

سورة يوسف: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ⁽¹⁾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَاقِبَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ *﴾ (12 يوسف: 23-29). ﴿ثُمَّ بَدَأْهُمُ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَهُ حَتَّىٰ جَاءَ فِيهِ⁽²⁾﴾ (12 يوسف: 35).

في المكان الفاصل بين الآية 29 والآية 35 هناك قصة دعوة امرأة العزيز لصديقاتها اللواتي لُمنها على ولعها بيوسف، مما كانت الشائعات تتحدث عنه، وكيف دعتهم إلى منزلها ليروا بأعينهن جمال يوسف فيعذرّونها. فلترجع في مكانها من السورة. وهذه القصة مؤخرة عن موضعها في السياق، على عادة

(1) قال معظم المفسرين أن تعبير (هَيْتَ لَكَ) غير عربي، وهو أقرب إلى قولنا هلم وتعال. وقرأها ابن عباس (هئت لك) أي هَيْتُ لَكَ.

(2) هنالك سببان محتملان وراء قرار العزيز حبس يوسف: الأول أنه لم يكن متأكداً تماماً من براءته، والثاني أنه كان متأكداً من ذلك ولكنه لم يكن راغباً في فضح زوجته.

الأسلوب القرآني أحياناً في تقديم المؤخر وتأخير المقدم. وموضعها التسلسلي يأتي بعد عدة محاولات قامت بها امرأة العزيز مما هو مذكور في الرواية التوراتية، ففرت فوقها الرواية القرآنية ثم ألمحت إليها في هذه القصة.

5- يوسف في السجن:

سفر التكوين: وحدث بعد هذه الأمور أن فرعون غضب على رئيس السقاة ورئيس الخبازين في قصره وأمر بحبسهما في سجن يوسف، فأوكله بهما رئيس الشرط. وحلم كلاهما في ليلة واحدة حلماً قصّاه على يوسف في الصباح. قال رئيس السقاة: رأيت كرمة فيها ثلاثة قضبان فأفرخت وطلع زهرها ثم نضجت عناقيدها، فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وقدمته له. فقال له يوسف: الثلاثة القضبان هي ثلاثة أيام في ثلاثة أيام تخرج من السجن وترد إلى مقامك، فتسكب الخمرة للملك في كأسه كما كنت تفعل. فهلا صنعت لي إحساناً وذكرني لفرعون فيخرجني من السجن. ثم قص عليه رئيس الخبازين حلمه قال: رأيت ثلاث سلال على رأسي، وفي السلة العليا خبز تأكل منه الطيور. فقال له يوسف: الثلاثة السلال هي ثلاثة أيام. في ثلاثة أيام يقطع فرعون رأسك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور من لحمك. وحدث في اليوم الثالث ما تنبأ به يوسف. ولكن رئيس السقاة نسيه ولم يذكره لفرعون مدة سنتين (التكوين 40: 1-22).

سورة يوسف: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي * * * يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ⁽¹⁾ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ ⁽²⁾ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ *﴾ (12 يوسف: 36-42).

(1) أي يسقي سيده فرعون.

(2) أي يوسف.

6- حلم فرعون:

سفر التكوين: وحدث بعد ستين من الزمان أن فرعون رأى حلمًا، وإذا هو واقف عند النهر، ومن النهر تخرج سبع بقرات حسنة المنظر وسمينة اللحم، ومن ورائها سبع بقرات أخرى قبيحة المنظر ورقيقة اللحم؛ فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة. ثم رأى حلمًا ثانيًا، وإذا سبع سنابل طالعة في ساق واحدة سمينية وحسنة، ووراءها سبع سنابل رقيقة ملفوحة بالرياح الشرقية؛ فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السمينية الممتلئة.

دعا فرعون سحرة مصر وجميع حكمائها وسألهم تفسير حلمه، فلم يستطع ذلك منهم أحد، وهنا تذكر رئيس السقاة يوسف ومقدرته على تفسير الأحلام، فذكره أمام فرعون وقصّ عليه ما جرى له ولرئيس الخبازين في السجن. فأرسل فرعون ودعا يوسف واستفتاه في حلميه. فقال يوسف: هو حلم واحد، وقد أخبر الله فرعون بما هو صانع. البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين أيضًا. هو ذا سبع سنين قادمة يكون فيها شبع في كل أرض مصر، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعًا، فينسى كل الشعب السابق، وتُتلف الجوع الأرض. (التكوين 41: 1-31).

سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ⁽¹⁾﴾ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ⁽²⁾ أَنَا أُبَيِّنُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ⁽³⁾ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ *﴾

(12 يوسف: 43-49).

(1) أي إذا كنتم تعتقدون بصدق وصحة الأحلام.

(2) أي بعد مدة.

(3) أي مما تخزنون.

7- يوسف وزيراً:

سفر التكوين: فحسُن الكلام في عيني فرعون فقال له: ليس حكيم وبصير مثلك. انظر، قد جعلتك على كل أرض مصر، ولا يوجد أعظم منك إلا الكرسي الذي فيه أكون. وخلع فرعون خاتمه وجعله في يد يوسف، وألبسه ثياب بوص⁽¹⁾ ووضع طوق ذهب في عنقه، وأركبه مركبته الثانية، ونادوا أمامه وركعوا. وقال فرعون ليوسف: أنا فرعون، فمن دونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في أرض مصر.

وأثمرت الأرض في سني الشبع، فجمع يوسف كل طعام السبع السنين التي كانت في أرض مصر، وخزن قمحاً كرمل الأرض. وابتدأت سني الجوع تأتي، ففتح مخازنه وباع للمصريين. وكان جوع في جميع البلدان المجاورة فجاء منها الناس ليشتروا قمحاً من مصر. (سفر التكوين 41: 37-57).

سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ* قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ* وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا خَيْبٌ بِشَاءٍ تُصِيبُ بَرَحْمَتَنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا تَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (12 يوسف: 54-56).

8- قدوم إخوة يوسف:

سفر التكوين: فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر، قال لابنيه: انزلوا إلى هناك واشتروا لنا لنحيا ولا نموت. فنزل عشرة من إخوة يوسف إلى مصر وتركوا مع أبيهم أصغر إخوتهم المدعو بنيامين. فأتوا ودخلوا على يوسف وسجدوا له. فعرفهم يوسف أما هم فلم يعرفوه. فتنكر لهم وتكلم معهم بجفاء قائلاً: من أين جئتم؟ قالوا له من أرض كنعان لنشتري طعاماً. قال: بل أنتم جواسيس. فقالوا: بل عبيدك جاؤوا ليشتروا طعاماً. نحن جميعاً بنو رجل واحد في أرض كنعان، وهو ذا الصغير عند أبينا اليوم، ولنا آخر مفقود. فقال لهم يوسف: إن كنتم أمناء فليُحبس أخ واحد منكم، وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً

(1) البوص: نبات من فصيلة الكتان تصنع منه الأقمشة الفاخرة.

لمجاعة بيوتكم، وأحضروا أخاكم الصغير إلي فيتحقق كلامكم. وكان يتحدث إليهم عن طريق مترجم فتحاوروا وهم لا يدرون أنه يفهم كلامهم. فقال بعضهم لبعض: حقاً إننا مذبنون إلى أخينا يوسف الذي استرحمنا ولم نسمع له، لذا جاءت علينا هذه الضيقة. فقال لهم رأوبين: ألم أكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا؟ هو ذا دمه يطلب. فتحول عنهم يوسف وبكى ثم رجع إليهم، وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم، وأمر أن تُملأ أوعيتهم قمحاً بعد أن تُردّ فضة كل واحد منهم إلى كيسه قبل إغلاقه. فحملوا قمحهم على حميرهم ومضوا من هناك. (التكوين 42: 1-26).

سورة يوسف: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ⁽¹⁾ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ⁽²⁾ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (12 يوسف: 58-62).

9- العودة إلى كنعان واكتشاف الفضة المعادة:

سفر التكوين: فلما فتح أحدهم كيسه ليعطي عليقاً لحماره وهم في الخان على الطريق، رأى فضته في قمح كيسه فقال لإخوته: رُدّت فضتي وها هي في كبسي. فطارت قلوبهم وارتعدوا قائلين: ما هذا الذي صنعه الله بنا؟ فجاؤوا إلى يعقوب أبيهم في أرض كنعان وأخبروه بكل ما أصابهم. فقال لهم يعقوب: أعدتموني الأولاد. يوسف مفقود وشمعون مفقود، وبنيامين تأخذونه؟ لا ينزل ابني معكم. (42: 27-38).

وحدث لما نفذ القمح الذي جاؤوا به، أن أباهم قال لهم أن يرجعوا ويشتروا قمحاً أيضاً. فقال له يهوذا: إن كنت ترسل أخانا معنا ننزل ونشتري

(1) خير المنزلين: أي خير من يكرم الضيوف.

(2) بضاعتهم: أي فضتهم التي جاؤوا ليشتروا بها.

قمحاً، وإذا كنت لا ترسله لا تنزل، لأن الرجل قال لنا لا ترون وجهي بدون أن يكون أخوكم معكم. أرسل الغلام معي وأنا أضمنه، وإن لم أجيء به إليك أصبح مذنباً إليك كل الأيام. فقال لهم يعقوب: إن كان هكذا فافعلوا، ولكن خذوا الفضة المردودة وفضة أخرى في أياديكم وانطلقوا (التكوين 43: 1-13).

سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ (١) فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ اسْتُكْمِلَ عَلَيْهٖ إِلَّا مَا كُنَّا أَسْتَكْمِلُ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي (٢) هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا (٣) وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ (٤) ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٥) * قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ (٦) لَتَأْتَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ (٧) فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ (٨) وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (12 يوسف: 63-67).

10- القدوم الثاني على يوسف:

سفر التكوين: فأخذ الإخوة الهدية وضعف الفضة في أيديهم، وقاموا ونزلوا إلى مصر، ووقفوا أمام يوسف، فاستدعى يوسف حاجبه وأسرَّ إليه أن يأخذهم إلى بيته ويهيئ لهم طعاماً، لأنه سوف يتناول معهم طعام الغداء، ففعل الرجل كما قال يوسف وأدخل الإخوة إلى البيت، فتخوفوا وقال بعضهم لبعض

- (1) أي مُنعنا من شراء القمح مرة أخرى إذا لم نأت معنا بأخي الصغير.
- (2) أي ماذا نبغي من كرم عزيز مصر أكثر من ذلك. ونلاحظ هنا أن إعادة الفضة في الرواية القرآنية كان دلالة على حسن نية يوسف، لا على أمر يدبره، كما هو الحال في الرواية التوراتية.
- (3) أي هذه نقودنا أعيدت لنا لكي نَمِيرُ أهلنا، أي نجلب لهم الميرة (وهي المؤونة).
- (4) أي ونأتي معنا بحمل بعير من القمح.
- (5) أي إنه كيل يسير على العزيز إعطاؤه نظراً لكرمه.
- (6) أي حتى تعطوني عهداً مؤكداً وتحلفوا بالله على أن تردوه.
- (7) أي إلا إذا غلبتم من قبل كثرة لا قدره لكم عليهم.
- (8) ربما لشر كان يتوقعه يعقوب.

هذا بسبب الفضة التي رجعت في أكياسنا؛ ولكن الحاجب طمأنهم وأعطاهم ماءً ليغسلوا أرجلهم لأنهم سيأكلون مع يوسف عند الظهيرة. فلما جاء يوسف إلى البيت أحضروا له الهدية وسجدوا إلى الأرض؛ فسأل عن سلامتهم وقال: أحيُّ أبوكم الشيخ الذي قلمت عنه، وسالم هو؟ فقالوا: عبدك أبانا حي وسالم. فرفع عينيه ونظر إلى بنيامين وقال: أهذا هو أخوكم الصغير الذي قلمت عنه؟ ثم خنقته العبرات، فتولى عنهم ودخل المخدع فبكى، ثم غسل وجهه وخرج وتجلد وقال: قدموا الطعام.

ولما انتهوا قال يوسف لحاجبه أن يملأ أكياس الرجال بالقمح، ويضع فضة كل واحد منهم في قم كيسه، وأعطاه طاس الفضة خاصته الذي يشرب به، وأمره أن يضعه في قم كيس بنيامين الصغير مع ثمن قمحه. فلما أضاء الصبح انصرف الإخوة. فقال يوسف لحاجبه: قم اسع وراءهم وفتش أكياسهم بحثاً عن الطاس. فلما أدركهم قال: لماذا جازيتم الخير بالشر؟ إن طاس سيدي مفقود. فقالوا له: حاشى لعبيدك أن يفعلوا مثل هذا الأمر. إن الذي يوجد معه الطاس من عبيدك يموت، ونحن أيضاً نكون عبيداً لسيدي. ففتش أكياسهم مبتدئاً بالكبير حتى انتهى إلى الصغير، فوجد الطاس في كيس بنيامين، وساقهم عائداً بهم إلى المدينة. فقال لهم يوسف: الرجل الذي وجد الطاس في يده يكون عبداً، وأما أنتم فاصعدوا بسلام إلى أبيكم. فتقدم إليه يهوذا وقال: لقد سألنا سيدي هل لكم أب أو أخ، فقلنا لنا أب شيخ وله ابن شيخوخة مات أخوه وبقي هو وحده لأمه، وأبوه يحبه؛ والآن متى جئنا إلى أبينا والگلام ليس معنا، ونفسه مرتبطة به، يكون متى رأى أن الغلام مفقود يموت؛ وقد ضمن عبدك الغلام لأبي قائلاً إن لم أجيء به إليك أصبح مذنباً إليك كل الأيام؛ فالآن ليملكك عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي، ويصعد الغلام مع إخوته. فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه، وأطلق صوته بالبكاء وقال: أنا يوسف أخوكم الذي بعموه إلى مصر. والآن لا تتأسفوا على ذلك، فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض، وليصنع لكم نجاة عظيمة. والآن أسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له أن يأتي إلي هو وبنيه وبنو بني، لأنه يكون جوعاً في الأرض أيضاً خمس سنين. ثم وقع على عنق بنيامين وبكى، وبكى بنيامين على عنقه، وقبل إخوته، وبكى عليهم.

فصعدوا من مصر وجاؤوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم وأخبروه قائلين: يوسف حيُّ بعدُ، وهو متسلط على كل أرض مصر. فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم. ثم كلموه بكل ما قاله يوسف لهم. وأبصر يعقوب العجلات التي أرسلها يوسف لحمله، فعاشت روحه فقال: كفى أن ابني حي. أذهب وأراه قبل أن أموت. وقام يعقوب من بئر السبع، وحمل بنو إسرائيل أباهم وأولادهم في العجلات التي أرسلها فرعون لحمله، وأخذوا مواشيهم وكل مقتنياتهم وجاؤوا إلى مصر (التكوين 43: 15-34 و 44: 1-34 و 45: 1-28 و 46: 1-7).

سورة يوسف: تتابع الرواية القرآنية خيوط الحبكة القصصية ذاتها ولكن مع إضافة عنصرين غير موجودين في الرواية التوراتية، وهما رحلة إضافية يقوم بها الإخوة بين مصر وكنعان ومعهم قميص يوسف، وكشف يوسف عن هويته لأخيه بنيامين قبل أن يكشفها للآخرين:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ⁽¹⁾ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ⁽²⁾ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِبرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ⁽³⁾ وَلَمِنَ جَاءِ بِهِ جِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ⁽⁴⁾ * قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ⁽⁵⁾ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ⁽⁶⁾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِنْ يَشِرْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ⁽⁷⁾ فَأَسَرَّهَا

(1) أي ضم إليه أخاه الأصغر، وأسر إليه بهويته.

(2) الطاس الذي يشرب فيه.

(3) صواع الملك أي سقايته أو طاسه.

(4) أي أنا له كفيل وضامن.

(5) أي جزاء السارق وفق شريعة الإخوة أن يدفع السارق إلى المسروق منه.

(6) أي ما كان لياخذه وفق شريعة مصر بل وفق شريعتهم.

(7) إشارة إلى حادثة لا نعرفها.

يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا⁽¹⁾ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذُنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي⁽²⁾ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ازْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرُ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ⁽³⁾ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا⁽⁴⁾ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ⁽⁵⁾ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ⁽⁶⁾ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ⁽⁷⁾ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ⁽⁸⁾ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا

(1) أي لما يشعروا اعتكفوا يتشاورون.

(2) أي حتى يأذن لي أبي بالرجوع وهو راض عني، أو يُمكنني الله من أخذ أخي.

(3) والقول هنا ليعقوب بعد أن عاد الإخوة وقصوا عليه ما جرى.

(4) حرَضاً: أي سقيماً وضعيفاً.

(5) أي وجئنا بنفود قليلة. وقيل أيضاً بنفود رديئة.

(6) أي لا لوم ولا عتب عليكم اليوم.

(7) أي فارقت العير مصر.

(8) أي تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَاهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ⁽¹⁾ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ⁽²⁾ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ ⁽³⁾ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *

(12 يوسف : 69-100).

(1) أي هذا تأويل حلمي القديم عندما رأيت الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً لي ساجدين.

(2) أي من البادية.

(3) أي أفسد الشيطان.

5- موسى

أعطى القرآن الكريم لأخبار موسى وقومه حيزاً في الكتاب لم يعطه لأي شخصية دينية أخرى من الماضي، ولسوف نتابع خيوط قصة موسى كما وردت في كلا النصين، مبتدئين بميلاد موسى:

1- الميلاد والطفولة:

الرواية التوراتية: "ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل، وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا جداً. ثم قام ملك لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هلم نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم. فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف... ونما الشعب وكثر جداً... ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً: كل ابن يولد للعبرانيين تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها.

"وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابناً. ولما رأت أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد، أخذت سبطاً من البردي وطلته بالحمر والزفت، ووضعت الولد فيه ووضعت بين (نبات) الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به. فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر. فرأت السبط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحت السبط رأت الولد وإذا هو صبي يبكي، فرقّت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه وأنا أعطيك أجرتك. فأخذت المرأة الولد

وأرضعته. ولما كبر جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى (الخروج 1: 6-22 و 2: 1-10).

الرواية القرآنية: ﴿طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ⁽¹⁾ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ⁽²⁾ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُتِمِّكَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلَيْهِ فِي السَّيِّمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ⁽³⁾ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرِأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ ⁽⁴⁾ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا ⁽⁵⁾ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ⁽⁶⁾ لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ⁽⁷⁾ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ (28 القصص: 1-14)

2- الهروب إلى مديان:

الرواية التوراتية: وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أفعالهم. فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته. فالتفت إلى

(1) المقصود بهذه الطائفة هنا العبرانيون.

(2) أي يتركهـن أحياء.

(3) هامان هو وزير فرعون. وسوف نتحدث عنه بالتفصيل في موضع لاحق.

(4) أي مسرة وفرح.

(5) أي جزعت وخافت.

(6) أي كادت أن تصرخ بأنه ابنها لولا أن ثبتها الله وصبرها.

(7) أي تتبـي أثره.

هنا وهناك ورأى أن ليس أحد، فقتل المصري وطمره في الرمل، ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان؛ فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال: من جعلك علينا رئيساً وقاضياً؟ أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري؟ فخاف موسى وقال حقاً قد عُرِف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان⁽¹⁾ وجلس عند البئر.

وكان لكاهن مديان سبع بنات. فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردهن. فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن. فلما أتين إلى رعويل أبيهن قال: ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم؟ قلن: رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة، وإنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم. فقال لبناته: وأين هو؟ لماذا تركتن الرجل؟ ادعونه ليأكل طعاماً. فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى ابنته صفورة فولدت له ابناً فدعا اسمه جرشوم... وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات" (الخروج 2: 1-23).

الرواية القرآنية: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَةِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * ... * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَويٌّ مُّبِينٌ⁽²⁾ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَلِسَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِذْ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ

(1) تقع مديان في أقصى الشمال الغربي للجزيرة العربية. وتشتمل على الطرفين الغربي والشرقي لخليج العقبة.

(2) أي ضال عند الرشد

دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ تَدُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ ⁽¹⁾ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْبَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ ⁽²⁾ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَبَيْنَكَ أَيَّتَا الْأَجَلَيْنِ قَضِيْتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿28﴾ (القصص: 15-28).

نلاحظ هنا أن الرواية القرآنية جعلت عدد بنات كاهن مدين اثنتين، بينما جعلتهن الرواية التوراتية سبعة. كما نلاحظ أن موسى قد تزوج من إحدى هاتين البنيتين لقاء عمله في خدمة أبيها ثمان سنين، وهذان العنصران غائبان عن رواية سفر الخروج ولكنهما موجودان في رواية سفر التكوين عن ترك يعقوب وذهابه إلى بلاد فدان آرام في الشمال السوري، وهي موطن خاله المدعو لابان، وهناك تزوج من إحدى ابنتيه لقاء خدمته مدة سبع سنين، وهذه هي القصة:

"فدعا إسحاق يعقوب وباركه وأوصاه وقال: لا تأخذ زوجة من بنات كنعان. قم اذهب إلى فدان آرام، وخذ لنفسك زوجة من بنات لابان أخي أمك (التكوين 28: 1-2).. ثم رفع يعقوب رجله وذهب إلى أرض بني المشرق. ونظر وإذا في الحقل بئر، وهناك ثلاثة قطعان غنم رابضة عندها، والحجر على فم البئر كان كبيراً. فقال لهم يعقوب: يا أخوتي من أين أنتم؟ فقالوا: نحن من حاران. فقال لهم: هل تعرفون لابان ابن ناحور؟ فقالوا: نعرفه، وهي ذي راحيل ابنته آتية مع الغنم. وإذا هو بعد يتكلم معهم أتت راحيل مع غنم أبيها لأنها كانت ترعى. فكان لما أبصر يعقوب راحيل، أن يعقوب تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم لابان خاله. وقبل يعقوب راحيل ورفع صوته وبكى، وأخبر

(1) أي يصرف الرعاة مواشيهم.

(2) أي تعمل عندي ثمانى سنين.

يعقوب راحيل أنه أخو أبيها⁽¹⁾ وأنه ابن رفقة. فركضت وأخبرت أباه. فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقاءه وعانقه وقبله وأتى به إلى بيته. فأقام عنده شهراً من الزمان. ثم قال لابان ليعقوب: ألا أنك أخي تخدمني مجاناً؟ أخبرني ما أجرتك؟ وكان للابان بنتان اسم الكبرى ليثة واسم الصغرى راحيل. وأحب يعقوب راحيل فقال: أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى. فقال لابان: أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر. أقم عندي. فخدم يعقوب براحيل سبع سنين" (التكوين 29: 1-20).

3- التجلي في الوادي المقدس:

الرواية التوراتية: "وأما موسى فكان يرعى غنم حميه يثرون⁽²⁾ كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء على حوريب جبل الله. وظهر له ملاك الرب⁽³⁾ بلهب نار من وسط عليقة⁽⁴⁾. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى: أميل الآن وأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى، موسى. فقال: هاأنذا. فقال: لا تقترب إلى هنا. اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قال: أنا إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. فقال الرب: إني رأيت مذلة شعبي الذي في مصر، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة...

وقال الله أيضاً لموسى: ... اذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم: الرب إله آبائكم ظهر لي قائلاً: إني افتقدتكم وما صُنْع بكم في مصر، فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً... فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ

(1) كان أولاد الخال وأولاد العم يعتبرون بمثابة أخوة.

(2) يدعو سفر التكوين كاهن مدين بالاسم راعوثيل أحياناً وبالاسم يثرون أحياناً أخرى.

(3) تعبير (ملاك الرب) هنا وفي مواضع كثيرة يعني ظل الرب وشبهه.

(4) شجرة عليق.

إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له: الرب إله العبرانيين التقانا؛ فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا...

فأجاب موسى وقال: ولكن ها هم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي، بل يقولون لم يظهر لك الرب. فقال الرب: ما هذه في يدك؟ فقال: عصا. فقال اطرحها إلى الأرض. فطرحها إلى الأرض فصارت حية، فهرب منها موسى. ثم قال الرب لموسى: مُدَّ يَدَكَ وَأَمْسِكْ بِذِيلِهَا. فمد موسى يده وأمسك به فصارت عصا في يده، لكي يصدقوا أنه قد ظهر له الرب إله آبائهم. ثم قال له الرب أيضاً: أدخل يدك في عُكِّ. فأدخل يده في عبه ثم أخرجها، فإذا هي برصاء مثل الثلج. ثم قال له: رُدَّ يَدَكَ إِلَى عُبِّكَ، فرد يده إلى عبه ثم أخرجها وإذا هي عادت مثل جسده. فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الثانية" (الخروج: 3: 1-9 و 4: 1-8).

الرواية القرآنية: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ⁽¹⁾ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ⁽²⁾ نَارًا قَالِ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَأْتِيكَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (28 القصص: 29-30).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى⁽³⁾ * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى * وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ

(1) أي انتهت سنوات خدمته لحميه.

(2) أي من جانب جبل الطور. وهو في النوراة جبل حوريب الذي في سيناء. ولذلك دعي في

موضع آخر في القرآن الكريم بطور سنين، أي طور سيناء (95 التين: 1).

(3) طوى هو اسم للوادي.

غَنِمِي وَلِي فِيهَا مَارَبٌ أُخْرَى * قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْمَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ⁽¹⁾ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿ (20 طه : 9-23)

4- هارون، والدخول على فرعون:

الرواية التوراتية: فقال موسى للرب: لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول أمس، بل أنا ثقيل الفم واللسان... فقال: أليس هرون أخاك؟ أنا أعلم أنه هو يتكلم، وأيضاً هو خارج لاستقبالك، فحينما يراك يفرح قلبه فتكلمه وتضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلّمكما ماذا تصنعان، وهو يكلم الشعب عنك. بعد ذلك أخذ موسى أهله وودع حماه يشرون ورجع إلى إخوته في مصر، فخرج هرون لاستقباله فأخبره موسى بكل كلام الرب. ثم إن هرون كلم الشعب بجميع الكلام الذي قاله الرب لموسى فآمنوا وسجدوا. (الخروج 4 : 10-31).

الرواية القرآنية: ﴿...فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ⁽²⁾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ⁽³⁾ يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا....﴾ (القصص : 32-35).

الرواية التوراتية: "بعد ذلك دخل موسى وهرون على فرعون تلبية لأمر الرب وقالوا له: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: أطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية. فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع قوله فأطلق بني إسرائيل؟ لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه" (الخروج 5 : 1-2).

(1) الجناح هنا هو جانب الصدر أو تحت العضد.

(2) أي معجزة العصا ومعجزة اليد البيضاء.

(3) أي عوناً.

الرواية القرآنية: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ *
 قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا⁽¹⁾ أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأَتَيْنَاهُ
 فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ
 اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * * قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * ﴿
 (20 طه : 43-50)

الرواية التوراتية: "وعوضاً عن أن يطلق فرعون بني إسرائيل فقد زاد من
 أعباء السخرة عليهم. فتذمر رؤساء فرق السخرة الإسرائيليون على هرون وموسى
 ووضعوا اللوم عليهما فيما حصل للشعب من تعب ونكد (الخروج 5 : 4-22)
 الرواية القرآنية: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
 وَيَذَرِكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
 اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أَوِزِينَا مِنْ
 قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا⁽²⁾ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ
 كَيْفَ تَعْمَلُونَ * ﴿ (7 الأعراف : 127-129).

الرواية التوراتية: فقال الرب لموسى: أنظر، انا جعلتك إلها لفرعون وهرون
 أخوك يكون نبيك. أنت تتكلم بكل ما أمرك وهرون يكلم فرعون ليطلق بني
 إسرائيل من أرضه. فإذا كلمكما قائلًا هاتيا عجيبة، تقول لهرون خذ عصاك
 واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً. فدخل موسى وهرون إلى فرعون وفعلا هكذا
 كما أمر الرب. طرح هرون عصاه فصارت ثعباناً. فدعا فرعون أيضاً الحكماء
 والسحرة ففعل عرافو مصر بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت
 العصي ثعابين ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم. ومع ذلك فقد اشتد قلب
 فرعون ولم يسمح بإطلاق بني إسرائيل. (الخروج 7 : 1-13).

(1) أي يُعجل بالعقوبة.

(2) أي إن وضعنا لم يتحسن بمجيئك بل زاد سوءاً.

الرواية القرآنية : ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ ﴾ قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ ﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مُبِينٍ ﴾ قَالَ فَأَبِ يَهْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ ⁽¹⁾ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ⁽²⁾ ﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيلَقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالَمُونَ ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ (26 الشعراء : 15-47).

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى ⁽³⁾ ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحَى ﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ ⁽⁴⁾ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مِنْ افْتِرَى ﴾ ﴿ ﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَثْوَا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخْجَلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَتْهَا نَسَى ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةٌ مُوسَى ﴾ فَلَنَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ⁽⁵⁾ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا بَفْلَحِ السَّاحِرُ حَبِثُ أَتَى ﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿ (20 طه : 57-70).

(1) أي أرجئه.

(2) جامعين للسحرة.

(3) أي مكاناً معيناً. وقيل مستوياً وقيل وسطاً.

(4) فيهلككم.

(5) تبتلع.

الرواية التوراتية: بعد ذلك يتكرر دخول موسى وهارون على فرعون. وفي كل مرة يرفض فرعون إطلاق بني إسرائيل كان الرب يُرسل عليه وعلى شعبه كارثة شاملة، فيطلب فرعون من موسى أن يلتمس وجه ربه لكي يوقف الكارثة، حتى إذا كفَّ الرب غضبه عاد فرعون سيرته الأولى. وقد بلغ عدد الكوارث عشراً، منها تحويل ماء النيل والينابيع إلى دم، والصفادع التي تنتشر في كل مكان وتغطي الأرض، والبعوض، وأخيراً ضرب الرب كل بكر في أرض مصر من ابن الجارية إلى ابن الملك الجالس على العرش وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلاً ودعا هرون وموسى وقال: قوموا اخرجوا من بين شعبي أئتما وجميع بني إسرائيل، واذهبوا واعبدوا الرب كما تكلمتم، وخذوا معكم أيضاً غنمكم وبقركم. (الخروج: 7-12).

الرواية القرآنية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِّ⁽¹⁾ وَنَقَصْنَا مِنَ النَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحُسَنَاءُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى⁽²⁾ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ⁽³⁾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْذَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُسْحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ⁽⁴⁾ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ إِنَّا عَاهَدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْفُؤَادِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ *﴾ (7 الأعراف: 127-130-135).

5- الخروج وعبور البحر:

قصة الخروج من مصر واجتياز سيناء والوصول إلى أطراف بلاد كنعان، وما تلا ذلك من الإقامة في الصحراء مدة أربعين سنة، هي قصة طويلة في التوراة،

(1) أي بالقحط والجفاف.

(2) أي يشاءون ويتطيرون ويعزون مصائبهم إلى موسى.

(3) أي إن ما يصيبهم هو بتقدير من الله لا بشؤم موسى.

(4) أي العذاب.

وتستغرق بقية أحداث سفر الخروج إضافة إلى سفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية. وقد سلط القرآن الكريم ضوءاً على المفاصل الرئيسة لهذه القصة وتفاذي الخوض في التفاصيل. ولذلك سوف نبدأ منذ الآن بإيراد القصة القرآنية أولاً، ثم ما يقابلها في القصة التوراتية.

الرواية القرآنية: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا⁽¹⁾ وَلَا تَخْشَى * فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى *﴾ (20 طه : 77-79).

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ⁽²⁾ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ (26 الشعراء : 60-67).

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكْنَاهُ الْفُرْقَ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَبَدُّكَ لِكَوْنٍ لَمِنْ خَلَقْنَا آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ *﴾ (10 يونس : 90-92)

الرواية التوراتية: "وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين⁽³⁾ مع أنها قريبة، لأن الله قال لثلاثين الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر. فأدار الله الشعب في طريق بركة بحرسوف⁽⁴⁾". (الخروج 13 : 17-18).

(1) أي وأنت لا تخاف لحاقاً بك.

(2) أي مع شروق الشمس.

(3) الفلسطينيون التوراتيون هم شعب البيلست أو الفيلست. وقد جاؤوا إلى المنطقة مع موجه شعوب البحر الآتية من كريت وجزر بحر إيجه، في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. وقد سكنوا في الجنوب الفلسطيني وذاًبوا تدريجياً في المحيط الكنعاني.

(4) خليج السويس، وهو امتداد للبحر الأحمر.

فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم وهم نازلون عند البحر. فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم، ففزعوا جداً... فقال الرب لموسى: ارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة. وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم... ومد موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم... فقال الرب لموسى: مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين وعلى مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة وغطى جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد. (الخروج 14).

6- المن والسلوى:

الرواية القرآنية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى *﴾ (20 طه: 80-81).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ...﴾ (2 البقرة 61).

الرواية التوراتية: "وأتى كل جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين إيليم وسيناء. فتذمر كل جماعة بني إسرائيل في البرية على موسى وهرون، وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميّتا هذا الجمهور بالجوع. فقال الرب لموسى: ها أنا أمطر لكم خبزاً من السماء، فيخرج الشعب ويتلفطون حاجة اليوم بيومها... سمعتُ تذمر بني إسرائيل. كلمهم قائلاً: في

العشية تأكلون لحماً وفي الصباح تشبعون خبزاً، وتعلمون أنني أنا الرب إلهكم. فكان في المساء أن السلوى⁽¹⁾ صعدت وغطت المحلة. وفي الصباح كان سقيط الندى حول المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور كالجليد على الأرض. فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا.... وأكل بنو إسرائيل المن⁽²⁾ أربعين سنة حتى جاؤوا إلى أرض عامرة، حتى جاؤوا إلى أرض كنعان". (الخروج: 16).

وبما أن طيور السلوى المهاجرة لا تظهر إلا في مواسم معينة، فقد انقطع ظهورها، وكان على بني إسرائيل أن يأكلوا من طعام واحد هو المن فقط. فعادوا للتذمر على موسى:

"فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا: من يطعمنا لحماً؟ تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً، والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم. والآن قد ييست نفوسنا. ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن... فلما سمع موسى الشعب يبكون، وحمي غضب الرب جداً، ساء ذلك في عيني موسى فقال للرب: من أين لي لحم حتى أعطي جميع هذا الشعب؟ فقال الرب لموسى... للشعب تقول: تقدسوا للغد فتأكلوا لحماً لأنكم بكيتم في أذني الرب قائلين من يطعمنا لحماً إنه كان لنا خير في مصر، فيعطيك الرب لحماً فتأكلون، تأكلون لا يوماً واحداً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً، بل شهراً من الزمان حتى يخرج من مناخركم ويصير لكم كراهة لأنكم رفضتم الرب الذي في وسطكم وبكيتم أمامه قائلين لماذا خرجنا من مصر... فخرجت ريح من قبل الرب وسافت سلوى من البحر وألقته على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا ومسيرة يوم من هناك". (سفر العدد 11).

(1) وهي نوع من الطيور المهاجرة.

(2) وهو تلك القشور التي غطت وجه البرية. ويبدو أنها نوع من الفطريات التي تنبت بعد ندى الصباح.

7- تفجير الماء من الصخرة:

الرواية القرآنية: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (2 البقرة: 60).

الرواية التوراتية: "ثم جاؤوا إلى إيليم، وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة. فنزلوا هناك عند الماء". (الخروج 15: 27).

"ثم ارتحل كل جماعة بني إسرائيل من بركة سين ونزلوا في ريفيديم. ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا: أعطنا ماءً لنشرب. فقال لهم موسى: لماذا تخاصمونني؟ لماذا تجربون الرب؟ وعطش هناك الشعب إلى الماء، وتذمر الشعب على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشيئنا بالعطش. فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ماذا أفعل بهذا الشعب؟ بعد قليل برجموني. فقال الرب لموسى: مَرُّ قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل، وعصاك التي ضربت النهر خذها في يدك واذهب، ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل" (الخروج 17: 1-6).

8- التجلي على الجبل:

الرواية القرآنية: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ بِقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ *﴾ (7 الأعراف: 142-143).

(1) أي ثبت عندما أتجلى عليه.

الرواية التوراتية: في الرواية القرآنية عن التجلي لدينا عنصران: العنصر الأول هو طلب موسى رؤية الرب، والعنصر الثاني هو تجلي الرب على الجبل ليجعله دكاً. وهذان العنصران موجودان في الرواية التوراتية في موضعين منفصلين:

(أ) طلب الرؤية: "فقال موسى: أرني مجدك. فقال: أجيئ كل جودتي قدامك، وأناادي باسم الرب قدامك، وأترأف على من أترأف، وأرحم من أرحم. وقال: لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الرب: هو ذا عندي مكان، فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة واسترك بيدي حتى أجتاز، ثم أرفع يدي فتنظر ورائي وأما وجهي فلا يرى" (الخروج 33: 18-23).

(ب) التجلي على الجبل: "وفي الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر، في ذلك اليوم جاؤوا إلى بركة سيناء مقابل الجبل". (الخروج 19: 1-2). "وقال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة⁽¹⁾ والشرعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم. فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى إلى جبل الله. وأما الشيوخ فقال لهم: اجلسوا لنا هنا حتى نرجع إليكم، وهوذا هرون وحوور معكم، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما. فصعد موسى إلى الجبل وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه بالسحاب مدة سبعة أيام. وفي اليوم السابع دُعي موسى من وسط السحاب. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة أمام عيون جميع بني إسرائيل. ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل. وكان موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة" (الخروج 24: 12-18). "وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً. فكان البوق يزداد اشتداداً وموسى يتكلم والله يجيبه" (الخروج 19: 8-19).

(1) وهما لوحان نُقِشت عليهما الوصايا والشرعة.

9- الرسالة:

الرواية القرآنية: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُر قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ⁽¹⁾ * سَأَصْرِفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا...﴾ (7 الأعراف: 144-146).

الرواية التوراتية: على قمة جبل سيناء الذي كان يدخن ويرتجف لأن الله نزل عليه بالنار (الخروج 19). يتلقى موسى من ربه الوصايا العشر: لا تكن لك آلهة أخرى أمامي، أكرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تسرق... إلخ (الخروج 20). وبعد ذلك يأخذ الرب بتفصيل الأحكام الشرعية (الخروج: 21-31). وفي النهاية يعطي الرب موسى لوحين من حجر نُقِشت عليهما وصيته وشريعته: "ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحين الشهادتين، وهما لوحان من حجر مكتوبان بإصبع الله". (الخروج 31: 18).

10- العجل:

الرواية القرآنية: عندما صعد موسى لميقات ربه أربعين يوماً وتأخر في النزول من الجبل، صنع قومه لأنفسهم من حليهم الذهبية صورة للاله على هيئة عجل وتعبدوا له. ويبدو أنه كان مجوفاً، فإذا عبرته الريح صدر عنه ما يشبه الخوار:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سَفِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْجِعْنَا رَبَّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ⁽²⁾ ابْنُ أُمِّ⁽³⁾ إِنَّ الْقَوْمَ

(1) أي سأنقذكم من جهنم.

(2) هارون.

(3) أي يا أخي.

اسْتَضَعُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلَا لِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * * * وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهِبُونَ * ﴿7﴾ (الأعراف: 148-154).

وفي سورة طه ترد قصة العجل مرة أخرى، ولكن مع إدخال عنصر "السامري"، وهو رجل غامض لا يعطينا النص أي تفاصيل عنه، كان بين قوم موسى، وهو الذي صنع لهم العجل. وتنتهي القصة بإحراق العجل وطحنه ونثر رماده وفتاته على الماء، حيث نقرأ: ﴿.....وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (20 طه: 85-97). كما نفهم من إشارة مختصرة إلى العجل في سورة البقرة أن موسى قد سقى عبدة العجل الماء الممزوج برماد وفتات التمثال الذي تم حرقه وطحنه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنشِرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْتَأْذِنُكُمْ بِهِ إِنِّي أَنَا نَذِيرٌ *﴾ (2 البقرة: 92-93).

ومن إشارة أخرى في سورة البقرة أيضاً، نفهم أن العقاب الذي فرضه موسى على قومه هو أن يقتل البريء منهم المذنب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *﴾ (2 البقرة: 54).

الرواية التوراتية: "ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هرون وقالوا له: قم اصنع آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى، الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا ندري ماذا أصابه. فقال لهم هرون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وأتوني بها... فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإنزال وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر⁽²⁾. فلما نظر هرون بني مذبحاً أمامه، نادى هرون وقال: غداً عيد للرب.

(1) المقصود هنا اقتلوا بعضكم بعضاً.

(2) نلاحظ من قول هارون هذا أن صورة العجل لم تكن إلا رمزاً للإله يهوه الذي أخرجهم من مصر.

فقال الرب لموسى: اذهب إنزل هناك لأنه قد فسد شعبك الذي أصدتته من أرض مصر، زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له... فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده، لوحان مكتوبان على جانبيهما هما صنعة الله والكتابة كتابة الله... وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص. فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يده وكسرهما في أسفل الجبل، ثم أخذ العجل وأحرقه بالنار حتى صار ناعماً، وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل.

وقال موسى لهرون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطيئة عظيمة؟ فقال هرون: لا يحم غضب سيدي. أنت تعرف الشعب أنه في شر. فقالوا لي: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصدنا من مصر لا نعرف ماذا أصابه. فقلت لهم من له ذهب فلينزعه ويعطيني، فطرحته في النار فخرج هذا العجل... فوقف موسى في باب المحلة وقال: من للرب فإلي. فاجتمع إليه جميع بني لاوي، فقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل". (الخروج 32: 1-28).

11- الميقات مع السبعين:

الرواية القرآنية: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَلَوِّكُنَا يَوْمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِمَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (7 الأعراف: 155).

الرواية التوراتية: "وقال لموسى: اصعد إلى الرب أنت وهرون وناداب وأيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد. ويقرب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون، وأما الشعب فلا يصعد معه... ثم صعد موسى وهرون وناداب

(1) أي الزلزلة أو الصيحة.

وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة" (الخروج 24: 1-11).

ونلاحظ هنا الفارق الكبير بين الروايتين. فقد صعد السبعون مع موسى في الرواية التوراتية "ورأوا إله إسرائيل" وهذا ما يتناقض مع قول يهوه لموسى بأن الإنسان لا يراه ويعيش (راجع فقرة التجلي على الجبل). أما في الرواية القرآنية فيبدو أن السبعين قد طلبوا من موسى أن يريهم ربهم، فأخذتهم الزلزلة وماتوا. وقد جرت الإشارة إلى هذه الحادثة في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (2 البقرة: 55).

12- التيه:

الرواية القرآنية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدٌ مِّنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَبُّنَا لِمَنِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمُ خَالِيُونَ وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا حَرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (5 المائدة: 20-26).

الرواية التوراتية: "ونزلوا في بركة فاران⁽¹⁾. ثم كلم الرب موسى قائلاً: أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل... فأرسلهم موسى وقال لهم: انظروا الأرض ما هي، والشعب الساكن فيها أقوي أم ضعيف، قليل أم كثير... فصعدوا إلى الجنوب⁽²⁾، وأتوا إلى حبرون⁽³⁾، وأتوا إلى وادي أشكول،

(1) وهي القسم الشمالي من صحراء سيناء.

(2) أي إلى المناطق الجنوبية من فلسطين.

(3) وهي مدينة الخليل.

وقطفوا من هناك زرجونة بعنقود واحد من العنب، وحملوه بين اثنين مع شيء من الرمان والتين. فساروا وأتوا إلى موسى وهرون وكل جماعة إسرائيل، وأروهم ثمر الأرض وأخبروه وقالوا: قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتر والمدن حصينة عظيمة جداً... لكن كالب⁽¹⁾ أنصت الشعب إلى موسى وقال: إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرين عليها. وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا: لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا. فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسوها في بني إسرائيل...

فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت، وبكى الشعب في تلك الليلة، وتذمر على موسى وهرون جميع بني إسرائيل، وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيراً لنا أن نرجع مصر؟... فكلّم الرب موسى وهرون قائلاً: حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ. قل لهم: حي هو أنا يقول الرب. لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني. في هذا القفر تسقط جثثكم من ابن عشرين سنة فصاعداً، الذين تذمروا عليّ. لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها، عدا كالب بن يفته ويشوع بن نون. وأما أطفالكم الذي قلمت يكونون غنيمة، فإني سأدخلهم الأرض التي احتقرتموها. فجثثكم تسقط في هذا القفر، وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة" (العدد 13: 1-33 و 14: 1-34).

عند هذه النقطة تنتهي قصة موسى في القرآن الكريم. ولكننا سوف نتوقف فيما يأتي عند شخصيتين تكرر ذكرهما في سياق القصة القرآنية، وهما هامان وقارون.

(1) كالب بن يفته، وكان بين الذين أرسلوا للتجسس، مع يشوع بن نون وآخرين.

هامان

يترافق اسم فرعون في الآيات القرآنية التي تقص سيرة موسى بآسم وزيره المتنفذ المدعو هامان :

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (28 القصص : 5-6).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه من الكاذبين﴾ (28 القصص : 38).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا.... * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ....﴾ (40 غافر : 23-24).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه كاذباً....﴾ (40 غافر : 36-37).

على أن شخصية هامان الوزير القوي لا تظهر في الرواية التوراتية لسيرة موسى، بل تظهر في مكان وزمان مختلفين كل الاختلاف عن مكان وزمان موسى وفرعون. فقد كان في سفر إستير التوراتي وزيراً للملك الفارسي زركسيس (أو إحشويروس كما يدعى في التوراة) الذي حكم في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، أي بعد أكثر من 700 سنة على العصر المفترض لموسى. وهو من خلفاء الملك قورش الذي استولى على بابل وورث ممتلكاتها في المشرق العربي. أحب هذا الملك الفارسي فتاة يتيمة من سبي يهوذا تدعى إستير وتزوجها. وكان عمها المدعو مردخاي يعمل حاجباً لديه، وكان مردخاي لا يعامل وزير الملك الغني والمتنفذ هامان باحترام، فأخذ هامان يخطط للانتقام من مردخاي، واستطاع من خلال حظوته لدى الملك استصدار أمر منه بالقضاء على جميع اليهود في المملكة، ولم يكن الملك يعرف بعد أن زوجته يهودية. ولكن إستير تدخلت في الوقت المناسب وأنقذت شعبها من المذبحة (سفر إستير 1-10). ولا يوجد لدينا في السجلات القديمة ذكر للوزير هامان خارج سفر إستير.

قارون

الخبر المفصل عن قارون في القرآن الكريم ورد في سياق قصة موسى وذلك في سورة القصص، حيث نقرأ:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جُنْماً وَلَا يُنَالُ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنْصِرِينَ *﴾ (28 القصص : 76-81).

ولدينا في قصة موسى التوراتية شخص ذو مال يدعى قورح، تزعَّم حركة تمرد على موسى أثناء ارتحال الجماعة في صحراء سيناء، واتحد معه كل من داثان وأبيرام وأون من سبط راؤيين بهدف تحويل الرئاسة من موسى إلى سبط راؤيين. وانضم إليهم نحو 250 من رؤساء الجماعة، وتوجه الجميع إلى موسى وهارون واتهموهما بأنهما يترأسان جوراً على بني إسرائيل. فاستعان موسى بالرب، فأجابه بأن انشقت الأرض وابتلعتهم. وعلى حد وصف سفر العدد: "فلما فرغ من التكلم بمثل هذا الكلام، انشقت الأرض التي تحتهم، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال. فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية، وانطبقت الأرض عليهم فبادوا من بين الجماعة" (العدد 16 : 31-33).

6- الملك شاول

بعد انتهاء المدة التي حددها الرب بأربعين سنة لبقاء بني إسرائيل في الصحراء، وموت كل الجيل الذي تمرد على موسى وخاف دخول أرض كنعان، تحرك موسى بجماعته لتحقيق وعد الرب. وفي الطريق توفي هرون ودفن في جبل هور. وبعد مسيرة شاقة تخللها عدد من المعارك مع الممالك المحلية في الجنوب السوري، حط موسى بجماعته على الشاطئ الشرقي لنهر الأردن مقابل أريحا في موقع يدعو النص بعربات مؤاب، وهناك أصعده الرب إلى جبل نبو وأراه جميع الأرض الموعودة وقال له: قد أريتك إياها بعينك، ولكن إلى هناك لا تعبر. فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات. لم تكل عيناه ولم تذهب نضارته. (التثنية: 34).

خلفَ موسى في قيادة بني إسرائيل مساعده يشوع بن نون، وهو أحد الاثنين اللذين قالوا لموسى بعد العودة من تجسس أرض كنعان أن باستطاعة بني إسرائيل دخول تلك الأرض. عبّر يشوع ببني إسرائيل نهر الأردن، واستولى بعد عدد من المعارك الصاعقة على معظم بلاد كنعان، ووزعها على القبائل الاثني عشر. وتفصيل هذه الأحداث التي من المفترض أنها وقعت في أواخر القرن الثالث عشر، موجود في سفر يشوع. بعد ذلك عاش بنو إسرائيل حياة قبلية في أرض كنعان دونما دولة مركزية تجمعهم، الأمر الذي جعلهم عرضة لتعديات جيرانهم الفلسطينيين ولتعديات ممالك شرقي الأردن. وكان قضاء متخبون يديرون شؤونهم المدنية والسياسية المشتركة. وأخبار هذه الفترة مفصلة في سفر القضاة، الذي يفترض المؤرخون أن أحداثه وقعت على مدى قرنين من الزمان، وذلك من نحو 1200 ق.م إلى نحو 1000 ق.م.

وقد كان النبي صموئيل آخر من تولى القضاء لإسرائيل، وذلك خلال فترة عصيبة بلغ فيها اضطهاد الفلسطينيين للإسرائيليين ذروته. فصلى صموئيل إلى الرب ليرفع غضبه عن شعبه، فاستجاب له لأنه كان نبياً ومختاراً للرب منذ

صغره، وأعان شعبه على أعدائهم (صموئيل الأول: 1-7). وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل ابنه قضاة يساعده، ولكنهما لم يسلكا في طريقه وإنما مالا إلى المكسب وقبلا الرشوة. فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاؤوا إلى صموئيل وقالوا له: هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا. فساء الأمر في عيني صموئيل لأنهم قالوا: أعطنا ملكاً يقضي لنا. وصلى صموئيل إلى الرب، فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. (صموئيل الأول 8). وبعد مدة أوحى الله إلى صموئيل بأنه اختار الشاب شاول من قبيلة بنيامين، وأمره أن يمسحه ملكاً على إسرائيل. وبذلك ينتهي عصر القضاة ويبدأ عصر الملوكية في إسرائيل (صموئيل الأول: 9-10).

يدعى شاول في القرآن الكريم "طالوت" ولدينا عنه خبران فقط: الخبر الأول يتعلق بتنصيبه ملكاً، والخبر الثاني يقص عن المعركة الشهيرة مع الفلسطينيين، عندما قتل داود الفارس الفلسطيني جالوت، وكان داود في ذلك الوقت مجرد حامل سلاح لشاول.

1- تنصيب شاول:

الرواية القرآنية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَغْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ هُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ هُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ *﴾

(2 البقرة: 246-248)

(1) الكلمة مشتقة من عسى.

(2) المقصود هنا هو النبي صموئيل.

الرواية التوراتية: "وكان رجل من بنيامين اسمه قيس بن أبيثيل، وكان له ابن اسمه شاول، شاب وحسن، ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب (قارن مع ما ورد في سورة البقرة: ﴿...إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ...﴾). فضلت أتن قيس أبي شاول. فقال قيس لشاول ابنه: خذ معك واحداً من الغلمان وقم اذهب فتش عن الأتن" (صموئيل الأول 9: 1-3).

ابتعد شاول وغلامه كثيراً عن موطن قبيلة بنيامين، حتى وصلا إلى المكان الذي يقيم فيه صموئيل. فقال شاول لغلامه: هو ذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرم وكل ما يقوله يصير. لنذهب إلى هناك لعله يخبرنا عن الطريق التي نسلك فيها. وكان الرب قد كشف أذن صموئيل قبل مجيء شاول بيوم قائلاً: غداً في مثل الآن أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين فامسحه رئيساً لشعبي إسرائيل، فيخلصهم من يد الفلسطينيين. فلما رأى صموئيل شاول قال له الرب: هو ذا الرجل الذي كلمتك عنه. فاستقبل صموئيل الشاب وأكرمه ودعاه إلى الطعام والمبيت. وفي الصباح جاء صموئيل بزيت المسحة المقدس وسكب منه على رأس شاول، وأخبره بأن الرب قد مسحه ملكاً على إسرائيل. بعد ذلك بمدة دعا صموئيل جميع أسباط إسرائيل بالوفهم إلى بلدة المصفاة، حيث أعلن لهم وقال: رأيتم الذي اختاره الرب؟ إنه ليس مثله في جميع الشعب. فهتف الشعب وقالوا: ليحيا الملك. ولكن جماعة منهم استصغرت شأنه وقالوا: أنى لهذا أن يخلصنا (قارن مع ما ورد في سورة البقرة: ﴿...قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ...﴾). ولكن شاول لم يجبههم بكلمة. وعندما ربح شاول أولى معاركه وكانت مع بني عمون الساكنين شرقي الأردن، قال الشعب لصموئيل بعد عودة شاول منتصراً: أين هم الرجال الذين قالوا: هل يملك علينا شاول؟ أحضروا الرجال لنقتلهم. فقال شاول: لا يقتل أحد في هذا اليوم (صموئيل الأول، الإصحاحات من 9 إلى 11).

هذا عن تنصيب شاول ملكاً. أما عما ورد بعد ذلك في المقتبس أعلاه من

سورة البقرة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 248)،
ففيه إشارة إلى استيلاء الفلسطينيين على تابوت العهد، ثم إعادته مرغمين إلى بني إسرائيل. وتفصيل هذه القصة وارد في الإصحاحات من 4 إلى 6 في سفر صموئيل الأول. وهذا ملخصها:

في إحدى معاركهم مع الفلسطينيين هُزم بنو إسرائيل وخسروا نحو أربعة آلاف رجل. فقال شيوخ إسرائيل: لماذا كَسَرْنَا الرب أمام الفلسطينيين؟ لنأخذ لأنفسنا من مدينة شلوة تابوت عهد الرب، فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا. وكان عند دخول التابوت إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً، فسمع الفلسطينيون وعلموا أن التابوت قد جاء إلى المحلة، وقالوا: ويل لنا، من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات؟ تشددوا وكونوا رجالاً لثلاً تُسْتَعْبَدُوا للعبرانيين. فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل، وأخذوا منهم تابوت العهد غنيمة وجاؤوا به إلى مدينة أشدود الفلسطينية، وأقاموه في معبدهم قرب تمثال إلههم داجون. ولكن عندما عادوا في اليوم التالي وجدوا التمثال ساقطاً على وجهه على الأرض ويدها مكسورتان. ثم ضرب الرب سكان أشدود بمرض البواسير من الصغير إلى الكبير، فنقل الفلسطينيون التابوت من مدينة إلى أخرى، فكان الوباء ينتشر حيثما حلَّ التابوت. وبعد سبعة أشهر أشار عليهم كهنتهم وعرافوهم بإعادة التابوت إلى بني إسرائيل مع قربان من ذهب وفضة. فأخذوا التابوت ووضعوه على عربة تجرها بقرتان دون سائق فاستقامت البقرتان في الطريق حتى وصلتا إلى مدينة بيت شمس، وهناك تلقاها الإسرائيليون وأنزلوا التابوت وذبحوا ذبائح للرب. (صموئيل الأول: 4-6).

أما عن محتويات التابوت الوارد ذكرها في الآية الكريمة: "فيه سَكِينَةٌ من ربكم، وبَقِيَّةٌ مما ترك آل موسى وآل هرون، تحمله الملائكة"، فإننا نعلم من سفر الخروج (25: 16 و 21) أن التابوت كان يحتوي على لوحَي الشريعة اللذين تلقاهما موسى من ربه على جبل سيناء. كما وتضيف رسالة بولس إلى العبرانيين

في كتاب العهد الجديد إلى محتويات تابوت جرة ذهبية فيها بعض المن الذي أكله العبرانيون في الصحراء، وعصا هرون التي أوردت (الرسالة إلى العبرانيين 9: 4). وفيما يتعلق بالملائكة التي تحمل التابوت فنحن نعلم من إشارات متفرقة في التوراة أن تابوت العهد كان بمثابة عرش ليهوه، وأن اثنين من ملائكة الكروبيم المجنحة (مفردها كروب) كانا يحملانه في موضعه في خيمة الاجتماع التي كانت بمثابة مسكن ليهوه بين شعبه أثناء التجوال في سيناء: "وحملوا من هناك تابوت عهد الرب الجالس على الكروبيم" (1 صموئيل 4: 4). "يا راعي إسرائيل... يا جالساً على الكروبيم أشرق" (المزمور 80: 1). "الرب قد مَلَكَ. ترتعد الشعوب وهو جالس على الكروبيم، تنزلزل الأرض". (المزمور 99: 1). "أيها الرب إله إسرائيل الجالس على الكروبيم، أنت وحدك الإله" (2 ملوك 19: 15).

2- جالوت وداود:

الرواية القرآنية: نتابع في المقتبس الذي أوردناه أعلاه من سورة البقرة:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمُ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَبَثَّتْ أَعْدَامُنَا وَانْضَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ....﴾ (2 البقرة: 249-251).

في هذا الخبر لدينا وصف لإحدى المعارك الشهيرة التي خاضها شاول ضد الفلسطينيين. فقد عسكر الفريقان تجاه بعضهما البعض، وانبرى لبني إسرائيل من الطرف الفلسطيني الفارس الجبار جوليات (أو جالوت في النص القرآني)، يطلب من يبارزه في قتال منفرد. فخاف فرسان بني إسرائيل من منازلته، ولكن الفتى داود قبل التحدي، وكان في ذلك الوقت مجرد حامل سلاح للملك شاول، وعازفاً على العود يعزف له كلما انتابته الكآبة.

الرواية التوراتية: لهذه القصة في سفر صموئيل الأول مقدمات، فقد نقل النبي صموئيل إلى شاول أمر الرب بقتال شعب العماليق لأنهم وقفوا في وجه بني إسرائيل وهم في طريقهم إلى أرض كنعان، وبتطبيق قاعدة "التحريم" عليهم، والتي تقتضي إفناء العدو عن بكرة أبيه وقتل نسائه وأطفاله وحيواناته جميعاً. فتوجه داود وهزم العماليق وحرّم جميع الشعب بحد السيف، ولكنه عفا عن ملكهم المدعو أجاج، كما عفا عن خيار المواشي وساقها أمامه.

فكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمت على أني جعلت شاول ملكاً لأنه رجع من ورائي ولم يحفظ كلامي. فحزن صموئيل جداً وصرخ إلى الرب الليل كله لأنه كان يحب شاول. ثم بكر صموئيل للقاء شاول صباحاً. ولما جاء قال له شاول: قد أقمتُ كلام الرب. فقال له صموئيل: وما هو صوت الغنم هذا في أذني وصوت البقر الذي أنا سامع؟ فقال شاول: لقد عفا الشعب عن خيار الغنم والبقر لأجل الذبح للرب إلهك. فقال له صموئيل: هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح أكثر من مسرته باستماع صوته وأوامره؟ لأنك رفضت كلام الرب فإن الرب يرفضك من المُلْك. ثم قال صموئيل: قدموا لي أجاج ملك عماليق. فذهب إليه أجاج وهو يعتقد أنه قد نجا، ولكن صموئيل أمسك بالسيف وقطع رأسه. (صموئيل الأول: 15).

بعد ذلك فارق روح الرب شاول، وتلبّسه روح رديء. فكانت تأتيه نوبات من الكآبة، فقال له ضباطه: هو ذا روح رديء ييغتك من قبل الرب. فليأمرنا سيدنا أن نبحث له عن رجل يحسن الضرب على العود، ويكون إذا كان عليك الروح الرديء من قبل الله أنه يضرب بيده فتبتهج. فقال شاول: ابحثوا لي عن رجل يحسن الضرب وأتوا به إلي. فانبهر واحد من الغلمان وقال: هو ذا رأيت ابناً ليسي الذي من بيت لحم، يحسن الضرب على العود، وهو جبار ذو بأس وفصيح وجميل والرب معه. فأرسل شاول رسلاً إلى يسي، إلى بيت لحم، ليأتوا له بداود. فأحبه وجعله حامل سلاح له، وكان يعزف أمامه كلما هاجمته نوبة من الكآبة.

بعد ذلك جمع الفلسطينيين قواتهم وتوجهوا لقتال بني إسرائيل وعلى رأسهم البطل الجبار جوليائ، فسار إليهم شاول واقترب الجمعان من بعضهما واصطف

الجنود للقتال ، وكان الفلسطينيون وقوفاً على تلة من هنا وإسرائيل وقوفاً على تلة من هناك والوادي بينهم. فبرز جوليات من بين صفوف الفلسطينيين ، وكان طوله ستة أذرع وعلى رأسه خوذة من نحاس ، لباساً درعاً حرشفياً ثقيلاً لا يقدر فارس على حمله. فنادى وقال : اختاروا منكم رجلاً فينزل إلي ، فإن قدرتُ عليه وقتلته تصيرون لنا عبيداً. فلما سمع شاؤل وجميع بني إسرائيل كلام جوليات ، ورأوا طوله الفائق والسلاح الذي دجج به نفسه ارتاعوا وخافوا جداً. وظل جوليات يفعل ذلك كل يوم وما من أحد يجرؤ على التصدي له.

ثم إن داود دخل على شاؤل وقال له : من هو هذا الفلسطيني الأغلف⁽¹⁾ حتى يعير صفوف الله الحي؟ عبدك يذهب ويحاربه. فقال له شاؤل : أنت غلام وهو رجل حرب منذ صباه. فأصر داود على طلبه. فما كان من شاؤل إلا أن ألبس داود خوذته ودرعه وقلده سيفه ، فمشى داود خطوات ولكنه تعثر لأنه لم يكن معتاداً على تقلد عدة الحرب ، فنزعها عنه والتمس خمسة حجارة ملس من الوادي ، وحمل مقلاعه⁽²⁾ وعصاه وسار صوب جوليات. فلما رآه الفارس الفلسطيني استخف به لأنه كان فتى وأشقر جميل المنظر ، وقال له : هل أنا كلب حتى أنك تأتي إلي بعصي؟ ثم لعن داود بآلهته. فقال له داود : أنت تأتي إلي بسيف ورمح وترس ، وأنا آتي إليك باسم رب الجنود. ثم مدّ يده إلى الجراب وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع ، وضرب الفلسطيني في جبهته فسقط على وجهه إلى الأرض. فأسرع داود إليه واستل منه سيفه وقطع رأسه. فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا ، فقام رجال إسرائيل ولحقوا بهم ونهبوا محلتهم. وعندما عاد داود إلى شاؤل جعله قائداً على إحدى كتائبه ، وأحبه قادة داود وجميع الشعب ، وصار صديقاً حميماً ليوناثان بن شاؤل. ثم إن شاؤل زوجه ابنته المدعوة ميكال مكافأة له. ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم شاؤل بالأفول ونجم داود بالصعود (صموئيل الأول : 16-19).

(1) أي غير المختون.

(2) المقلاع عبارة عن أداة بدائية لرمي الحجارة وقذفها إلى مسافات بعيدة. وهي مؤلفة من حزام عريض مصنوع من جلد رقيق أو قماش توضع في وسطه قطعة الحجر ويلوح بها صاحبها بحركة دائرية حول رأسه ثم يفلت طرفها فينطلق الحجر بالقوة النابذة للحركة الدورانية.

7- الملك داود

تختصر الرواية القرآنية قصة انتقال الملك من شاول إلى داود عندما تقول: ﴿...وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ...﴾ (2 البقرة: 251).

ولكن انتقال الملك إلى داود في الرواية التوراتية بعد أن قتل الفارس الفلسطيني جوليات في المعركة الشهيرة التي وصفناها سابقاً له قصة طويلة تمتد عبر 14 أصحاباً من سفر صموئيل الأول، لا نستطيع هنا إلا أن نأتي على أهم مفاصلها.

فبعد أن اتخذ الرب قراره بنزع الملك من شاول، وأبلغه هذا القرار على لسان صموئيل الذي قال له: "لأنك رفضت كلام الرب فإن الرب يرفضك من الملك". ناح صموئيل على شاول أياماً كثيرة. فقال الرب لصموئيل:

"حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته؟ املاً قرنك دهناً⁽¹⁾ وتعال أرسلك إلى بيت يسى البيت لحمي لأنني قد رأيت في بيته ملكاً... ففعل صموئيل كما تكلم الرب وجاء إلى بيت لحم. فارتعد شيوخ المدينة عند استقباله وقالوا: أسلام مجيئك؟ قال: سلام. وقد جئت لأذبح للرب. تقدسوا وتعالوا معي إلى الذبيحة. وقدس يسى وبنيه ودعاهم إلى الذبيحة... وعبر يسى وبنيه السبعة أمام صموئيل. فقال صموئيل ليسى: الرب لم يختار هؤلاء. وقال صموئيل ليسى: هل كملوا الغلمان؟ فقال: بقي الصغير، وهو ذا يرعى الغنم. فقال صموئيل: أرسل واثت به. فأرسل وأتى به. وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. فقال الرب: قم امسحه لأنه هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط أخوته. وحل روح الرب على داود منذ ذلك اليوم فصاعداً" (صموئيل الأول 16: 1-13).

(1) الدهن: هو زيت المسحة المقدس.

بعد ذلك جاء رسل شاول وأخذوا إليه داود ليعزف له على العود، على ما رأينا في قصة شاول سابقاً. فأحبه داود وجعله حامل سلاح له. وبعد قتله لجوليات أعطاه شاول قيادة إحدى كتائبه وزوجه من ابنته. فارتفع شأن داود في الجيش وبين الناس، فقد انبرى لتوه يشن غزوات خاطفة على الفلسطينيين ويقتل منهم المئات. ولكن قلب شاول تغير نحوه، وخاف من تزايد محبة الناس له فكرهه. وعندما كانت تأتيه نوبات الاكتئاب كان يسعى لقتله. فهرب داود من وجه شاول واختبأ.

وفي هذه الأثناء تجمع حول داود جماعة من الأفاقين والمغامرين ومن أعداء شاول، وصاروا يترحلون معه حيثما ذهب. وعندما يش من وجود ملاذ آمن له في مناطق حكم شاول، لجأ وجماعته إلى ملك الفلسطينيين في مدينة جت، ووضع نفسه وجماعته في خدمته متحولاً إلى زعيم مرتزقة تعيثُ فساداً في أراضي خصوم ملك جت. ولكن الفلسطينيين لم يكونوا يسمحون له بالذهاب معهم لقتال بني إسرائيل، وذلك خوفاً من انقلابه عليهم وعودته إلى صفوف بني جلدته (صموئيل الأول: 7-30).

في آخر معركة له مع الفلسطينيين هُزم شاول هزيمة منكرة وأصيب بجرح بليغ. وعلى حد وصف النص التوراتي: "اشتدت الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جداً. فقال لحامل سلاحه: استل سيفك واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويقبحوني. فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً، فأخذ شاول السيف وسقط عليه. ولما رأى حامل سلاحه أنه مات شاول، سقط هو على سيفه ومات معه". (صموئيل الأول 31: 1-13). ومن المفترض لدى المؤرخين أن شاول قد حكم من عام 1020 إلى عام 1000 ق.م.

عندما سمع داود بمقتل شاول رثاه بقصيدة طويلة وحزن عليه، ولكن شعوره بالأمان دفعه إلى العودة إلى موطنه، فقام وذهب إلى مدينة جبرون وأقام فيها. فجاء رجال سبط يهوذا ومسحوا هناك داود ملكاً عليهم. ولكن أبينير رئيس جيش شاول لم يعترف بدادود وإنما بايع بالملك ابن شاول المدعو إشبوشت،

وتبعه في ذلك جميع القبائل الإسرائيلية الشمالية. وكانت حرب طويلة بين بيت داود وبيت شاول. وكان بيت داود يتقوى وبيت شاول يضعف. وبعد سنتين دخل اثنان بيت إشبوشث على غفلة وقتلوه وهو نائم في سريره وقطعوا رأسه وجاؤا به إلى داود. ولكن داود أمر الغلمان فقتلوهما، وأما رأس اشبوشث فأخذوه ودفنوه. فجاء جميع أسباط إسرائيل إلى حبرون ومسحوا داود ملكاً عليهم (صموئيل الثاني: 1-5).

كان داود ابن ثلاثين سنة حين مَلَكَ، ومَلَكَ أربعين سنة. ومن المفترض أن مدة حكمه قد امتدت من عام 1000 إلى عام 961 ق.م.⁽¹⁾ كان أول عمل لداود بعد أن صار رأساً للمملكة هو الاستيلاء على مدينة أورشليم التي كانت حتى ذلك الوقت بيد الكنعانيين، وجعلها عاصمة له بعد حبرون. ومن أورشليم أخذ يشن حملاته العسكرية التوسعية حتى سيطر على كامل مناطق شرقي الأردن والجنوب السوري وضمها إلى مملكته⁽²⁾. وعندما أراحه الله من أعدائه، أرسل إليه حيرام، ملك مدينة صور الفينيقية على الساحل السوري، خشب أرز وبنائين فينيقيين، فبنوا قصراً لداود. وهكذا بدأ داود يعيش حياة الملوك المترفة، وتسرى بنساء من أورشليم ولدن له بنين وبنات. وهذه الأخبار تغطيها الإصحاحات العشرة الأولى من سفر صموئيل الثاني.

في إحدى الليالي كان داود يتمشى على سطح بيته، فرأى من على السطح امرأة تستحم في بيتها، فاسترق النظر إليها دون أن تشعر به. كانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عنها. ف قيل له بأنها بتشبع زوجة أوريا الحثي الجندي المخلص في جيش داود. ولما كان أوريا غائباً في إحدى حملات

(1) هذه السنوات لحكم ملوك إسرائيل الأوائل يفترضها المؤرخون من خلال تقصيصهم

للرواية التوراتية. ولكن لا يوجد لدينا أي شاهد تاريخي أو آثاري على وجودهم.

(2) لا يوجد أي برهان تاريخي على قيام هذه المملكة الواسعة في القرن العاشر قبل الميلاد،

كما أن الدلائل الأركيولوجية لا تثبت قيامها، والمُلك داود غير مُوثَّق خارج النصوص المقدسة.

الجيش، فقد أرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه واضطجعت معه ثم رجعت إلى بيتها. وبعد مدة أرسلت المرأة إلى داود لتخبره بأنها حبلى. فأرسل داود إلى قائد جيشه يوباب يقول: أرسل إلي أوريا الحثي. وكان الجيش يحاصر مدينة ربة عمون في شرقي الأردن. فأتى أوريا إلى داود، فسأله داود عن سلامة قائده يوباب وسلامة الجيش، ثم قال له أن يذهب إلى بيته ويغتسل ويرتاح. فخرج أوريا من عند الملك. وبدلاً من أن يذهب إلى بيته نام على باب بيت الملك مع الحرس. وفي الصباح سأله داود عن السبب في عدم ذهابه إلى البيت، فقال له: إن إسرائيل ويهوذا والتابوت معهم ساكنون في الخيام حول مدينة الأعداء، فكيف آتي إلى بيتي وأكل وأشرب واضطجع مع زوجتي؟ فأطلقه داود وأرسل بيده كتاباً إلى قائد الجيش يوباب يقول فيه: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. ففعل يوباب ذلك ومات أوريا. فلما سمعت بتشبع امرأة أوريا أنه مات رجلها ندمته. وعندما انتهت أيام حزنها أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة.

فأرسل الرب النبي ناثان إلى داود، فجاء إليه وقال:

"كان رجلان في مدينة واحدة منهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً، وأما الفقير فلم يكن له إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وكبرت معه ومع بنيه جميعاً، تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه، وكانت له كابلة. فجاء ضيف إلى الرجل الغني، فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ويهيئ للضيف الذي جاء إليه؛ فأخذ نعجة الرجل الفقير وهياً للرجل الذي جاء إليه. فحمي غضب داود على الرجل جداً وقال لناثان: حي هو الرب، إنه يُقتل الفاعل ذلك، ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولم يشفق. فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل. هكذا قال الرب إله إسرائيل: أنا مسحك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول... وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا. وإن كان ذلك قليل كنت أزيد لك كذا وكذا. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه؟ قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة، وإياه قتلت بسيف بني

عمون... فقال داود لنathan: قد أخطأتُ إلى الرب. فقال Nathan لداود: الرب أيضاً قد نقل عنك خطيئتك. لا تموت، غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون، فالابن المولود لك يموت" (صموئيل الثاني 12: 1-15).

الرواية القرآنية: لم يذكر القرآن من أخبار داود إلا النذر اليسير، ولكنه توقف عند قصة داود وزوجة أوريا الحثي، وقدمها بطريقة شديدة الإيجاز والاختصار، وذلك من خلال قضية بسطها أمامه رجلان احتكما إليه فيها:

"واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد (1) إنه أواب (2). إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة له كل أواب (3)، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (4)." (4).

"وهل آتاك نبأ الخصم (5) إذ تسوروا المحراب (6). إذ دخلوا على داود ففزع منهم (7)، قالوا: لا تخف. خصمان (8) بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تشتط (9)، واهدنا سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال: أكفلنيها (10) وعزني في الخطاب (11). قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخلطاء (12) ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا،

(1) أي ذو القوة.

(2) كثير الإنابة إلى الله.

(3) تسبح لله الجبال معه، فتردد الطير رجع ذلك التسبيح.

(4) الكلام المبين.

(5) أي الخصوم، والمقصود هنا اثنان.

(6) ارتقوا سور المحراب.

(7) لأنه لا يعرفهم ولأنهم دخلوا دون استئذان.

(8) أي نحن خصمان.

(9) لا تظلم.

(10) اجعلها تحت كفالي أو ملكنيها.

(11) أي غلبني في الجدل.

(12) أي الشركاء.

وقليل ما هم⁽¹⁾. وظن⁽²⁾ داود إنما فتنَّاه⁽³⁾ فاستغفر لربه وخر راکعاً وأُتاب⁽⁴⁾. فغفرنا له ذلك، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب. يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب" (38 ص: 17-26).

إن الرجلين اللذين دخلا على داود متجاوزين الحرس والأسوار هما ملاكان أرسلهما الله لتنبه داود إلى خطيئته من خلال روايتهما للقضية التي فيها يختلفان، وهي القضية التي رواها النبي ناثان للغرض نفسه. وعندما حكم داود للفريق المظلوم أدرك هوية الرجلين وانتبه إلى أنه عمل الشيء نفسه عندما أخذ زوجة رجل لا يملك إلا زوجة واحدة، في الوقت الذي يمتلك هو أكثر من زوجة وعدداً من السراري. وعرف أن الله قد امتحنه بمحبة تلك المرأة، فاستغفر لربه وخر راکعاً معلناً توبته وندمه.

ونلاحظ أن الرواية القرآنية لا تتعرض لمعاقبة داود في موت ابنه البريء، لأن الله عز وجل قال في كتابه العزيز: ﴿...وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾ (6 الأنعام: 164). أي أن النفوس تجازى بأعمالها ولا يحمل أحد خطيئة آخر. بينما يضع المحرر التوراتي على لسان إله إسرائيل قوله: "أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع" (الخروج 20: 5).

ولدينا في القرآن خبر ثالث عن داود في سورة الأنبياء:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ⁽⁵⁾ إِذِ نَفَثَتْ⁽⁶⁾ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ * وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾ (21 الأنبياء: 78-79). وهذا الخبر غير وارد في التوراة، وليس هناك من اتفاق بين المفسرين بخصوصه.

(1) أي وهؤلاء قليلون.

(2) أي علم وأيقن.

(3) أي امتحنه وجربناه.

(4) رجع بالتوبة إلى الله.

(5) الحرث هو الزرع. والمقصود هنا كرمًا مزروعاً.

(6) أي رعته ليلاً بلا راع.

(7) أفهمناه الحكم في القضية.

فيما عدا هذه الأخبار الثلاثة، لا يوجد في القرآن سوى إشارات عابرة إلى كونه نبياً، وإلى الكتاب الذي أنزل عليه وهو الزبور:

﴿لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ (5 المائدة: 78).
﴿....وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (4 النساء: 163).

﴿....لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (17 الإسراء: 55).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (21 الأنبياء: 105).

والزبور الوارد ذكره في هذه الآيات هو كتاب المزامير في التوراة. وهو عبارة عن أناشيد وصلوات دينية كانت ترتل في الهيكل بمصاحبة الآلات الموسيقية. وبلغ عددها في سفر المزامير مئة وخمسين مزموراً، ومعظمها يعزى لإنشاده إلى داود. وهذا نموذج منها:

"الإمام المغنين. مزمور لداود عندما جاء إليه ناثن النبي بعدما دخل إلى بتشبع.

ارحمني يا الله حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امح معاصي. اغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيئي طهرني، لأنني عارف بمعاصي وخطيئي أمامي دوماً. إليك وحدك أخطأت، والشر قدام عينيك صنعت، لكي تبرر في أقوالك وتزكو في قضائك. هأنذا بالإثم صوّرت وبالخطيئة حملت بي أُمي. ها قد سررت بالحق في الباطن ففي السريرة تُعرّفني حكمة. طهرني بالزُوفاء طهر، اغسلني فأبيض أكثر من الثلج. أسمعني سروراً وفرحاً فتبتّهج عظام سحقتها. استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي. قلباً نقياً اخلق في يا الله، وروحاً مستقيماً جدد في داخلي..". (المزمور 51).

8- الملك سليمان

الرواية التوراتية: توفي الملك داود بعد أن حكم مدة أربعين سنة أمضاها في الحروب وبناء الدولة الجديدة، وخلفه على العرش سليمان الابن الثاني لبشبع زوجة أوريا الحثي الذي أنجبته لداود بعد وفاة ابنهما الأول، الذي حكم عليه الرب بالموت عقاباً على خطيئة داود. ومن المفترض لدى المؤرخين أن سليمان قد حكم بين عام 961 ولعام 931 ق.م⁽¹⁾. ويمكن اختصار أخبار سليمان الواردة في سفر الملوك الأول: 1-11، على الوجه التالي:

ورث سليمان عن أبيه دولة مستقرة لا يطمع فيها أحد من الأعداء الذين كسر شوكتهم الملك المحارب داود. فتفرغ سليمان لتنظيم شؤون الدولة، والعلاقات الدبلوماسية، والمشاريع العمرانية. فقد عقد معاهدات صداقة وتعاون مع المدن الفينيقية على الساحل السوري، وأرسل إلى حيرام ملك صور طالباً تزويده بخشب أرز من جبل لبنان، وبنجارين وبنائين فينيقيين لقاء حنطة وزيت يرسلها له. فبنى سليمان قصوراً له ولزوجاته وسراريه اللواتي بلغ عددهن ألفاً. كما بنى في أورشليم هيكلاً للرب الذي كان قبل ذلك يقيم في خيمة، ونقل إليه تابوت العهد. وصاهر سليمان فرعون مصر وأتى بابنته وبنى لها قصراً خاصاً بها. وعندما تراءى له الرب وسأله ماذا يعطيه، لم يطلب سليمان من الرب سوى أن يعطيه فهماً وعلماً وحكمة. فقال له الرب: "هوذا قد أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً، حتى أنه لم يكن قبلك ولا يقوم بعدك نظير. وقد أعطيتك أيضاً ما لم تسأله، غنى وكرامة، حتى أنه لا يكون رجل مثلك قبلك ولا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيام حياتك" وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر، وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان.

(1) لم يرد ذكر سليمان ومملكته في أي وثيقة من وثائق الشرق القديم.

وتعاضم سليمان في الملك ، فكان وزن الذهب الذي أتى لسليمان في سنة واحدة ستمئة وستين وزنة من الذهب ، وذلك عدا الذي أتاه من ضرائب التجار ومن الولاة الذين عينهم في المقاطعات. وفي بيته المعروف ببيت وعر لبنان ، كانت جميع آنية طعام سليمان من الذهب الخالص ، لأن الفضة لم يكن لها قيمة في أيامه. وقد جعل له سفناً في بحر فينيقيا تبحر مع سفن حيرام ملك صور ، وتأتي له من المناطق البعيدة بالذهب والفضة والعاج. فتعاضم سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة ، وكانت كل الأرض ملتزمة وجه سليمان ، يأتي إليه كل واحد بهديته. وقد بلغ من ثراء المملكة في عهده أن الفضة في أورشليم كانت مثل الحجارة ، وخشب الأرز مثل خشب الجميز الذي في السهل لكثرتة. وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخيول مركباته وأثنا عشر ألف فارس (الملوك الأول: 1-9).

"وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان فأنت لتمتحنه بمسائل⁽¹⁾. فأنت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً ، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة. وأنت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان في قلبها ، فأخبرها سليمان بكل كلامها ، لم يكن أمر مخفياً عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان ، والبيت الذي بناه ، وطعام مائدته ، ومجلس عبيده ، وموقف خدامه وملابسهم ، وسفاته ، ومحرقاته التي كان يُصعدها في بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك: صحيح كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئتُ وأبصرتُ عينايا. فهو ذا النصف الذي لم أخبر به... وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب ، وأطياباً كثيرة وحجارة كريمة. وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتتها الذي طلبت ، عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك. فانصرفت وذهبت إلى أراضيها هي وكل عبيدها" (الملوك الأول 10 : 1-13).

(1) في عصر سليمان ، أي في مطلع القرن العاشر ، لم تكن مملكة سبأ المعروفة تاريخياً قد نشأت بعد.

"وأحب الملك سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤايبات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات، من الأمم الذين قال الرب عنهم لبني إسرائيل لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم... وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب... فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً". (الملوك الأول 1: 11-1)

الرواية القرآنية: لم يعطنا القرآن الكريم قصة مطردة عن أخبار سليمان. وفيما عدا زيارة ملكة سبأ المفصل ذكرها في سورة النمل، لا يوجد لدينا إلا إشارات موجزة ومقتضبة إلى أخباره.

ففيما يتعلق بسفن سليمان التي كانت تمخر البحر مع سفن حيرام وتأتيه بالبضائع من الأقطار البعيدة، لدينا الخبر التالي في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (21 الأنبياء: 81). وفي سورة النمل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا وَرَوْاحَهَا شَهْرًا وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ⁽¹⁾...﴾ (34 سبأ: 12).

وفيما يتعلق بأعمال سليمان المعمارية، نقرأ في سورة سبأ وصفاً ينطبق على ما قام به سليمان من أعمال تزيينية في الهيكل الذي بناه للرب: ﴿...وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ... * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجُبَابِ⁽²⁾ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ *﴾ (34 سبأ: 12-13). وقد ورد بالتفصيل في الإصحاح السابع من سفر الملوك الأول وصف لزينة الهيكل وما فيه من تماثيل كروبيم وأسود وثيران، ومن قدور وجفان وآنية طقسية أخرى، فليراجع في موضعه من الكتاب.

(1) عين القظر: أي النحاس الذائب.

(2) الجفان هي الطسوس، والجواب هي الأحواض العظيمة.

وعن حكمة سليمان نقرأ في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ* وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ*﴾ (27 النمل: 15-16).

وعن جواد سليمان الكثيرة التي قال المحرر التوراتي أنها بلغت أربعين ألف جواد تأكل من أربعين ألف مزود، نقرأ في سورة ص عن هذه الجياد وولع سليمان بها: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّافِنَاتُ⁽¹⁾ الْجِيَادُ* فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ⁽²⁾ عَنِ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ⁽³⁾* رُدُّوهَا عَلَيَّ⁽⁴⁾ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ⁽⁵⁾ وَالْأَعْنَاقِ*﴾ (38 ص: 31-33).

وفي سورة البقرة يبرئ الله تعالى سليمان من الشرك وعبادة الأوثان، مما ورد في سفر الملك الأول: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِبَصَّارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...*﴾

(2 البقرة: 101-102)

وهاروت وماروت، على ما يقول المفسرون، هما ملاكان أرسلهما الله لامتحان البشر، فهبطا في مدينة بابل التي اشتهرت بالسحر والتنجيم، وراحا يعلمان السحر للناس. ولكن الله أخذ عليهم ميثاقاً أن لا يُعلِّما أحداً قبل أن يقولوا له نحن فتنه فلا تكفر، وبيننا له طريق الخير والشر.

(1) الصافنات هي صفة للجياد السريعة.

(2) حب الخير: أي حب الخيل.

(3) توارت بالحجاب: أي غابت عن البصر.

(4) أي أعيدوها لي.

(5) السوق هي السيقان.

القصة الوحيدة التي عولجت بتفصيل هي قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان وما جرى بينهما. وهذا نصها الكامل :

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ^(١) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَقَفَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأَعِدَّنَّهِ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ^(٢) * فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ ^(٣) فَقَالَ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ^(٤) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصْدَقَتْ أَمِ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفِقْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ ^(٥) سُلَيْمَانَ قَالَ ^(٦) أَتُمِدُونِي بِبَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ

(1) أي ألهمني.

(2) أي ببرهان واضح على سبب غيابه.

(3) أي حضر الهدهد ووقف غير بعيد.

(4) أي الشيء المستور.

(5) أي جاء الرسول الذي بعثت به الملكة إلى سليمان.

(6) والقول هنا لسليمان.

مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنِّي أَسْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ تَكَرُّوا⁽¹⁾ لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ⁽²⁾ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا اإِذْخُلِي الصَّرْحَ⁽³⁾ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً⁽⁴⁾ وَكَفَنَتْ عَنْ سَائِفِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ⁽⁵⁾ مِّنْ قَوَارِيرَ⁽⁶⁾ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * ﴿27 النمل : 17-44﴾.

سليمان والجن:

إن سلسلة قصص الملك سليمان في سفر الملوك الأول لا تحتوي على ما أشار إليه القرآن الكريم من سلطته على عالم الجن، وعلى عالم الحيوان ومعرفته لألستها. ولكن الأدبيات اليهودية خارج التوراة حافلة بمثل هذه الأخبار.

ففي الفلكلور الشعبي اليهودي هناك حكايا كثيرة عن السلطان الذي وهبه الله سليمان على عالم الجن والعملاقين وطيور السماء وكل ما يدب على الأرض. وهناك ملاك مسخر له يحمل بيده سوطاً نارياً يجلد كل من تسول له نفسه عصيان أمر سليمان، فيحوله إلى رماد. وقد بنى له الجن هيكل الرب في أورشليم، وقصوراً وأبنية إدارية ومرافق عامة كثيرة، وحفروا له في أرضه نهراً، وبعضهم كان يغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، والبعض الآخر يحفر في المناجم لاستخراج الياقوت والزمرد وغيرها من الأحجار الكريمة⁽⁷⁾.

(1) أي غيروا وموهوا عرشها لنرى إن كانت تعرفه.

(2) ومنعها سليمان عما كان تعبد.

(3) أي القصر أو ساحته.

(4) أي مجمع ماء.

(5) مستور.

(6) أي زجاج.

(7) k. Sanadiki, Legends and Narratives of Islam, Chicago, 2000, p.206. citing: L. Ginzberg, Legends of the Jews, IV, pp. 140-145.

ويقول ترجوم sheni في التعليق على ما ورد في سفر الملوك الأول: "وتكلم سليمان بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشأته ألفاً وخمساً، وتكلم عن الأشجار من الأرض الذي في لبنان إلى الزوفا النبات على الحائط. وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن ديب السمك" (4: 33-34)، بأن سليمان كان متسلطاً على كل الحيوان الذي يدب على الأرض، وعلى طير السماء، وكان يفهم ألسنتها جميعاً. حتى إنه كان يتحدث مع الأشجار. كما كان متسلطاً على الجن وعلى أرواح الظلام⁽¹⁾.

ووصلنا نص في أكثر من نسخة معروف بعنوان ميثاق سليمان Solomon's Testament - مكتوب باليونانية الهيلينية وهي لغة الأنجيل، ويرجع تاريخه إلى الفترة بين القرن الثاني والقرن الرابع الميلاديين، والنص يهودي من حيث الأصل، ولكنه خضع للمسة تحريرية مسيحية تتحدث عن ظهور يسوع المسيح في المستقبل. وهو مكرس لوصف سلطان سليمان على عالم الجن والعفاريت من خلال خاتم سحري يضعه في إصبعه، وتسخيرها في أعماله العمرانية. وهو يذكر بالتفصيل أنواع هؤلاء الجن ووظائفهم ومهاراتهم⁽²⁾.

وفي ميثاق سليمان، لدينا قصة عن العفاريت الذين يطرون نحو قبة السماء من أجل استراق السمع ومعرفة الأوامر التي يصدرها الله إلى الملائكة، وبذلك يتنبؤون بالحوادث المقبلة:

فقد احتكم رجل عجوز إلى سليمان شاكياً ابنه الوحيد الذي يعامله معاملة سيئة ويضربه ويهدده بالموت. فاستدعى سليمان الشاب وسأله عن حقيقة الأمر، فأنكر التهمة وطلب إنصافه من أبيه الذي تجنى عليه. ولكن الأب أصر على طلب الموت لابنه. وكان العفريت المدعو أورنياس حاضراً فضحك. ولما سأله سليمان غاضباً عن سبب ضحكك، قال له إن الوالد سوف يموت بعد ثلاثة أيام موتاً طبيعياً. فأمر سليمان الأب والابن أن يعودا إليه بعد ثلاثة أيام. وعندما

(1) J. H. Charlesworth: The Old testament Pseudepigrapha, Doubleday, New york, 1983, Vol. 2, p 947.

(2) المرجع نفسه، ص 935 وما بعدها.

انصرفا سأل سليمان العفريت عن الوسيلة التي تعينه هو وأقرانه على كشف حجب المستقبل. فقال له: نحن نظير نحو قبة السماء وتتجول بين النجوم، فنسمع الأوامر التي يصدرها الله إلى الملائكة بخصوص حيوات البشر؛ ولكن بما أننا لا نملك قدرة الملائكة على الطيران الطويل، فإننا نتعب لعدم وجود شيء نستند إليه أو نستريح عنده، فيقع بعضنا من الأعالي ويهوي مثل وميض البرق، فيظن الناظر إلينا أننا نجوم تتساقط من الأعالي⁽¹⁾.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الشياطين التي تطير كي تسترق السمع في السماء، وعن شهب تنقض من السماء لإتلافهم:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ...﴾ (67 الملك: 5).

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّبُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ *﴾ (37 الصافات: 6-8).

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاطِرِينَ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعُهُ شَهَابٌ مُّيِّنٌ *﴾ (15 الحجر: 16-18).

ولدينا في الرواية القرآنية أيضاً قصة عن سليمان كثيرة الغموض، ولكن يبدو أن لها صلة بعلاقة سليمان بالجن. نقرأ في سورة ص هذه التهمة للمقتبس الذي أوردناه أعلاه:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ * وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ *﴾ (38 ص: 34-38).

لا يعطينا النص أي مفتاح لفهم هذه القصة الشديدة الاختزال. ولكننا نجد في الأدبيات اليهودية خارج التوراة ما يلقي الضوء عليها. فقد ورد في إحدى الملاحم اليهودية أن العفريت المدعو أسموديوس تحدى الملك سليمان لأن

(1) المرجع نفسه ص 982-983.

ينزع خاتم القوة من إصبعه، ولما فعل ذلك ضرب أسموديوس بجناحه سليمان فرماه إلى مسافة أربعمئة فرسخاً في الفلاة، ثم اتخذ شبهه وجلس على عرشه. أما سليمان فقد راح يهيم على وجهه شريداً يستجدي طعامه. وكلما كان يقول للناس بأنه الملك كان يلقي الهزء والسخرية منهم، واعتبر مجنوناً وفاقداً للرشد. أخيراً وصل إلى شاطئ البحر واستجدى من أحد الصيادين سمكة، وعندما شقها وجد خاتمه في بطنها فوضعه في إصبعه وعادت إليه قوته. فعاد إلى عاصمته واسترد ملكه⁽¹⁾

وقد ورد في تفسير ابن كثير ما يأتي:

يقول تعالى: "ولقد فتننا سليمان" أي اختبرناه بأن سلبناه الملك. "وألقينا على كرسیه جسداً": قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر وقتادة وغيرهم: يعني شيطاناً. "ثم أناب": أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته. وقيل إن اسم ذلك الشيطان صخر، وقيل أيضاً صرد، وحقيق، وآصف.

ومن القصص التي يوردها ابن كثير عن بقية المفسرين والأخباريين، أن سليمان قال لشيطان اسمه آصف: كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر. فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسیه. فكان سليمان يستطعم ويقول: أتعرفوني؟ أطعموني أنا سليمان، فيكذبونه. حتى أعطته امرأة يوماً سمكة ففتح بطنها فوجد خاتمه، فرجع إليه ملكه وفر آصف فدخل البحر.

ويعلق ابن كثير على هذه القصة وغيرها قائلًا: وأرى هذه كلها من الإسرائيليات.

على أن من رفض مثل هذه التفسيرات لم يأتنا بما هو أقرب إلى مقصد الآية الكريمة. يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير أن الفتنة المذكورة في الآية هي

(1) K. Sanadiki, legends and Narrative of Islam, kazi publications, Chicago, 2000, p. 223. citing: louis Ginzberg, legends of the jews, I V, p. 169.

فتنة واختبار في الجسد. فقد ابتلى الله سليمان بمرض شديد أصابه بالهزال، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسي. ثم أناب بعد ذلك أي رجع إلى حالة الصحة.

وهذا التفسير للرازي ينطبق على الآية الكريمة لو أنها قالت: "وألقينا على سرير جسدًا" لأن المريض لا يجلس على العرش وإنما يأوي إلى السرير. والله أعلم.

9- أيوب

أيوب في ثقافة الشرق القديم:

إن فكرة المعذب الصابر الذي تأتيه البلياء من كل حذب وصوب على الرغم من تقواه وصلاحه، هي فكرة قديمة في الفكر الديني للمنطقة المشرقية. فلقد رأى إنسان الشرق القديم في المصائب والبلياء التي تحل على الأفراد عقاباً على الذنوب والخطايا. ولكن الحكماء المشرقيين على إيمانهم هذا، قد انشغلوا في تأمل مسألة طرحت نفسها على الفكر الديني والفلسفي في معظم الثقافات، وهي ابتلاء أشخاص صالحين عاشوا حياة أخلاقية سوية، وأقاموا الصلوات وقربوا القرابين لآلهتهم، وأدوا واجباتهم الاجتماعية على أكمل وجه. ولدينا عن مثل هذه التأملات نصّان من ثقافة الشرق القديم: الأول سومري يعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، والثاني بابلي يعود إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد.

أيوب السومري:

في هذا النص يتحدث الكاتب بلسان حال رجل لا نعرفه، كان غنياً وحكيماً وصالحاً، يعيش عيشة رغد وصفاء بين أهله وأصدقائه، وكان موظفاً رفيع المقام في البلاط الملكي. وفيما كان يظن أن هذه الحال دائمة له، أخذت المصائب بالتكاثر عليه وانتابته الأمراض والأسقام دون مقدمات وهو في عزّ الشباب. كان أمامه إما التمرد على السماء وازدراء العدالة الإلهية، أو التسليم بالقضاء الإلهي ومتابعة التضرع والصلاة، لأن مقاصد الآلهة، على ما يردده الحكماء المشرقيون، خافية عن أفهام البشر. وأخيراً استجاب الإله لهذا الصالح المتألم وكشف عنه الضّر، وأحال عذاباته إلى فرح وسرور. وإليك مقتربات من النص:

ليرفع الإنسان على الدوام كلمات التمجيد لإلهه ،
ويفضي إليه بصدق عن كل ما يعاينه .
إنني رجل عارف ومتبصر ، ولكن الذي يحترمني صار لا يفلح .
كلماتي الصادقة تحولت إلى أكاذيب ،
ورجل الغش والخداع غلبني ، وأنا مكره على خدمته .
إن من لا يوقرنني قد حط من قدرني أمامك يا إلهي ،
وها أنت تغمرني بالعذاب الدائم المتجدد .
أدخلُ إلى بيتي مثقل الروح ،
وأسير في الشوارع مغموم الفؤاد .
مليكي ، راعيَّ الصالح ، انقلب ضدي ونظر إلي بعين العداوة ،
أطلق ضدي قوى الشر مع أنني لست عدواً له .
لم أعد أسمع كلمة صدق من رفاقي ،
وصحبي يواجهون صدقي بالأكاذيب ،
ورجل الغش والخداع يحيك المؤامرات ضدي ،
وأنت يا إلهي لا تردعه ولا تحبط مسعاه .
أنا الحكيم ، لماذا أُقرن مع الأحداث الجهلة ؟
وأنا المستبصر العارف ، لماذا أحسب بين الحمقى ؟
الطعام متوفر للجميع ، ولكن طعامي هو الجوع ،
وفي اليوم الذي قُسمت فيه الأرزاق ، كان نصيبي العذاب .
يا إلهي إنني أقف في حضرتك ،
أريد أن أتحدث إليك وكلماتي كلها أنين وآهات ،

أريد أن أشكو لك حالي ، وأتحسر على مرارة طريقي .

عسى أمي لا تكف عن النواح أمامك ،

عسى أختي لا تكف عن شكوى خيبيتي أمامك ،

عسى زوجتي لا تكف عن رثاء عذاباتي ،

وليترنم المغنون بقدري البائس التعس .

يا إلهي إن ضوء النهار يغمر الأرض ، ولكن نهاري أسود .

الدموع والنواح والكرب والغم تسكن فيّ .

يغمرنني العذاب وما من شيء أفعله سوى البكاء .

عفريت القدر يسدد قبضته إليّ ويحرمني من نفس الحياة .

وعفريت المرض الخبيث يرتع في جسدي

يا إلهي أنت أبي الذي أنجيني ،

فإلى متى تتجاهلني تائهاً بلا هداية؟

لقد نطق حكماء الأيام الغابرة بالحق عندما قالوا:

لم يلد لامرأة طفل بلا خطيئة ،

ومنذ القدم لم يوجد على الأرض امرؤ بلا ذنوب .

بعد مقطع كثير التشوه والفجوات ، نجد النص وقد انتقل إلى الحديث عن

استجابة الإله لصلوات المعذب الصالح:

ذلك الرجل ، قد سمع إلهه بكاءه ونحيبه ،

واسترضت شكاوى ذلك الشاب ومناحاته قلب إلهه ،

والكلمات الصافية والصادقة التي نطق بها قبلها منه ،

سَرَّتْ فؤاده فكف عنه يد الشر ،

أبعد عنه عفريت المرض الذي أحاط به ونشر جناحه عليه ،
حوّل عذابات الشاب إلى فرح ،
وأقام عليه أرواح طيبة تحرسه وتحميه ،
فراح الرجل على الدوام يمجّد إلهه⁽¹⁾ .
أيوب البابلي :

يعالج نص أيوب البابلي فكرة المعذب الصابر بطريقة مشابهة ، وهو معروف
بعنوان "لأمتدحن إله الحكمة" ونظراً لطول النص فسوف أقتطف منه أهم
سطوره :

لأمتدحن إله الحكمة ، الرب المتفكر المتدبر .
مردوخ ، إله الحكمة ، المتفكر المتدبر .
الذي يمسك بالليل ويطلق النهار .
الذي يلفه الغضب مثل ريح العاصفة ،
والذي يتسع صدره رحمة ، وقلبه مغفرة .
لقد تخلصني إلهي واختفى
ولقد هجرتني إلهتي وابتعدت عني ،
وغادرني الروح الحارس الذي يرافقني .
كرامتي أهينت ، ونظراتي الرجولية وهنت ،
وعندما أجمع إلى النوم تهاجمني الرؤى المفزعة .
الملك ، شمس الناس وابن الآلهة

(1) S. N. Kramer, Sumerian Wisdom texts. in: J. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Princeton, New Jersey, 1969, p. 589.

ساخط عليّ وقلبه لا يمكن تهدئته نحوي.
رأسي المرفوع الفخور طأطأ نحو الأرض،
وقلبي الجسور قد أوهنه الخوف.
بعد أن كنت سيداً محترماً غدوت عبداً ذليلاً،
وصرت بين صحبي الكثر هزءاً وسخرية.
أصدقائي صاروا غرباء عني،
وصحبي تحولوا إلى أشرار وشياطين،
وفي غضبهم أنكروني وتبرؤوا مني.
لا أحد يقف في صفي ولا أحد يفهمني،
وممتلكاتي جرى توزيعها على الدهماء والأغراب.
في النهار تُسمع أهاتي وفي الليل يُسمع نواحي.
لقد صرت مثل من لم يقدم لإلهه قرباناً،
وصرت مثل من لم يشكر آلهته عند كل طعام،
مثل من لم يعرف الركوع ولم يعرف السجود قط،
ومثل من لم يعرف فمه الضراعة والصلاة،
ومثل من أكل طعامه ولم يذكر اسم إلهه.
مع أنني كنت حريصاً على الصلاة في كل وقت،
وكان يوم الصلاة عندي مسرة للنفوس.
ولكن ما يبدو للإنسان حسناً قد يكون عند إلهه مرذولاً،
وهل يعرف أحد مشيئة الآلهة في السماء؟

ها هي الأمراض الموجهة تسكن جسدي ،
والرياح الشريرة تهب من الآفاق نحوي .
غلب الضعف جسدي وهاجمت الأوجاع مفاصلي ،
اقترب مني الموت وبان على محياي ،
وها جنازتي قد أعدت والقبر يناديني ،
وقبل أن تفارقني الروح توقف البكاء علي .
بعد أن يصل يأس الرجل ذروته ، تأتيه بشائر الخلاص من خلال أحلام
يراها . ثم يتدخل الإله مردوخ ليعيد إليه صحته وممتلكاته وكرامته :
لقد أبعد مردوخ الرياح الشريرة التي تهب من الآفاق ،
واجث جذور الوهن مني مثلما تُجث الشجرة .
وهأنذا أسير في الطرقات حرّاً من كل مرض وألم ،
وكل من ارتكب خطأ في حق مردوخ فليتعلم مني .
لقد أنهضني مردوخ وأخذ بيدي ،
وضرب اليد التي كانت تؤذي .
فمن غير مردوخ يستطيع استعادة المحتضر إلى الحياة ؟
فما دامت الأرض مبسوطة والسماء مرتفعة ،
وما دامت الأنهار تجري والرياح تهب ،
ليمتدحن بنو الإنسان الإله مردوخ⁽¹⁾ .

(1) R. D. Biggs, AKKadian Didactic and Wisdom Literature. In:
James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969. pp.
596-600.

أيوب في التوراة:

تعود قصة المعذب الصابر إلى الظهور في كتاب التوراة، وذلك في سفر خاص بها هو سفر أيوب. والقصة التوراتية تحتوي على عناصر القصة الرافدنية جميعها، ولكن بتوكيد أكثر شدة على دور الإله في بلايا ومصائب ذلك المعذب، واستخدامه الشيطان وسيلة له.

فقد كان أيوب رجلاً حكيماً ومستقيماً يتقي الرب ويحيد عن الشر. وكانت مواشيه سبعة آلاف رأس من الغنم، وثلاثة آلاف جمل، وخمسين فدان بقر، وخمسمئة أتان، وخدمه كثيرون جداً، فكان أعظم بني المشرق (1: 1-3). وفي أحد الأيام جاء بنو الله (=الملائكة) ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان معهم. فسأل الرب الشيطان عما إذا كان ينوي شراً لأيوب، لأنه ليس مثله رجل صالح وكامل. فأجابه الشيطان: "هل مجاناً يتقي أيوب الرب؟ أليس لأنك سيّجت حوله وباركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض؟ ولكن ابسط يدك ومُس كل أملاكه بضرٍ فإنه يجذّف في وجهك". هنا يداخل الشك نفس الرب في أمر أيوب، ويرغب في معرفة خبيثة نفسه ودواعي صلاحه، فيطلق يد الشيطان في أيوب يفعل به ما يشاء شريطة أن يبقيه على قيد الحياة، ليعرف هل سيكفر أيوب إذا زالت عنه النعمة أم لا (1: 6-12).

وهكذا يباشر الشيطان عمله. ففي يوم واحد سُرقت أبقاره وجماله، وقتل اللصوص عبيده جميعاً، وسقطت نار فأحرقت قطعان غنمه، ثم تهدم البيت على أولاده فماتوا جميعاً: "فقام أيوب وجزّ شعر رأسه وخر إلى الأرض وسجد وقال: عرياناً خرجت من بطن أُمِّي وعرياناً أعود إلى هناك. الرب أعطى والرب أخذ. فليكن اسم الرب مباركاً إلى الأبد. وفي كل هذا لم يخطئ أيوب ولم ينسب لله جهالة". (1: 12-22).

بعد ذلك يأتي الشيطان ويمثل أمام الرب ثانية، فيعاتبه الرب على دسيسته لأن أيوب لم يخطئ ولم يُجذّف على الرغم مما حل به من مصائب. فيقترح الشيطان استمرار الاختبار، وأن يطال الأذى هذه المرة أيوب في جسده وصحته.

فأطلق الرب يد الشيطان مرة أخرى في أيوب. فخرج الشيطان وضرب أيوب بقروح خبيثة انتشرت في كل جسده. فأخذ كسرة فخار يحتك بها وهو قاعد وسط رماد بيته المحترق، وقال لزوجته: "هل نقبل الخير من الله والشر لا نقبل؟ وفي كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه" (2: 4-13).

وعندما اشتدت الأوجاع على أيوب، رفع صوته طالباً الرحمة والعدل: "أبحرُ أم تنين حتى جعلت علي حارساً؟ إن قلتُ فراشي يعذبني وينزع كربتي تريعني بأحلام وترهبني برؤى... كُفَّ عني الآن لأن أيامي نفحة. ما هو الإنسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك وتتعهده كل صباح، وفي كل لحظة تمتحنه؟ حتى متى لا تلتفت عني وتريحني ريشاً أبلغ ريقِي؟ هل أخطأتُ؟ ماذا أفعل لك يا رقيب الناس؟ لماذا جعلتني عاثوراً لنفسي حتى أكون على نفسي حِملاً؟" (7: 12-20).

ولكن هذه الشكوى تذهب هباءً لأن الخصم هنا هو نفسه الحكم: "ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثرُ جروحي بلا سبب. لا يدعني آخذ نَفْسي ولكن يشبعني مرائر. إن كان من جهة القوة يقول: هأنذا، وإن كان من جهة القضاء يقول: من يحاكمني؟... أنا مُسْتَدْنَبٌ فلماذا أتعب عبثاً... ليس هو إنسان مثلي فأجابه فنأتي جميعاً إلى المحاكمة، ليس بيننا مُصالح يضع يده على كلينا" (9: 29-33). "أفهمني لماذا تخاصمني؟... يداك كونتاني وصنعتاني كلي جميعاً، أفتبتلني؟... كُفَّ عني قبل أن أذهب ولا أعود، إلى أرض ظلمة وظل موت" (1: 21-21).

ولكن إعلان البراءة من جانب أيوب وثباته على تأكيد حقه لا يجدي، وبدلاً من أن يجيبَ الربُ أيوبَ عن تساؤلاته المشروعة، فإنه يعمد إلى تذكيره بقوته وجبروته: "من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة؟ اشدّد حقوك الآن كرجل، فإني أسألك فتخبرني: أين كنتَ حين أسستُ الأرض؟ أخبرني إن كان عندك فهمٌ، من وضع قياسها أو مد عليها ميطماراً؟ على أي شيء قرّرت قواعدها؟ أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنّمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله؟" (38: 1-6).

عند ذلك يفهم أيوب أن ربه لا يحتاج إلى التذكير بقواعد العدالة كما يفهمها البشر، وإنما يطلب الخضوع والتسليم سواء أ جاءت مشيئته بالخير أم بالشر. لذلك أجابه قائلاً: "قد علمتُ أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر... قد نطقْتُ بما لم أفهم، بعجائب فوقِي لم أعرفها... بسمع الأذن قد سمعت عنك، والآن رأْتُك عيني. لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد" (24: 1-5).

أمام هذا الخضوع المطلق والتسليم بقوة الرب وعظمته، يهدأ غضب الرب. وتنتهي القصة بأن يعيد الرب إلى أيوب صحته ويعوض له كل ما فقد من ممتلكاته، ويعزيه عن بنيه الذين فقدهم بنسل جديد: "وزاد الرب على كل ما كان لأيوب ضعفاً، فجاء إليه كل إخوته وكل معارفه، وأكلوا خبزاً في بيته ورتُّوا له وعزوه عن الشر الذي جلبه الرب عليه. وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه، وكان له أربعة عشر ألفاً من الغنم، وستة آلاف من الإبل، وألف فدان من البقر، وألف أتان. وكان له سبعة بنين وثلاث بنات... وعاش أيوب بعد ذلك مئة وأربعين سنة" (42: 1-17).

وعلى ما تفيدنا الرواية التوراتية فقد كان لأيوب قبل مصيئته سبعة بنين وثلاث بنات (أيوب 1: 2). وعندما كشف ربه عنه الضر وهبه أيضاً سبعة بنين وثلاث بنات (أيوب 42: 13).

أيوب في القرآن:

يرد اسم أيوب في سورة الأنعام على أنه واحد من أنبياء الله الصالحين: ﴿...وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (6 الأنعام: 84).

أما قصة ابتلائه فتُرد في موضعين فقط وباختصار شديد، وذلك في سورة الأنبياء وسورة ص:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِمَنْحَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ * ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ * (21 الأنبياء: 83-84).

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * اذْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَلِذِكْرَىٰ لِلْأُولَىٰ الْأَلْبَابِ * ... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (38 ص : 41-44).

فبلايا أيوب في القصة القرآنية تأتي من الشيطان كما هو الحال في الرواية التوراتية، ولكن دون التعرض لدور الرب فيها. فقد أصابه الشيطان بنصب، أي بتعب ومرض في جسده، وبعذاب في روحه. كما نفهم من السياق أنه أصيب بموت أولاده أيضاً. وبعد زمن من المعاناة يدلّه ربه على نبع ماء ليغتسل به فيزول مرضه الجسدي، ثم يشرب منه فتزول عذاباته الروحية. وبعد ذلك أحيا الله أولاده الذين ماتوا، ووهبه مثلهم في العدد.

وتنتهي القصة القرآنية بالشاء على صبر أيوب وثقته بربه.

10- النبي إلياس

بعد وفاة سليمان عصت الأسباط العشرة التي تسكن المناطق الشمالية على ابنه رحبعام وبايعت بالملك عامله السابق على هذه المناطق المدعو يربعام، ولم يبق لابن سليمان إلا سبطي بنيامين ويهوذا. وبذلك انقسمت المملكة إلى مملكتين: واحدة شمالية عاصمتها ترصة دعت بمملكة إسرائيل (أو السامرة فيما بعد)، وأخرى جنوبية دعت بمملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. ومن المفترض أن هذه الأحداث قد جرت في السنة الأولى بعد وفاة سليمان، أي عام 931 ق.م. بعد أن تتابع على حكم المملكة الشمالية بعد يربعام ثلاثة ملوك، آلت السلطة فيها إلى القائد العسكري المدعو عُمرى، وذلك نحو عام 885 ق.م. وعُمرى هذا هو أول ملك إسرائيلي موثق تاريخياً، ومعه تبدأ أخبار مملكة إسرائيل بالتقاطع مع وثائق الشرق القديم. أما يهوذا فلم يرد ذكرها خارج التوراة إلا بعد مئة وخمسين سنة من ذلك التاريخ، نحو عام 732 ق.م. بنى عُمرى مدينة جديدة أسماها السامرة وجعلها عاصمة له. وقد كشف علماء الآثار المحدثون عن هذه المدينة تحت تل لا يبعد كثيراً عن مدينة نابلس الحالية، وأزاحوا التراب عن قصورها الملكية وأبنيتها الإدارية، التي تستلهم نمط العمارة الفينيقي الذي كان سائداً في ذلك الحين.

ومن الشواهد النصية على قيام أسرة عُمرى في السامرة، لدينا نقش على جانب كبير من الأهمية عُثر عليه بموقع ديبان المؤابية في شرقي الأردن، مكتوب بالقلم الآرامي - الفينيقي وبلهجة كنعانية قريبة من لهجة إسرائيل ويهوذا التي تدعى اليوم بالعبرية. يقول النص في سطره الأول: "أنا ميشع ملك مؤاب من ديبان. أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة، وأنا ملكت بعد أبي وبنيت هذا المقام للإله كموش، لأنه أعانني على كل الملوك ونصرني على أعدائي. أما عُمرى

ملك إسرائيل فإنه أذل مؤاب أياماً كثيرة، ثم خلفه ابنه وقال: سأذل مؤاب في أيامي. ولكن كموش جعلني أراه مهزوماً أمامي... إلخ" (1).

وابن عمري المشار إليه في نقش ميشع، هو الملك آخاب الذي حكم إسرائيل بعد أبيه مدة اثنين وعشرين عاماً. وهو موثق تاريخياً في نصر لشلمنصر الثالث ملك آشور، يصف فيه حملته على بلاد الشام عام 854 ق.م، ومواجهته في موقع قرقرة على نهر العاصي لحلف عسكري سوري بقيادة هدد عدر ملك دمشق. والنص يذكر الملك آخاب في معرض تعداده لأسماء ممالك الحلف الاثنتي عشرة: "هب إلى ساح المعركة هدد عدر ملك أمريشو (= دمشق) ومعه 1200 عربية و 1200 فارس و 20.000 جندي، وإرخوليني ملك حماه ومعه 700 عربية و 700 فارس و 10.000 جندي، وآخاب الإسرائيلي ومعه 2000 عربية و 10.000 جندي... إلخ" (2).

في عصر آخاب هذا نشط النبي إيليا، أو إلياس وفق اللفظ السرياني. وكانت أعلى كرامة أعطاهها الله لهذا النبي هي التحكم بالمطر ينزله بدعائه ويمنعه بدعائه. وكان الملك آخاب قد تزوج الأميرة الفينيقية إيزابيل ابنة ملك صيدون، فجاءت معها بعبادة الإله بعل وعبادة الإلهة عشيبة، فانساق آخاب لرغباتها وعبد بعل وأقام له معبداً في عاصمة السامرة، وعمل مقامات دينية على المرتفعات له وللإلهة عشيبة، ومارس عبادات وطقوس الخصب، وعمل كل ما من شأنه إغاضة الرب إله إسرائيل (الملوك الأول: 16).

وكانت كلمة الرب قد جاءت إلى إيليا وهو في موطنه بجلعاد شرقي الأردن، لكي يمضي ويبشر في مملكة السامرة. فدخل على الملك آخاب وانتقد سلوكه وأخبره بأنه سيمنع المطر عن أرض إسرائيل عقاباً لها على خطاياها وخطايا آخاب، وقال: "حي هو الرب إله إسرائيل الذي وقفتُ أمامه. إنه لا يكون

(1) انظر النص الكامل للنقش في كتابي: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص 306-308.

(2) راجع النص الموسع في كتابي: آرام دمشق وإسرائيل، ص 208-209.

طل ولا مطر في هذه السنين إلا عند قولي". ثم خرج من عنده وتواری. فقال له الرب: "انطلق من هنا واختبئ عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن، فتشرب من ماء النهر؛ وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك" فذهب وأقام هناك فكانت الغربان تأتي له بالطعام.

ولما جف النهر لأنه لم يكن مطر في الأرض، أمره الرب أن يذهب إلى نواحي مدينة صيدون إلى بلدة صرفة، وهناك سوف تعوله أرملة أُوحي إليها بخدمته. فذهب وأقام عند الأرملة، فكانت أوعية الدقيق والزيت خاوية لدى قدومه، فامتلأت وصارت تمتلئ من تلقاء ذاتها كلما فرغت. وبعد مدة مرض طفل الأرملة الوحيد ومات، فأخذ إيليا الصبي ومدده على سريره ثم صرخ إلى الرب وقال: "يا رب لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه" فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش (الملوك الأول: 17).

ونحو نهاية السنة الثالثة للجفاف، خرج إيليا وفق تعليمات الرب وجاء فدخل على الملك آخاب وقال له أن يأتي بأنبياء البعل الأربعمئة والخمسين إلى جبل الكرمل ويجمع الشعب هناك، ليثبت لهم بأن البعل إله زائف وأن الإله الحق هو الرب إله إسرائيل. وعندما جاء الأنبياء واجتمع الشعب قال لهم إيليا: "إلى متى تعرجون بين الفرقتين؟ إذا كان إله إسرائيل هو الله فاتبعوه، وإذا كان بعل فاتبعوه. أنا بقيت نبياً للرب وحدي وأنبياء البعل أربعمئة وخمسون. فليعطونا ثورين ويختاروا لأنفسهم واحداً ويعطونني الآخر، وليقطع كل منا ثوره ويضعه فوق المحرقة ولا يشعل ناراً. ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب، والإله الذي يجيب بنار تأكل الذبيحة فهو الله". فأخذوا الثور الذي أعطي لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهيرة قائلين: يا بعل أجبنا. فلم يكن من صوت ولا مجيب. ثم تقدم إيليا وصلى إلى الرب فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب. عند ذلك أمر إيليا الشعب أن يمسكوا بأنبياء البعل، فجاء إليهم وذبحهم جميعاً. ثم التفت إلى الملك آخاب وقال له: اذهب إلى بيتك وكل واشرب لأن هطول المطر قريب. ثم صعد إلى ذروة الجبل وخر إلى الأرض وجعل رأسه بين ركبتيه، وما لبث السماء أن اسودّت من الغيم والريح وكان مطر

عظيم. وعندما سمعت إيزابيل بما جرى لأنبياء البعل، طلبت قتل إيليا، فهرب واختبأ في بركة بئر السبع (الملوك الأول: 18).

توفي الملك آخاب وخلفه ابنه الأكبر أخزيا. وفي نهاية السنة الثانية من حكمه أصيب بمرض أفعده، فأرسل رسلاً إلى معبد بعل في مدينة عقرون الفلسطينية ليستخير نبوءته بخصوص مرضه. فقال الرب لإيليا: قم اصعد إلى رسل ملك السامرة الذاهبين إلى عقرون وقل لهم: ألا يوجد في إسرائيل إله لتذهبوا إليه حتى ذهبتهم تسألون بعل عقرون؟ إن السرير الذي صعد عليه أخزيا لا ينزل عنه لأنه موتاً يموت. وعندما عاد الرسل بعد أن لقاهم إيليا وتحدث معهم وهم لا يعرفونه، سألهم الملك: ما هيئة الرجل الذي كلمكم بهذا الكلام؟ فقالوا: إنه رجل أشعر مُنطق بمنطقة من جلد على حقويه. فقال: هو إيليا النبي. فأرسل إليه رئيس خمسين مع جنود ليأتي به إليه، وإذا هو جالس على رأس جبل. فقال له: يا رجل الله. الملك يقول: انزل. فأجابه إيليا: إذا كنتُ أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والذين معك. فنزلت نار من السماء وأكلته هو والذين معه. ثم عاد الملك فأرسل رئيس خمسين آخر، فحصل لهم الشيء نفسه. وعندما أرسل إليه الملك رئيس خمسين ثالثاً، صعد إليه وجثا على ركبتيه وتضرع إليه ألا يفعل به كما فعل بالآخرين. فقال الرب لإيليا: انزل معه ولا تخف. فقام ونزل معه ودخل على أخزيا وقال له: من أجل أنك أرسلت رسلاً لتسأل بعل زبوب إله عقرون، فالسرير الذي صعدت عليه لا تنزل منه بل موتاً تموت. فمات أخزيا حسب كلام الرب وملك يهورام أخوه عوضاً عنه (الملوك الثاني: 1).

في نهاية حياته التبشيرية، قال إيليا لتلميذه أليشع الذي كان يرافقه: أمكث هنا لأن الرب أرسلني إلى نهر الأردن. فقال أليشع: حي هو الرب وحيّة هي نفسك، إني لا أتركك أبداً. فانطلقا معاً، وعندما وصلا ضفة النهر أخذ إيليا رداءه ولفه وضرب به الماء فانفلق إلى هنا وهناك وعبرا على اليبس. ولما عبرا قال إيليا لأليشع: ماذا أفعل لك قبل أن أؤخذ منك؟ فقال أليشع: ليكون نصيب اثنين من روحك علي. فقال: إن رأييني أؤخذ منك يكون لك كذلك. وفيما هما

يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء. وكان أليشع يرى وهو يصرخ: يا أبي، يا أبي، ولم يره بعد ذلك. (الملوك الثاني: 2).

وقد وردت آخر إشارة إلى إيليا في سفر ملاخي، وفحواها أن الله سوف يرسل من السماء النبي إيليا كعلامة من علامات اليوم الأخير: "هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف، فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم". (ملاخي 4: 5). من هنا فقد طابق مؤلفو الأناجيل بين إيليا ويوحنا المعمدان الذي ظهر للتبشير بظهور المسيح. ففي روايته لظهور الملاك وبشارته لزكريا بولادة ابنه يوحنا، استخدم لوقا الآية نفسها من سفر ملاخي، حيث قال الملاك لزكريا: "طَلَبْتُكَ قَدْ سُمِعْتُ، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا، ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيماً أمام الرب، وخمراً ومسكرأ لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس، ويردّ كثيراً من بني إسرائيل إلى إلههم، ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار. لكي يهيئ للرب شعباً مستعداً" (لوقا 1: 13-17). والمقصود هنا أن روح إيليا سوف تحل في يوحنا المعمدان كعلامة من علامات قدوم ملكوت السماوات. وبهذا المعنى قال يسوع نفسه عن يوحنا: "فإن هذا هو الذي كُتِبَ عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ الطريق قدامك". (متى 11: 10).

في القرآن الكريم:

لا يرد في القرآن الكريم من سيرة إيليا الطويلة التي أوردنا أهم مفاصلها أعلاه، ومن أعماله ومعجزاته، سوى صراعه مع العبادات البعلية التي كانت سائدة يومها في إسرائيل. وفي هذا السياق يذكر القرآن اسم الإله بعل، وهو الإله الوحيد الذي يرد ذكره في الكتاب من غير آلهة الجزيرة العربية، مثل ود وسواع ويغوث ونسر واللات والعزى ومناة. نقرأ في سورة الصافات عن تنديد إيليا، أو إلياس كما يدعوه القرآن، بقومه لانصرافهم عن عبادة الله إلى عبادة البعل ما يأتي:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ *﴾
(3 الصفات : 123-132).

وقد عرف عرب الجاهلية شكلاً من أشكال البعل متمثلاً في الإله "هبل" الذي جيء بصنمه من بلاد الشام ونصب في الكعبة، على ما يورد المؤلف العربي ابن الكلبي في كتابه "الأصنام" ووجه الصلة بين الإلهين هو أن الاسم هبل في بعض اللهجات الشامية في بلاد الشام مؤلف من سابقة التعريف "هـ" التي تقوم مقام ال التعريف في اللغة العربية، ومن "بل" الذي هو بعل على ما يلفظه التدمريون وأقوام شامية أخرى. وبما أن "بل" أو "بعل" هو لقب للإله هدد يعني في اللهجات الكنعانية "السيد" أو "الرب"، فإن من جاء بالصنم من بلاد الشام لم يكن يقصد إلى جلب عبادة جديدة وإله جديد إلى مكة، وإنما إلى جلب صورة لإله الكعبة تحت لقب هبل/هبلع، أي الرب⁽²⁾.

استطرد

إيليا في التقوى الشعبية:

من عجيب المفارقات أن النبي إيليا الذي قضى حياته في صراع مع العبادات البعلية، قد تحول هو نفسه إلى شخصية بعليه في التقوى المسيحية الشعبية، يؤدي دور إله الخصب السوري القديم بعل لدى الشرائع الفلاحية في بلاد الشام وبعض الأقطار المتوسطية الأخرى. فهذه الشرائع التي تتحولها إلى المسيحية في القرون الميلادية الأولى، قد فقدت شفيعتها الزراعي الذي يهبها المطر وخصب الأرض والماشية، وجدت في شخصية إلياس الذي صعد من عالم البشر إلى

(1) إيل ياسين: صيغة أخرى للاسم إلياس.

(2) من أجل تفصيلات أوفى عن هذا الموضوع، راجع بحثي المنشور في الجزء الثاني من موسوعة تاريخ الأديان التي تصدرها دار علاء الدين بدمشق، تحت عنوان ديانة العرب قبل الإسلام

العالم القدسي، بديلاً عن الإله بعل وأقرانه من الآلهة المتحكمة بمظاهر الطبيعة، ودعته بمار إلياس، أي القديس إلياس.

وقد رأت التقوى الشعبية عدداً من نقاط التشابه بين الإله بعل ومار إلياس. فالإله بعل كان متحكماً بالمياه بعد إخضاعه لإله البحر والأنهار المدعو بالكنعانية "يم"، وكذلك إلياس الذي تظهر سلطته على المياه من خلال فلقه لمياه نهر الأردن. وبعل كان متحكماً بالمطر يرسله حين يشاء ويمنعه حين يشاء، وكذلك إلياس الذي كان بدعائه يرسل المطر أو يمنعه. ومسكن بعل كان في أعالي جبل صفون أو الأقرع كما يدعى اليوم، وكانت مقاماته الدينية تنوضع على الجبال وقمم المرتفعات؛ وكذلك إلياس الذي كان مكانه المفضل جبل الكرمل وعليه ذبح أنبياء البعل، والذي كان يلجأ إلى أماكن آمنة في أعالي الجبال، وقد كلمه الرب وهو على جبل حوريب في سيناء مثلما كلم موسى من قبل. وبعل كان يُسمع صوته للأنعام هادراً من خلال الرعد، ويلوح بسلاحه الذي هو البرق، ويضرب خصومه بحربته التي هي الصاعقة؛ وكذلك مار إلياس الذي كان يستجلب ناراً من السماء، هي الصاعقة ولا شك، لتدمير خصومه، ومركبته النارية التي تجرها خيول من نار، هي التي تُحدث الرعد والبرق لدى احتكاك حوافر جيادها بصخور أعالي الجبال.

ومقامات مار إلياس منتشرة اليوم على طول السلسلة الجبلية الساحلية السورية، وفي بعض المناطق الجبلية الداخلية. ونموذجها مقام مار إلياس الحي بمعرة صيدنايا، الذي يشرف من موقع شاهق على سهل دمشق، ودير مار إلياس في شوبا بجبل لبنان، ومقام مار إلياس على جبل الكرمل، وهو المعروف حتى الآن شعبياً باسم جبل مار إلياس.

بهذه الطريقة حافظت التقوى الشعبية على شفيعتها الزراعي القديم، والشخصية الماورائية الأقرب إلى همومها المعاشية. وعندما تحول معظم سكان سورية المسيحيين إلى الإسلام، حملت الشرائح الفلاحية معها شفيعتها الزراعي وألبسته لبوساً إسلامياً تحت اسم الخَضِر، على وزن نُضِير، ويعني الأخضر وسيد 'الخضرة' الزراعية. وقد جرت المطابقة بين هذه الشخصية وشخصية العبد الصالح

الذي رافق موسى في رحلته إلى مجمع البحرين، وفاقه علماً ومعرفة (سورة الكهف: 60-82) على الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر اسم ذلك العبد الصالح.

ولكي يمنح الخيال الشعبي لهذا الولي الإسلامي نعمة الخلود التي تمتع بها إلياس، فقد دَبَّج المؤلفون الإسلاميون قصة مفادها أن الخضر قد رافق الملك الجبار ذو القرنين في رحلته للبحث عن نبع الحياة الذي يهب الخلود لمن يشرب منه. وقد جعل ذو القرنين الخضر على رأس جنوده، وسار حتى وصل مغرب الشمس فسأل عن النبع ف قيل له إنه وراء أرض الظلمة، فاختر من عسكره ستة آلاف ودخل أرض الظلمة. وبعد مسيرة يوم وليلة أصاب الخضر نبع الحياة فشرب منه، وأخطأه ذو القرنين.

وتظهر في القصص الشعبي الإسلامي، مثل ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة، الخصائص الإخصابية للخضر. فهو الذي يكلل الأشجار بالخضرة، وينشر عباؤه الخضراء بساط عشب على السهول والتلال، وخلال ظهوراته يُشاهد جالساً على طنفسة خضراء. والفلاحون في فلسطين كانوا حتى وقت قريب يستنزلون المطر بالدعاء إلى الخضر ويدعونه بالاسم التبادلي مار إلياس، عندما ينشدون: "يا سيدي خضر الأخضر اسقي زرعنا الأخضر، يا سيدي مار إلياس اسقي الزرع الياس". وكان يهود فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني يدعون إيليا باسم الخضر. وفي تركيا العثمانية كان الاسم الشائع للخضر هو خضرلياس، الذي يجمع بين اسم الخضر واسم إلياس.

أثناء عصر الحروب الصليبية والتبادل الثقافي الذي حصل بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، ظهرت إلى الوجود شخصية بعلية جديدة تجمع الخضر ومار إلياس إلى نموذج فرنسي هو القديس جاورجيوس، أو مار جرجس كما يدعى في بلاد الشام. وقد نُسجت لهذا القديس سيرة حياة تقول بأنه كان بطلاً من أبطال الإيمان المسيحي، عاش في مدينة اللد بفلسطين في القرن الثالث الميلادي، وأنه أنقذ ابنة الملك التي اعتنقت المسيحية من تنين هائل صرعه بحربته. وبهذه

الطريقة تم ابتعاث الأسطورة السورية القديمة عن صراع بعل مع التنين لوتان وقلته، وتم الجمع أيضاً بين القديسين الزراعيين الثلاثة، وراح المزارعون السوريون يقصدون المقامات المكرسة لهذه الشخصيات الثلاثة على أنها شخصية واحدة. والاسم جاورجيوس في اليونانية يعني الفلاح. وهو يدعى في الأقطار الأوربية بجورج الأخضر، وذلك كناية عن علاقته بالزراعة. والفلاحون الأوربيون يحتفلون بعيدة في 23 نيسان باعتباره احتفالاً بقدم الربيع.

وبعد ظهور شخصية القديس المحارب مار جرجس، عادت شخصية الأخضر لتكتسب منه خصائصه القتالية مثلما اكتسب منها ومن إلياس الخصائص الزراعية. والفولكلور الشعبي طافح بروايات عن قوة الأخضر الخارقة. فالمزارعون في بعض أنحاء سورية يدعونه بأبي حربة، والمرويات عن قوة ذراعه تزخر بالإشارة إلى صخور ضخمة رماها من مسافات شاسعة. إحدى هذه الصخور وهي أسطوانية الشكل منزرعة على الشاطئ قرب مدينة طرطوس، تقوم النسوة العاقرات بزيارتها والتضرع إلى الولي من أجل الإنجاب. وفي بيت جالا قرب القدس، هنالك صخرة عليها ما يشبه أثر القدم يقال أن الأخضر قفز من فوقها، ويزورها الناس هناك لطلب الشفاء⁽¹⁾.

(1) للتوسع في موضع القديسين الزراعيين الثلاثة انظر:

- الدكتور حسني حداد: أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية، ترجمة أحمد الهندي، مراجعة وتقديم فراس السواح، دار الكندي، سورية 1989.
- الدكتور حسني حداد، وسليم مجاعص: بعل هداد، دار أمواج، بيروت 1993.

١١- النبي أليشع

لا يرد ذكر اليسع ، أو أليشع كما يدعى في التوراة ، إلا مرتين في القرآن باعتباراه من أنبياء الله الصالحين ، ومن دون إعطاء أي تفاصيل عن سيرته وقومه وأعماله :

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾ (6 الأنعام : 85-86).

﴿وَإِذْ كُنَّا إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ (38 ص : 48).

ولإلقاء مزيد من الضوء على هذه الشخصية النبوية التوراتية ، سنقدم فيما يأتي نبذة مختصرة عن سيرته اعتماداً على سفر الملوك الثاني ، الإصحاحات من 2 إلى 10 .

بعد أن غادر النبي إيليا الأرض وصعد في عربة نارية إلى السماء ، أمسك تلميذه أليشع برداء إيليا الذي سقط عنه ، ورجع ووقف على شاطئ الأردن وقال : أين هو الرب إله إيليا . ثم ضرب الماء بالرداء فانفلق وسار على اليابس . فقال من رآه من الناس : قد استقرت روح إيليا على أليشع .

تابع أليشع مهمة إيليا في التبشير في المملكة الشمالية . وكانت أولى معجزاته في مدينة أريحا التي عبر إليها بعد أن فلق الماء . فقد جاء إليه رجال المدينة وقالوا له إن نبع الماء الذي يشربون منه قد صار رديئاً وغير صالح للشرب . فجاء أليشع إلى النبع وطرح فيه بعض الملح ، فصار ماءً صالحاً لا شائبة فيه . ثم خرج من هناك إلى جبل الكرمل حيث أقام مدة يتعبد ، عاد بعدها إلى مدينة السامرة . فجاءت إليه امرأة أرملة كانت زوجة لرجل صالح ، وقالت له إن المرابي يطالبها بدين على زوجها ويهددها بأخذ ولديها عبيدين له إذا امتنعت عن تسديد الدين .

فقال لها أليشع: ماذا يوجد في بيتك؟ فقالت: ليس عندي إلا بقية من زيت لا تسمن ولا تغني من جوع. فقال لها أليشع أن تجهز أوعية فارغة وتصب فيها من الإناء الذي يحتوي على بقية الزيت، فإذا امتلأت عليها أن تستعير من جيرانها أوعية أخرى وتملأها أيضاً. ففعلت ذلك وباعت الزيت وسددت الدين وعاشت بالباقي.

وعلى الرغم من الود المفقود بين أليشع وأسرة الملك آخاب، إلا أنه أنقذ ابن آخاب الذي ورثه على العرش يهورام من الهلاك عطشاً هو وجيشه. وتفصيل القصة أن يهورام ملك إسرائيل ويهوشافاط ملك يهوذا اتفقا على السير معاً لمحاربة ملك مؤاب، ثم عقدا حلفاً مع ملك آدوم في الجنوب، وتوجهت جيوشهما معاً لاصطحابه معهما. وعندما تقدمت الجيوش الثلاثة في بركة آدوم نفذت لديهم مؤونة الماء، فداروا سبعة أيام ولم يجدوا ماءً للجيش والبهائم. فقال يهوشافاط ملك يهوذا: أليس هنا نبي للرب فنسأل الرب به؟ فأجاب واحد من ضباط يهورام ملك إسرائيل وقال: هنا أليشع الذي كان يخدم إيليا. فجاؤوا به. فقال أليشع ليهورام: مالي ولك، اذهب إلى أنبياء أمك وأبيك (أي أنبياء البعل وعشيرة). فقال له يهورام: كلا لا أذهب لأنني رأيت أن الرب قد دعا هؤلاء الملوك الثلاثة ليهلكهم على يد ملك مؤاب. فقال له أليشع: لولا أنني أريد أن أرفع وجه يهوشافاط ملك يهوذا ما كنت أنظر إليك. لا ترون ريحاً ولا مطراً ولكن هذا الوادي يمتلئ ماء فتشربون. وفي الصباح ذبح وأوقد وأصعد محرقة، وإذا مياه آتية عن طريق آدوم وامتلأت الأرض ماء.

وكانت امرأة من بلدة شونم تستضيف أليشع كلما عبر إلى البلدة، فقالت لزوجها أن يبني له غرفة على السطح ليضطجع فيها كلما مرّ بهم. وفي أحد الأيام جاء واضطجع في الغرفة وقال لغلامه أن يدعو المرأة إليه. فسألها ماذا يستطيع أن يفعل من أجلها لقاء معروفها. فقالت له إن ما ينغص حياتها هو عدم إنجاب طفل لزوجها. فقال لها إنه في مثل هذا الوقت من العام القادم يكون لها ولد. فحبلت المرأة ووضعت صبياً بعد تسعة أشهر. وفي ذات يوم خرج الولد مع أبيه إلى الحصاد، فأصابه وجع في الرأس، فعاد إلى البيت وجلس على ركبتَي أمه إلى

الظهر ومات. فصعدت إلى غرفة أليشع وأضجعت الولد على سرير أليشع، ثم انطلقت على أتان إلى رجل الله في جبل الكرمل. عندما علم أليشع بالأمر نزل وانطلق معها، فدخل الغرفة وتمدد فوق الغلام فسخن جسده، وما لبث أن عطس سبع عطسات وفتح عينيه.

وأصاب البرص نعمان قائد جيش ملك دمشق، وكان ذا حظوة لدى الملك. فسمع بوجود نبي في السامرة مستجاب عند الرب، فأرسل كتاباً بيد نعمان إلى ملك السامرة يقول فيه: قد أرسلت إليك نعمان عبدي فاشفه من برصه عند وصول هذا الكتاب. فلما قرأ ملك إسرائيل الكتاب، اعتقد أن ملك دمشق يحاول خلق مسوغات لغزو عاصمته السامرة. فمزق ثيابه وقال: هل أنا إله لك أي أحيي وأميت؟ فلما سمع أليشع بأن ملك إسرائيل قد مزق ثيابه أرسل إلى الملك يقول: لماذا مزقت ثيابك؟ ليأت نعمان إلي فليعلم أنه يوجد نبي في إسرائيل. فجاء نعمان بخيله ومركباته ووقف عند باب أليشع. فأرسل أليشع إليه من يقول له: اذهب واغتسل سبع مرات في نهر الأردن فيرجع إليك لحملك وتطهر. فغضب نعمان وقال: أليس نهراً دمشق إبانته وفرفر أحسن من جميع مياه إسرائيل؟ أما كنت أغتسل بهما فأطهر؟ ولما ألح عليه مرافقوه أذعن وغطس في مياه الأردن سبع مرات فشفي. ورجع إلى أليشع وقال له: الآن عرفت أنه لا يوجد إله إلا في إسرائيل.

وكان بعد مدة أن الصراع قد احتدم بين دمشق والسامرة. ووصلت جيوش آرام إلى السامرة وحاصرتها. وعندما طال الحصار عمت المجاعة في المدينة وفقد القمح والشعير. فاعتقد ملك إسرائيل أن أليشع هو المسؤول عن ذلك بلعناته التي يستنزلها على إسرائيل، فأقسم أن يقطع رأسه، وأرسل إليه ضابطاً وثلة من الجنود لتأتي به. فقال لهم أليشع غداً يكون الدقيق متوفراً حتى تصبح كيلته بشاقل واحد وكيلتا الشعير بشاقل في باب السامرة. فقال له أحد الجنود ساخراً: وهل يصنع الرب كوى في السماء يُنزل منها القمح والشعير. وكان في المساء أن الرب أسمع جيش دمشق صوت مركبات وخيل لجيش عظيم، فظنوا أن نجدة جاءت من مصر لمساعدة ملك إسرائيل، فقاموا على

عجل وهربوا تاركين وراءهم خيامهم ومقتنياتهم. وفي الصباح خرج الإسرائيليون ونهبوا معسكر الآراميين، وصارت كيلة الدقيق بشاقل وكيلتا الشعير بشاقل حسب قول الرب.

بقي على أليشع أن يحقق رغبة الرب في إبادة بيت آخاب من أجل عبادتهم لبعل وعشيرة. وكانت قوات يهورام الابن الثاني لآخاب تحارب قوات حزائيل ملك دمشق في شرقي الأردن، عندما أصيب بجرح بليغ وانسحب إلى وادي يزرعيل (= مرج ابن عامر) في الداخل ليبراً من جراحه، وترك جيشه تحت إمرة قائده ياهو، فأرسل أليشع أحد تلاميذه إلى مقر قيادة ياهو ليمسحه ملكاً. فمضى الرسول ودخل على ياهو وهو بين ثلة من ضباطه، فاختم به في داخل خبائه وأخرج قنينة الزيت وصب منها على رأسه وقال: هكذا قال الرب إله إسرائيل، قد مسحك ملكاً على شعب الرب فتضرب بيت آخاب سيدك وانتقم لدماء جميع عبيد الرب من إيزابيل، فتأكلها الكلاب وليس من يدفنها.

وعندما خرج ياهو على ضباطه وأخبرهم بما جرى في الداخل، هتفوا له وضربوا بالبوق وقالوا: قد ملك ياهو. أما هو فقد انطلق بثلة من جنوده إلى وادي يزرعيل. وعندما قارب على الوصول إلى مقر يهورام عرفه المراقبون على البرج وأخبروا سيدهم. فتطير يهورام من هذه الزيارة وتوقع شراً، فخرج إليه بمركبته. وعندما التقيا صاح يهورام: أسلام يا ياهو؟ فقال له: أي سلام وزنا أملك إيزابيل وسحرها دائم. فلوى يهورام أعنة أخصته وهرب وهو يصيح: خيانة، خيانة. فعاجله ياهو بسهم اخترق قلبه. وقبل دخوله إلى السامرة دبر قتل أبناء آخاب السبعين، وجيء إليه برؤوسهم في سلال إلى وادي يزرعيل.

وفي السامرة جمع ياهو كل الشعب وقال لهم: إن آخاب قد عبد البعل قليلاً، أما أنا فأعبده كثيراً. ادعوا لي جميع أنبياء البعل وكل عابديه وكل كهنته، لأن لي ذبيحة عظيمة للبعل. فأتى الجميع واجتمعوا في معبد البعل، فدخل ياهو مع جنوده وأبادهم جميعاً (الملوك الثاني: 2-10).

12- يونس / يونان

ترد قصة يونس، أو يونان كما يدعى في التوراة، موزعة في القرآن الكريم على المواضع الآتية:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ *﴾ (68 القلم: 48-49).

﴿لَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ *﴾ (10 يونس: 98).

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ *﴾ (21 الأنبياء: 87-88).

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِثْرَةِ الْأَلْفِ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ *﴾ (37 الصافات: 139-148).

وبإعادة ترتيب الأحداث المبعثرة في هذه المواضع الأربعة ووضعها في تابع زمني، يمكن أن نسرد القصة مجدداً وفق ما يلي:

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾. ("وذا النون" هنا تعني "صاحب الحوت" أي يونس نفسه).

- ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾. (أي هرب وركب في سفينة مثقلة بالبضائع والركاب).

- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾. (أي فشارك في القرعة ولكنه خسر).

- ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. (أي ابتلعه الحوت بعد أن فعل ما يُلام عليه).

- ﴿....فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

- ﴿فَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *﴾.

- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ....﴾.

- ﴿فَبَيَّنَّا لَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾. (أي فقدفه الحوت من بطنه إلى اليابسة وهو

متعب ومعلول).

- ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾.

- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةٍ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

- ﴿فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

إلا أن القصة تبقى مع ذلك مليئة بالغوامض. والأسئلة الآتية تبقى مفتوحة:

1- لماذا ذهب يونس مُغاضباً، ومن الذي غاضبه؟ وكيف أمن أن الرب لن يقدر عليه؟

2- لماذا لجأ إلى تلك السفينة المشحونة والمثقلة بالبضائع والركاب؟ وما هي وجهته؟

3- ما هو موضوع القرعة التي ساهم بها وخسر؟

4- كيف وجد نفسه في الماء فالتقمه الحوت؟

5- ما قصة شجرة اليقطين التي أنبتها الله عليه فظلمته؟

6- من هم أولئك القوم الذين آمنوا برسالة يونس، والذين يزيد تعدادهم عن مئة الألف؟

هذه التساؤلات تجيب عنها الرواية التوراتية للقصة التي يبسطها سفر يونان القصير. فقد اختار الرب يونان للتبشير في مدينة نينوى الآشورية، وتحذير أهلها الذين كثر شرهم من غضب الرب. ولكن يونان حاول التملص من هذا الواجب، وظن أن الرب لن يطاله إذا سافر إلى مكان بعيد. وهذا هو النص الكامل تقريباً للسفر وفق الترجمة الكاثوليكية للعهد القديم:

"كانت كلمة الرب إلى يونان بن أمتاي قائلاً: قم انطلق إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ عليها فإن شرها قد كثر أمامي. فقام يونان ليهرب إلى ترشيش (=أسبانيا) من وجه الرب، ونزل إلى يافا فوجد سفينة سائرة إلى ترشيش، فأدى أجرة لها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب. فألقى الرب ريحاً عظيمة في البحر فأشرفت السفينة على الانكسار، فخاف الملاحون وصرخوا كل إلى إلهه، وألقوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم. أما يونان فنزل إلى جوف السفينة واضطجع واستغرق في النوم. فدنا منه رئيس النوتية وقال له: ما بك مستغرقاً في النوم؟ قم فادع إلهك لعل الله يفكر بنا فلا نهلك. وقال كلٌ لصاحبه: هلموا نُلْقِ قُرْعاً لنعلم بسبب من أصابنا هذا الشر. فألقوا قُرْعاً فوقعت القرعة على يونان، فقالوا له: أخبرنا بسبب من أصابنا هذا الشر؟ ما عملك، ومن أين جئت، وما أرضك، ومن أي شعب أنت؟ فقال لهم: أنا عبراني، وإني أتقي الرب إله السماوات الذي صنع البحر واليابس. فخاف الرجال خوفاً عظيماً وقالوا له: لماذا صنعت ذلك؟ وقد علموا أنه هارب من وجه الرب لأنه أخبرهم. وقالوا له: ماذا نفعل بك حتى يسكن البحر عنا؟ وكان البحر يزداد هياجاً. فقال لهم: خذوني وألقوني إلى البحر فيسكن البحر عنكم، فإني عارف أن هذه الزوبعة العظيمة إنما حلت بكم بسببي... فصرخوا إلى الرب وقالوا: أيها الرب لا نهلكن بسبب نفس هذا الرجل، ولا تجعل علينا دماً بريئاً فإنك أنت أيها الرب قد صنعت كما شئت. ثم أخذوا يونان وألقوه إلى البحر فوقف البحر عن تموجه...

فأعد الرب حوتاً عظيماً لابتلاع يونان، فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال. فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت وقال: إلى الرب

صرخت في ضيقي فاستجاب لي ، من جوف الجحيم استغثت فسمع صوتي ...إلخ (صلاة طويلة). فأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى اليبس.

وكانت كلمة الرب إلى يونان ثانية قائلاً: قم انطلق إلى نينوى المدينة العظيمة، وناد عليها المناداة التي كلمتك بها. فقام يونان وانطلق إلى نينوى بحسب كلمة الرب. وكانت نينوى مدينة عظيمة على مسيرة ثلاثة أيام. فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد، ونادى وقال: بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى. فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الكلام ملك نينوى، فقام عن عرشه وألقى عنه حلته والتف بمسح وجلس على الرماد، وأمر أن ينادى ويقال في نينوى عن أمر الملك وعظماؤه: لا يذق بشر ولا بهيمة ولا بقر ولا غنم شيئاً، ولا ترع ولا تشرب ماءً، وليلتف البشر بمسوح وليصرخوا إلى الله بشدة، ويتوبوا كل واحد عن طريقه الشرير، لعل الله يرجع ويندم ويعود عن اضطرام غضبه فلا نهلك. فرأى الله أعمالهم أنهم تابوا عن طريقهم الشرير، فندم الله على الشر الذي قال إنه يصنع بهم، ولم يصنعه.

فساء الأمر يونان مساء عظيمة، وصلى إلى الرب وقال: أيها الرب، ألم يكن هذا كلامي وأنا في أرضي ولذلك بادرت بالهرب إلى ترشيش؟ فإني علمت أنك إله رؤوف رحيم طويل الأناة كثير الرحمة ونادم على الشر. فالآن يا رب خذ نفسي مني فإنه خير لي أن أموت من أن أحيأ. فقال الرب: أبحق غضبك؟

وخرج يونان وجلس شرقي المدينة وصنع له مظلة وجلس تحتها في الظل ريثما يرى ماذا يصيب المدينة. فأعد الرب الإله يقطينة⁽¹⁾، فارتفعت فوق يونان ليكون على رأسه ظل. ففرح يونان باليقطينة فرحاً عظيماً. ثم أعد الله دودة عند طلوع الفجر في الغد فضربت اليقطينة فجفت. فلما أشرقت الشمس أعد الله ريحاً شرقية حارة فضربت رأس يونان فغشي عليه، فتمنى الموت لنفسه وقال: إنه خير

(1) ورد اسم هذه الشجرة في الترجمة البروتستانتية على أنه يقطينة، بينما قالت الترجمة الكاثوليكية "خروعة"، وهي فصيلة من النبات ينتمي إليه اليقطين.

لي أن أموت من أنا أحياء. فقال الله ليونان: أبحق غضبك لأجل اليقطينة؟ فقال: بحق غضبي إلى الموت. فقال الرب: لقد أشفقت أنت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولم تُربِّها، التي نشأت بنت ليلة وهلكت بنت ليلة، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة (= 120.000 نسمة لأن الربوة تعادل 10.000) من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم، ما عدا بهائم كثيرة؟

مقارنة:

الرواية القرآنية	الرواية التوراتية
- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (37 الصافات 139).	- كانت كلمة الرب إلى يونان بن أمتاي قائلاً...
- ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾ (21 الأنبياء 87)	- فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب.
- ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (37 الصافات 140)	- فنزل إلى يافا فوجد سفينة فأدى أجرتها ونزل فيها.
-	- فكانت زوبعة عظيمة وأشرفت السفينة على الانكسار.
- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (37 الصافات 141)	- قالوا هلم نلقي قرعاً لنعلم بسبب من أصابنا هذا الشر... فوقع القرعة على يونان.
-	- فأخذوا يونان وألقوه إلى البحر فوقف عن تموجه.
- ﴿فَالْتَمَتِ الْحَوْتُ وَمَوْئِلُهَا﴾ (37 الصافات 142)	- فأعد الرب حوتاً عظيماً لابتلاع يونان. فكان في جوف الحوت ثلاثة أيام.

- فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت.

- فأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى اليبس.

- وكانت كلمة الرب إلى يونان ثانية: قم انطلق إلى نينوى... التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس (= مئة وعشرين ألفاً).

- فأمن أهل نينوى بالله، وصاموا ولبسوا مسوحاً.

- وخرج يونان من المدينة وجلس ريثما يرى ماذا يصيب المدينة.

- فأعد الله يقطينة فارتفعت فوق يونان ليكون على رأسه ظل.

- ﴿...فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ...﴾ (21 الأنبياء 87)

- ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (37 الصافات 145)

- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (37 الصافات 147)

- ﴿فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (37 الصافات 148)

- ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ (37 الصافات 146)

13- أصحاب الكهف

الرواية القرآنية:

تحدث هذه القصة القرآنية عن عدد من الشباب المؤمن، الذين فروا من الاضطهاد الديني ورفضوا عبادة الأوثان التي فرضها عليهم الملك، فلهجؤوا إلى كهف في جبل خارج المدينة. وهناك ألقى الله عليهم سباتاً فناموا لمدة تزيد عن الثلاثمئة سنة. وعندما انجلت الغمة بعثهم الله من نومهم وأراد إطلاع الناس على حقيقة ما جرى لهم، ليؤمنوا بأن وعد الله حق، وأنه قادر على إحياء الموتى مثلما أحيأ هؤلاء الفتية.

أما عن مناسبة نزول الوحي بهذه القصة، فيقول ابن كثير بأن بعضاً من أهل الكتاب سألوا النبي عن خبر أصحاب الكهف، فقال لهم "غداً أجيبكم"، ولم يتبع قوله هذا بقوله "إن شاء الله". ولكن الوحي تأخر عليه خمسة عشر يوماً. وعندما جاء الوحي بالقصة أراد تعالى تذكير رسوله بنسيانه هذا، ولذلك قال في آخرها:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا *﴾. والقصة مذكورة فقط في سورة الكهف، ولا يوجد إشارة إليها في أي موضع آخر. وهذا نصها الكامل:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ⁽¹⁾ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا ⁽²⁾ * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِم ⁽³⁾ فِي الْكَهْفِ

(1) الرقيم: هو لوح فخاري أو حجري أو معدني تنقش عليه الكتابة القديمة.

(2) أي هل ظننت أن أهل الكهف والرقيم كانوا أعجب آياتنا؟ والمقصود أن الله آيات أعجب من ذلك.

(3) أي رمينا عليهم سباتاً فناموا.

سِينَ عَدَدًا⁽¹⁾ * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا⁽²⁾ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا⁽³⁾ * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ⁽⁴⁾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَتَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا⁽⁵⁾ * وَتَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرَ⁽⁶⁾ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا * وَنَحْسِبُهُمْ أَيْقَظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَاهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا * وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ⁽⁸⁾ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ⁽⁹⁾ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا * وَكَذَلِكَ أَعْنَرْنَا عَلَيْهِمْ⁽¹⁰⁾ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ⁽¹¹⁾ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ

(1) سنين كثيرة.

(2) أي أن الفريقين المختلفين بشأنهم عرف عدد سنوات نومهم.

(3) أي لقلنا قولاً بعيداً عن الحق.

(4) أي هلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً.

(5) أي ما ترتفقون به من طعام وشراب.

(6) أي تميل عن كهفهم.

(7) أي تعدل وتبعد.

(8) أي نقودكم أو فضتكم.

(9) أي يعرفوا بأمركم.

(10) أطلعنا الناس عليهم.

(11) أي فريقان من الناس تنازعوا بشأن ماذا يفعلون بموضع الكهف.

كَلْبُهُمْ رَجَاءً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَمَانِيَهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ⁽¹⁾ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَنَفِثْ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً * وَلَا تَقُولَنَّ لِّشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا ارْشَاداً * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَارْدَاذُوا يَسْعَا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُنْشِرُكَ فِي حُكْمِهِ أَحَداً * ﴿18﴾ (الكهف: 9-26).

لا يوجد في كتاب العهد القديم أو في كتاب العهد الجديد خبر عن أصحاب الكهف. فهذه قصة مسيحية متأخرة جرى تداولها في العصر الذي صارت فيه المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، بعد تحول الإمبراطور قسطنطين (306-337م) إلى الدين المسيحي. وأول نص مدون لهذه القصة هو نص سرياني يعود بتاريخه إلى أواخر القرن الخامس الميلادي. ويبدو أنه قد اعتمد مرويَّات شفوية متداولة أكثر قدماً. وهذا ملخص وافٍ له ⁽³⁾:

في جولة له خارج عاصمته جاء الإمبراطور ديكْيوس إلى إفسوس، وهي مدينة يونانية عريقة في آسيا الصغرى، وهناك وصلته أخبار انتشار المسيحية فيها، فحاول التضييق على المسيحيين وأمرهم جميعاً بتقديم القرابين إلى الآلهة الرومانية، فرضخ فريق منهم وارتد تحت التهديد، ورفض فريق قليل آخر مفضلاً الألم والعذاب على ترك المعتقد. ومن هؤلاء سبعة فتية (وبعض الروايات تقول ثمانية) قدّمت أسماؤهم إلى الإمبراطور ليتخذ قراره فيهم، فأعطاهم مهلة للتفكير في العدول عن موقفهم هذا ثم غادر المدينة ليكمل جولته. فترك الفتية بيوتهم ونجّوا إلى جبل أنخيلْيوس خارج إفسوس حيث اختبؤوا في كهف. وعندما نفذت مژونتهم أرسلوا واحداً منهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً، وهناك علم أن الإمبراطور قد عاد إلى إفسوس وهو يطلبهم. اضطرب الفتية لسماع هذه الأنباء.

(1) أي بعددهم.

(2) أي لا تجادل بشأنهم إلا جِدلاً متيقناً عارفاً بحقيقة الخبر.

(3) K. Sanadiki, Legends and Narratives of Islam, Kasi publications, Chicaco, 2000. pp. 286-288. citing: James Hasting, Incyclopedia of Religion and Ethics.

وبعد تناولهم طعامهم ألقى عليهم الرب سباتاً عميقاً، وأغلق عليهم مدخل الكهف بصخرة عظيمة. فتش جنود الإمبراطور عن الفتية ولم يعثروا لهم على أثر، فجاؤوا إلى أهلهم وانتزعوا منهم تحت التهديد بالقتل مكان اختباء الفتية. ولكنهم عندما وصلوا إلى الكهف وجدوه مغلقاً بتلك الصخرة العظيمة، وتأكد لهم أن الفتية قد لقوا حتفهم في داخله، فغادروا وأخبروا الإمبراطور.

دام سبات الفتية ثلاثمئة وسبع سنين. وكانت الدولة قد تحولت إلى الدين المسيحي منذ أمد بعيد، وآلت السلطة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني. وفي عصر هذا الإمبراطور دار جدال في الأوساط المسيحية حول مسألة بعث الأموات، ووقف أحد الأساقفة المدعو ثيودور في صف من ينكر البعث، الأمر الذي أرق الإمبراطور. في هذه الأثناء أراد مالك الحقل الذي يقع فيه الكهف بناء حظيرة لغنمه، فراح يقتلع من صخرة المدخل حجارة لاستخدامها في رفع الجدران، وذلك حتى انكشف مدخل الكهف. ولكن الرجل لم يدخل ولم يلحظ وجود أحد هناك.

ثم إن الله أيقظ الفتية من سباتهم، وظن كل واحد منهم أنه لم ينم إلا ليلة واحدة، وراحوا يشجعون بعضهم على النزول إلى المدينة لاستقصاء الأخبار وشراء الطعام. وأخيراً وقع الاختيار على المدعو ديوميديوس الذي نزل في المرة الأولى، فحمل فضته ومضى. عندما وصل ديوميديوس إلى بوابة المدينة رأى صليباً كبيراً معلقاً عليها، فتعجب وتبلبلت خواطره ولم يجد لذلك تفسيراً. ثم إنه دخل وتجول ووقف أخيراً عند أحد الباعة ليشتري طعاماً، وعندما أخرج نقوده المعدنية رأى البائع عليها صورة الإمبراطور ديكيوس، الذي اختفى الفتية في عهده، منقوشة على العملة، فظن أن الفتى قد عثر على كنز قديم مدفون في الأرض، فراح يضغط على الفتى لمعرفة مكان الكنز، وتجمع حولهما أهل السوق. ثم إن الخبر شاع بسرعة ووصل إلى أسقف المدينة وإلى الحاكم، فجيء إليهما بالفتى وقص عليهما القصة كاملة، وطلب منهما مصاحبته إلى الكهف للتأكد من صحة كلامه. وخلال تفحصهما لمدخل الكهف عثرا على رقيمين معدنيين نُقشت عليهما كتابة تحكي قصة الفتية، كانا قد وُضعا تحت الصخرة عند

احتباسهم، وبذلك تم التأكد من صحة روايتهم. ثم إن الإمبراطور جاء بنفسه إلى المكان واستمع إلى الفتية، فقال له واحد منهم إن الله قد أنامهم هذه المدة الطويلة ثم أيقظهم، لكي يثبت للمتشككين حقيقة البعث في يوم الحساب، وقدرة الله عليه. عند ذلك أمر الإمبراطور ببناء مقام ديني في موضع الكهف تذكيراً للفتية.

مقارنة:

الرواية القرآنية	الرواية السريانية
<p>﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ...﴾</p> <p>(18 الكهف 22)</p>	<p>- عدد الفتية سبعة أو ثمانية تبعاً للروايات المختلفة المتداولة.</p>
<p>﴿...إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَّاهَا...﴾</p> <p>(18 الكهف 13-14)</p>	<p>- الفتية يرفضون السجود للآلهة الوثنية، ويفضلون العذاب على التخلي عن معتقدهم.</p>
<p>﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَاوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْغَبًا﴾</p> <p>(18 الكهف 16)</p>	<p>- الفتية يلجؤون إلى جبل خارج مدينة إفسوس ويأوون إلى كهف.</p>
<p>﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾</p> <p>(18 الكهف 10)</p>	<p>- الإمبراطور يرسل من يأتي إليه بالفتية، ولكن الله يلقي عليهم سباتاً ويسر لهم من يسد بابه بصخرة.</p>

- دام سبات الفتية ثلاثمئة وسبع سنين. وكانت المملكة خلال ذلك قد تحولت إلى المسيحية.

- الله يوقظ الفتية، فظن كل منهم أنه لم ينم إلا ليلة واحدة.

- الفتية يرسلون واحداً منهم بفضته للاستطلاع وشراء الطعام.

- النقود القديمة تكشف أمر الفتية فيأتي الحاكم والأسقف إلى الكهف ليجدا رقيمين دون عليهما خبر الفتية.

- يأتي الإمبراطور بنفسه إلى الموقع، ويقول له الفتية إن الله فعل بهم ذلك ليؤكد حقيقة البعث.

- الإمبراطور يأمر ببناء مقام ديني في موقع الكهف.

- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ.... ﴿﴾ (18 الكهف 25-26)

- ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِشَاءِ لُؤْلُؤِ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ....﴾ (18 الكهف 19)

- ﴿....فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ....﴾ (18 الكهف 19)

- ترد الإشارة إلى هذين الرقيمين في مطلع القصة:
﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (18 الكهف 9)

- ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا....﴾ (18 الكهف 21)

- ﴿....فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رِئُوسُهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا﴾ (18 الكهف 21)

14- خراب أورشليم

في سورة الإسراء لدينا خبر حملتين شنتهما الأعداء على مدينة أورشليم؛ الحملة الأولى كانت حملة تأديبية لم تؤدَّ إلى دمار المدينة وإنما إلى نهبها وتحذيرها، أما في الحملة الثانية التي جرت بعد مدة، فقد قام العدو نفسه بتخريب المدينة وتهديم معبدها. وكان ذلك عقاباً لبني إسرائيل على ذنوبهم وخطاياهم:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا^(١) بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ أَرْحَامَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُحْشَرُونَ^(٢) * إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ^(٣) لِيُؤْذُوا وَجُوهَكُمْ^(٤) وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا^(٥) مَا عَلَوْا^(٦) تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَلِيُتَبِّرُوا^(٧) مَا عَلَوْا^(٨) تَتْبِيرًا *﴾ (17 الإسراء: 4-8).

الرواية التوراتية وخلفيتها التاريخية:

في عام 605 ق.م. ارتقى نبوخذنصر عرش بابل التي دانت لها بلاد الشام بعد آشور. وكانت مصر تبذل محاولة لفرض نفوذها على بلاد الشام، ووصل

(1) أي أولى المرتين في الإفساد.

(2) أي سلكوا وسط البيوت.

(3) أي أعناكم عليهم.

(4) أي أكثر عدداً.

(5) أي وعد المرة الثانية من إفسادكم.

(6) أي ليحزنوكم ويهينوكم.

(7) أي ليخربوا ويهدموا.

(8) أي ما استولوا عليه.

الفرعون نخو بقواته إلى نهر الفرات، ولكن نبوخذنصر هزمه في موقع كركميش على الفرات، ثم طارده إلى ما وراء سينا. وفي طريقه دخل نبوخذنصر مدينة أورشليم التي وقفت إلى جانب مصر في النزاع، وخلع ملكها المتمرد يهوياقيم وعين بدلاً عنه ابنه يهوياكين ملكاً بدلاً منه وساقه أسيراً إلى بابل. (أخبار الأيام الثاني 36: 5-8). ولكن الملك الجديد خلع طاعة بابل بعد أن غادر نبوخذنصر المنطقة، ومال إلى مصر التي كانت تُعِدُّ الممالك السورية بالعون ضد بابل. ولكن نبوخذنصر عاد بعد مدة إلى المنطقة من أجل اجتثاث نفوذ مصر بشكل نهائي، واتخذ من موقع ربلة على العاصي مقراً لقيادته، ومن هناك كانت قواته تنطلق لتأديب الممالك المتمردة على النفوذ البابلي. وفي هذا السياق حملته على أورشليم التي جاء خبرها في سفر الملوك الثاني، حيث نقرأ:

"جاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة، وكان عبيده يحاصرونها. فخرج الملك يهوياكين إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساء خصيانه، وأخذ ملك بابل في السنة الثامنة لملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك... وسبى كل الرؤساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف سبي، وجميع الصناع والأقيان... وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم إلى بابل، وعين بدلاً منه متنيا عمه ملكاً عوضاً عنه، وغيّر اسمه إلى صدقيا" (الملوك الثاني 24: 10-17).

وقد جرت هذه الحملة في العام السابع لحكم نبوخذنصر، على ما يفيدنا نص لهذا الملك كشفت عنه الحفريات الأثرية. وهو نص شديد الاختصار نقرأ فيه ما يأتي: "في السنة السابعة، قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي (=سورية) فحاصر مدينة يهوذا وفتحها في اليوم الثاني من شهر آذار، فقبض على الملك وعين بدلاً عنه ملكاً جديداً اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة"⁽¹⁾

(1) Leo Oppenheim, Assyrian and Babylonian Historical Texts. in: J.Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1969, P. 564.

وهذه هي الحملة الأولى على أورشليم الوارد ذكرها في الرواية القرآنية حيث قرأنا:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ (17 الأسراء 5)

لم توجه هذه الحملة الضربة الأخيرة لأورشليم، وإنما أبقت عليها بعد سبي خيرة رجالها، فأخذت تسترد أنفاسها وتستعيد قوتها. ثم إن الملك الجديد صدقياً حاول خلق حلف عسكري لمواجهة بابل، وراح يبعث الرسل إلى ملوك فينيقية وشرقي الأردن لتأليهم على الحاكم البابلي. ويبدو أن ملوك آدوم ومؤاب وعمون في شرقي الأردن، وملكي صيدون وصور، أو مندوبيين عنهم قد اجتمعوا في أورشليم بدعوة من ملكها صدقياً، على ما نفهم من سفر إرميا 27: 3. وهذه التحركات والاتصالات كانت تجري بتشجيع من مصر، لأننا نعرف من بردية مصرية أن الفرعون بسامتيك قد قام في هذه الأثناء بجولة دبلوماسية زار خلالها عدداً من الممالك الفلسطينية والفينيقية. ويبدو أن الهدف الرئيس من وراء ذلك كان تأليب ملوك المنطقة على بابل⁽¹⁾.

انقسم شيوخ أورشليم في الرأي إلى فريقين: فريق يدعو إلى مقاومة بابل بالسيف، وآخر يدعو إلى قبول العبودية لبابل دفعاً للكارثة المتوقعة في حال اللجوء إلى المقاومة. وكان على رأس الفريق الثاني النبي إرميا الذي اعتبر نبوخذنصر منفذاً لمشيئة الرب. نقرأ في سفر إرميا: "هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض، وأعطيتها لمن حسن في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدي⁽²⁾، فتخدمه كل الشعوب، وكذلك ابنة وابن ابنة حتى يأتي وقت أسقطه فيه... أدخلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموه وشعبه واحيوا...

(1) Hershel Shanks, ed, Ancient Israel, Prentice Hall, New Jersey, 1988, P. 147.

(2) قارن مع ما ورد في الرواية القرآنية: بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد.

لماذا تصبر هذه المدينة خربة؟" (إرميا 27: 4-17). ولكن كلمات إرميا لم تلق أذاناً صاغية من الملك حزقيا والداعين إلى الحرب.

قرر نبوخذنصر التخلص نهائياً من شغب ملوك يهوذا، فشنّ حملة جديدة على مناطق سورية الجنوبية طالت عدداً من الممالك الفلسطينية بينها مملكة يهوذا، فحاصر عاصمتها أورشليم للمرة الثانية بعد عشر سنوات مضت على الحصار الأول. استمر الحصار قرابة الستين على ما يروي لنا محرر سفر الملوك الثاني، وعندما نفذت المؤونة واشتد الجوع، حاول الملك صدقيا الهرب مع عائلته بمعونة كتيبة من خيرة جنوده، وذلك من خلال فتحة سرية جرى إحداثها في السور، ولكن الجنود البابليين قبضوا عليه وساقوه إلى مقر قيادة نبوخذنصر في ربلة، فأمر بقتل أفراد عائلة صدقيا أمام ناظريه، ثم سمل عينيه وأرسله أسيراً إلى بابل. وبعد ذلك اقتحم نبوزردان قائد الجيش البابلي أورشليم فأحرقها وهدم أسوارها وهدم هيكلها وسبى معظم أهلها إلى بابل. وبذلك تم حذف مملكة يهوذا من الخارطة السياسية للمنطقة، فتحولت إلى ولاية بابلية هامشية ثم إلى ولاية فارسية بعد ذلك. أما من تبقى من سكان يهوذا، فقد أقام نبوخذنصر عليهم حاكماً من بينهم يدعى جدليا (سفر الملوك الثاني 25). وقد جرت هذه الأحداث نحو عام 578 ق.م.

وهذه الحملة الثانية على أورشليم المذكورة في الرواية القرآنية، حيث قرأنا: ﴿...فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَنْبِيرًا﴾ (17 الإسراء 7).

وعلى الرغم من عدم توافر نص بابلي يصف الحملة الأخيرة على أورشليم وتخريبها وهدم هيكلها، إلا أن الحملة التنقيبية البريطانية التي نقبت في موقع أورشليم بين عامي 1960 و 1967، قد كشفت عن آثار دمار وحرائق هائلة في الموقع ترجع إلى بدايات القرن السادس قبل الميلاد، كما كشفت عن آثار انقطاع في السكن دام قرابة قرن من الزمان⁽¹⁾.

(1) Kathleen Kenyon, Digging Up Jerusalem, London, 1974, PP. 166-172.

الرجل الذي أماته الله مئة عام:

تتصل بقصة دمار أورشليم قصة أخرى عن الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه من الموت. نقرأ في سورة البقرة: ﴿أَوِ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ....﴾ (2 البقرة: 259).

كما هو الحال في القصص القرآني الذي تجري أحداثه في فضاء تاريخي وجغرافي، فإن هوية هذه المدينة وهوية بطل القصة مغفلان هنا. ولكن لدينا قصة شبيهة بها أوردتها محرر سفر باروخ الرابع، وهو من الأسفار غير القانونية. وأبطال هذه القصة النبي إرميا، وكاتبه باروخ، وغلame أبيمالك الذي أماته الله ستة وستين عاماً ثم أحياء. وتبتدئ أحداث القصة عشية دمار أورشليم، وتنتهي بالتبشير بإحياء المدينة وعودة المسيبين إليها. وهذا ملخصها:

عشية دمار مدينة أورشليم المحاصرة، كشف الرب للنبي إرميا عن قراره بتدمير المدينة على يد نبوخذنصر وسبي أهلها عقاباً على ذنوبهم، وأمره بمغادرتها مع بقية المسيبين، وأن يترك وراءه كاتبه باروخ. فقال إرميا للرب أنه يريد تقديم معروف لغلame أبيمالك لقاء خدمته المخلصة له، فلا يشهد دمار المدينة. فقال له الرب أن يرسله في مهمة شكلية تبعده عن المكان ريثما تنتهي الأحداث، وطمأنه بأنه سوف ييسر حمايته عليه. في الصباح أرسل إرميا أبيمالك إلى مكان بعيد ليجمع له بعض التين لاستخدامه في علاج المرضى، وأثناء غيابه اقتحم البابليون أورشليم ودمروها وسبوا أهلها وبينهم إرميا. أما باروخ كاتبه فقد لجأ إلى قبر فارغ وعاش فيه وكانت الملائكة تزوره هناك.

جمع أبيمالك التين في سلة وقفل عائداً. وفي الطريق جلس تحت شجرة ليحتمي بظلها من حر النهار وأسند رأسه إلى السلة. فجلب عليه الرب سباتاً دام

(1) أي يتغير.

سته وستين سنة. وعندما أفاق شعر بثقل في رأسه عزاه إلى عدم أخذه كفايته من النوم. ثم تفقد التين في سلته فوجده ما زال طازجاً ويقطر حلياً (قارن مع قوله تعالى: ﴿...فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ...﴾)؛ أي لم يفسد ويستغير. وعندما وصل إلى أورشليم الخاوية والمهدمة لم يجد تفسيراً لما حدث. ثم راح يجول في المكان إلى أن التقى برجل عجوز فسأله عن سكان المدينة أين ذهبوا، وعن إرميا وباروخ؛ فقص عليه العجوز كل ما جرى، وتعجب من أنه ما زال يتذكر إرميا الذي ذهب مع المسيبين إلى بابل منذ ستة وستين سنة. ثم إن ملاكاً جاء وقاد أيمالك إلى حيث كان باروخ ما زال يقيم في القبر الفارغ. ففسر له باروخ حقيقة ما جرى له، وأن موته وبعثه دليل على قدرة الله على إحياء الموتى وقدرته على إحياء المدينة وبعثها من جديد. ثم إن باروخ كتب بوحى من الرب رسالة إلى إرميا حملها له صقر مكلف بهذه المهمة، وفيها يقول له أن يهئ نفسه هو وبقية المسيبين للعودة إلى أورشليم التي سوف تصحو من غفوتها على أيديهم⁽¹⁾.

(1) L. H. Charlesworth, The Old Testament Pseudepigrapha, Doublday, New york, 1995, vol. 2, PP. 413–425.

15- ياجوج وماجوج

هاروت وماروت

ياجوج وماجوج:

ياجوج وماجوج اسم لقبائل بربرية كانت تفسد في الأرض وتعتدي على جيرانها بالقتل والسلب والنهب. وقد ورد خبرهم في القرآن الكريم في سياق قصة ذي القرنين، وهو ملك صالح مؤمن يسر له الله أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران، فانطلق في حملة تهدف إلى نشر دين الله بين الأقوام الوثنية، حتى بلغ مغرب الشمس، أي أقصى حد في الأرض المسكونة، حيث تغرب الشمس على أفق المحيط. ثم انقلب راجعاً حتى وصل إلى أقصى شرق المسكونة، حيث تشرق الشمس من وراء بقاع مجهولة، فوجد شعباً يتكلم لغة غريبة ساكناً عند فجوة بين سلستي جبال، تتدفق من ورائها عليهم تلك الأقوام. نقرأ في سورة الكهف:

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ فَلَمْ يَسْأَلُوكَ عَنْهُنَّ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا⁽¹⁾ * فَاتَّبَعَ سَبَبًا⁽²⁾ * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ⁽³⁾ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَنَسْفُوهُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ

(1) أي يسر له الله الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم.

(2) أي فاتخذ طريقاً.

(3) أي ذات حمأة، وهو الطين الأسود. ولا ندري في أي مكان وقف حتى خُبل إليه ذلك.

السَّادِينَ⁽¹⁾ وَجَدَ مِنْ دُونِهَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا⁽²⁾ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ⁽³⁾ فَأَعِثُّونِي بِقُوَّةٍ⁽⁴⁾ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ⁽⁵⁾ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ⁽⁶⁾ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا⁽⁷⁾ * فَمَّا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا⁽⁸⁾ * ﴿ (18 الكهف: 83-97) 》

ولكن يأجوج ومأجوج سوف ينقبون السد في آخر الزمن، ويكون خروجهم للإفساد في الأرض ثانية من علامات الساعة. وهذا ما تشير إليه بقية القصة في سورة الكهف:

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي⁽⁹⁾ جَعَلَهُ دَكَّاءَ⁽¹⁰⁾ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جُمُعًا * وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا * ﴿ (18 الكهف: 98-100) 》

وهناك إشارة أخرى في سورة الأنبياء إلى نقب يأجوج ومأجوج للسد عند اقتراب الساعة: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ⁽¹¹⁾ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَتَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ (21 الأنبياء: 96-97) 》

(1) أي بين جبليين.

(2) أي خراجاً مالياً.

(3) أي ما أنعم الله به علي خير مما تبدلونه لي.

(4) أي ساعدوني بتقديم اليد العاملة.

(5) أي قطع الحديد.

(6) أي بين جانبي الجبليين.

(7) أي نحاساً مذاباً.

(8) أي يتسورونه ويعلمونه.

(9) أي يوم القيامة.

(10) أي دكه وسواه بالأرض.

(11) من كل مرتفع وناحية يهرعون.

الرواية التوراتية:

يرد الاسم "جوج" في سفر حزقيال على أنه اسم لملك يحكم على أرض تدعى "ماجوج" أو على شعب يدعى بهذا الاسم. وهو سيقوم بغزو أرض إسرائيل قبل اليوم الأخير. ولكنه يُقتل هو وشعبه في مذبحة هائلة:

"وكان كلام الرب إليّ قائلاً: يا بن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج، رئيس روش وماشك وتوبال، وتنبأ عليه وقل... هكذا قال السيد الرب، في ذلك اليوم عند سُكنى شعبي إسرائيل آمنين... تأتي من موضعك من أقاصي الشمال أنت وشعوب كثيرة معك، كلهم راكبون خيلاً، جماعة عظيمة وجيش كثير، وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابة تغطي الأرض. في الأيام الأخيرة يكون (هذا)، وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حين أتقدس فيك أمام أعينهم يا جوج... ويكون في ذلك اليوم، يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل، يقول السيد الرب أن غضبي يصعد في أنفي، وفي غيرتي في نار سخطي تكلمت أنه في ذلك اليوم يكون رعرع عظيم في أرض إسرائيل، فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل واللدابات التي تدب على الأرض، وكل الناس الذين على وجه الأرض. وأستدعي السيف عليه في كل جبالي، يقول السيد الرب، فيكون سيف كل واحد على أخيه، وأعاقبه بالوبأ والدم، وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى كل الشعوب الذين معه مطراً جارفاً وحجارة برد عظيمة وناراً وكبريتاً. فأتعظم وأتقدس وأعرف في عيون أمم كثيرة فيعرفون أنني أنا الرب" (حزقيال 38: 1-23).

من مقارنة الروایتين، نلاحظ أن الرواية القرآنية قد انفردت بذكر السد الذي بني لكي يحجب يأجوج ومأجوج، ونقبحهم له قبل يوم القيامة وانتشارهم للإفساد في الأرض. وتتفق الروایتان على أن خروج هذه الأقوام هو علامة من العلامات التي تسبق اليوم الأخير.

وقد ورد ذكر جوج وماجوج أيضاً في سفر الرؤيا، وهو آخر أسفار العهد الجديد، باعتبارهم أقواماً مفسدين يظهرون في آخر الزمن، فيصطدمون بجيش المؤمنين، ولكن الله يقضي عليهم:

"ثم متى تمت ألف السنة يُحَلَّ الشيطان من سجنه ويخرج لِيُضِلَّ الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب، الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة (= أورشليم). فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلهم طُرح في بحيرة النار والكبريت" (الرؤيا 20: 7-10).

هاروت وماروت:

الرواية القرآنية:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَائٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *﴾ (2 البقرة: 101-102).

وقد عرضنا لتفسير هذه الآيات في معرض تقديمنا لسيرة الملك سليمان سابقاً، وأوردنا ما قاله المفسرون من أن هاروت وماروت هما ملاكان أرسلهما الله لامتحان البشر، فنزلا في أرض بابل وعاشا بين الناس مدة من الزمن كانا أثناءها يعلمان الناس السحر بعد أن يبيننا لكل واحد أن ما يصفونه له هو ابتلاء واختبار من الله تعالى.

الرواية التوراتية:

لا يوجد في التوراة العبرانية قصة عن نزول ملائكة إلى الأرض واختلاطهم بالبشر إلا القصة الواردة في سفر التكوين عن دخول أبناء الله، أي الملائكة، على بنات الناس بعد أن رأوا من حسنهن وجمالهن، فولدن لهم أولاداً عمالقة كان بهم ابتداء الشر على الأرض (التكوين 6: 1-5). ولكن الأسفار غير القانونية قد توسعت في هذا الموضوع وأسهمت، معتبرة أن هؤلاء الملائكة الساقطين هم الذين تحولوا إلى شياطين، وتحول كبيرهم إلى إبليس.

ولكننا نعثر في الفولكلور اليهودي على قصة هبوط ملاكين إلى الأرض أحدهما يدعى عزازيل والآخر شمهازي، وذلك ليثبتا للخالق تفوق الملائكة على الإنسان في الأخلاق وفي طاعة الله، وأن الإنسان غير جدير بالدور الذي رسمه الله له. ولكن شمهازي ما لبث أن وقع في حب امرأة تدعى الزهرة وطلب وصالها، ولكنها تمنعت واشترطت عليه أن يطلعها على اسم الله الأعظم الخفي، ففعل ذلك. وما إن حازت على الاسم حتى استخدمت قوته في الصعود إلى السماء قبل أن تفي بوعدها لشمهازي، ولكن الله أوقفها بين أفلاك الأجرام السماوية السيارة، وحوّلها إلى الجرم المعروف بكوكب الزهرة أو كوكب فينوس⁽¹⁾.

هذه القصة اليهودية وتنويعاتها الأخرى، كانت وراء العديد من القصص التي أوردها المفسرون القدماء لإلقاء الضوء على هاروت وماروت في القصة القرآنية. ومنها هذه القصة المرفوعة لابن عباس، والتي أوردها ابن كثير في تفسيره:

"قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا مسلم، أخبرنا القاسم بن الفضل الحذائي، أخبرنا يزيد عن ابن عباس، أن أهل السماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون بالمعاصي. فقال الله: أنتم معي وهم في غيب عني. فقبل لهم: اختاروا منكم ثلاثة يهبطون إلى الأرض ليحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فأمرؤا أن لا يشربوا خمرًا، ولا يقتلوا نفسًا، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لوثّن. فاستقال منهم واحد فأقيل. فأهبط اثنان إلى الأرض هما هاروت وماروت. فأتتهما امرأة من أحسن الناس، فهوياها معاً ثم أتيا منزلها فأراداها. فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمري وتقتلا ابن جاري وتسجدوا لوثني. فقالا: لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا ثم سجدا. فأشرف أهل السماء عليهما. وقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قتلتماها طرمتا. فأخبراهما فطارت،

(1) K. Sandiki, Legends and Narratives of Islam, Kazi Publications, Chicago, 2000, PP. 235–236. citing, Louis Ginzberg, Legends of the Jews, III, P. 247.

فمُسخت جمرة وهي هذه الزهرة. وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما مناطان بين السماء والأرض

وابن كثير في تفسيره يورد هذه القصة وتنويعات عديدة عليها، ثم يعلق قائلاً:

وقد روي في هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة، وغيرهم، وقصّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهر سياق القرآن إجمالاً من غير بسط ولا إطناب. ونحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى. والله أعلم بحقيقة الحال

هذه التصورات المتأخرة عن أصل كوكب الزهرة، إنما تقوم على أرضية ميثولوجية مغرقة في القدم. فقد رأت الشعوب السامية القديمة في كوكب الزهرة تجسيداً للإلهة الحب الشهباني، التي دعيت إنانا لدى السومريين، وعشتار لدى البابليين، واستارت عند الكنعانيين. وقد نقل الفينيقيون عبادة استارت إلى جزيرة قبرص، ومنها انتقلت إلى بلاد اليونان تحت اسم إفروديت، التي يقص هزيود في كتابه "أصول الآلهة" عن ولادتها من زبد البحر على شاطئ جزيرة قبرص. أما الرومان فقد دعوها فينوس، وهو الاسم الفلكي الشائع اليوم لكوكب الزهرة. كما دعاها الفرس أناهيتا، وفي فنونهم المصورة تبدو على هيئة حسناء تعزف على العود.

وعند عرب الجزيرة قبل الإسلام حمل كوكب الزهرة معاني البياض والحسن والبهجة⁽¹⁾، ورأوا فيه تجسيداً لإلهتهم العزى على ما ترويهِ المصادر الخارجية⁽²⁾. وقد عُرِفَت الزهرة بأكثر من اسم، وذلك حسب ظهورها بعد غروب

(1) راجع تاج العروس للزبيدي، ص 249/ج 3، ولسان العرب، ص 421/ج 5.

(2) محمد سليم الحوت: الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، 1979، ص 75 و87.

الشمس أو قبل شروقها، فكانوا يدعون نجمة المساء عتر (= استارت = عترتا)، أما نجمة الصبح فيدعونها العزى ويلقبونها بكوكب الحسن⁽¹⁾. ولهذه الإلهة ضحى الرسول الكريم بشاة عفراء عندما كان على دين قومه، على ما يرويه ابن الكلبي في "كتاب الأصنام"⁽²⁾. ولكنه بعد البعثة صار يتطير من ظهورها ويقول: لا مرحباً ولا أهلاً. فقد رُوي عن نافع قال: سافرت مع عبد بن عمر، فلما كان آخر الليل قال: يا نافع، هل طلعت الحمراء (أي الزهرة)؟ وأعادها مرتين أو ثلاثاً. ثم قلت: قد طلعت. فقال: لا مرحباً ولا أهلاً. قلت: سبحان الله، نجم مُسخر سميع مطيع. قال: ما قلت لك إلا ما سمعته من رسول الله⁽³⁾.

كما روى البعض عن عبد الله بن عمر أنه كلما رأى الزهرة لعنها وقال: هذه التي فتنت هاروت وماروت⁽⁴⁾.

(1) محمد سليم الحوت: الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، 1979، ص 75 و 87.

(2) ابن الكلبي: الأصنام، تحقيق أحمد زكي، القاهرة 1965، ص 19.

(3) تفسير الطبري، ص 345/ج 1.

(4) تفسير الطبري، ص 346/ج 1.

16- قصة الخليفة

1- الخلفية الميثولوجية:

تحدث أقدم الأساطير المدونة في ثقافات الشرق القديم، وهي الأساطير السومرية (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد)، عن خلق العالم ابتداءً من الهيولى المائية الأولى. ونستطيع اعتماداً على عدد من النصوص السومرية التي لم تصلنا كاملة، إعادة بناء أسطورة التكوين السومرية على الشكل الآتي⁽¹⁾:

1- في البدء كانت الإلهة نمو، وهي المياه البدئية التي انبثق عنها كل شيء فيما بعد.

2- ثم إن هذه المياه الأولى أنجبت توءمين هما السماء آن، وهو مذكر، والأرض كي، وهي مؤنث، وكانا ملتصقين ببعضهما في كتلة مادية غير متميزة، تدعوها النصوص السومرية بجبل السماء والأرض.

3- من تلاقح السماء والأرض ولد الهواء إنليل، وبدأ يشعر بالضيق من عدم وجود متسع له للحركة بين أبويه، فعمد بقوته الخارقة إلى فصل السماء عن الأرض، فسمت السماء وانبسطت الأرض، وراح الهواء إنليل يرتع بينهما.

إن عناصر قصة الميلاد المائي هذه تعود إلى الظهور في الميثولوجيا المصرية. ففي البدء لم يكن سوى الأوقيانوس المائي العظيم المدعو نون. في أعماق هذه الهيولى المائية البدئية، كانت تحوم روح بلا هوية تركزت في داخلها تدريجياً كل الممكنات، وصار اسمها آتوم (والكلمة تعني الاكتمال، وفي الوقت

(1) S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper and Row, New york, 1961, ch. 2.

- S. N. Kramer, The Sumerian, The University of Chicago Press, 1963, ch. 4.

نفسه العدم). ثم إن آتوم هذا تجلى عند بدء الزمن تحت اسم آتوم - رع، وأنجب الآلهة والبشر. وفي رواية أخرى لقصة الخليفة المصرية نجد أن إله الشمس رع كان كامناً في حوض المياه الأولى نون تحت اسم آتوم. ولخوفه على نوره من الانطفاء انطوى داخل برعم نوتس ظل يهيم على غير هدى في الأعماق المائية. ثم جاء وقت سئم فيه من حالته الشبيهة بالعدم، فانبثق بإرادته الخاصة وتجلّى تحت اسم "رع" وبعد ذلك أنجب الهواء شو، وهو مذكر، والرطوبة تفنوت، وهي مؤنث. وهذان أنجبا بدورهما الأرض جيب، وهو مذكر، والسماء نوت، وهي مؤنث. وكانت السماء والأرض في حالة التصاق وعناق شبيقي دائم، ولكن الهواء شو الذي يؤدي هنا دور إنليل السومري، تسلل بينهما فرفع السماء على ذراعيه نحو الأعلى ووطئ الأرض بقدميه. ومنذ ذلك الحين وجيب ينوح ويبكي على فراق زوجته نوت⁽¹⁾

على أن أكمل وأطول نص في التكوين قد قدمه لنا البابليون ورثة الحضارة السومرية، وهو يعود بتاريخه إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد وُجدت منه نسخة شبه تامة في مكتبة الملك آشور بانبيال بمدينة نينوى تعود بتاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد. في هذه الأسطورة يحل الإله البابلي مردوخ محل الإله القديم إنليل كبطل للتكوين، وهو الذي يفصل الكتلة المائية البدئية المدعوة تعامة، أو الأم هابور أصل كل الأشياء، والتي تصورها البابليون على هيئة تنين مائي هائل، ليصنع منها السماء والأرض وبقية مظاهر الوجود. فبعد معركة فاصله مع هذه الإلهة وجنّدها، قطع مردوخ رأسها ثم شقها إلى قسمين، فانفتحت كما الصدفة، فرفع نصفها الأول إلى الأعلى فصار سماء وضع تحتها العوارض حتى لا يتسرب ماؤها، وبسط الثاني فصار أرضاً. ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم شؤون السماء والأرض، فعمد إلى السماء وزينها بالنجوم وأظهر كويكبات أبراج السنة، وصنع القمر وأكله بالليل، وصنع الشمس وأكلها بالنهار، وفصل بين تخوم النهار وتخوم الليل، ثم التفت إلى الأرض فأبرز

(1) J. Viaud, Egyptian Mythology. In: Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London, 1977, PP. 11-16..

معالمها وصنع التلال والجبال، وفجر من باطنها ينابيع وأسال أنهاراً، وخلق الغيوم وحملها بالمطر الغزير، مهياً بذلك لظهور الحياة النباتية والحيوانية. وأخيراً خلق الإنسان.

وقد وصلتنا هذه الأسطورة منقوشة على سبعة ألواح فخارية: ستة الألواح الأولى منها مخصصة لوصف فعاليات الإله الخلاق، أما اللوح الأخير فمخصص لوصف جلوس الإله مردوخ على العرش في القصر الجديد الذي بناه له رفاقه الآلهة، واحتفالهم بنصره على تنين الماء وخلق العالم، وترثيهم باسمائه الخمسين التي يعبر كل واحد منها عن صفة من صفاته أو خصيصة من خصائصه⁽¹⁾. ولعل هذا ما أوحى إلى المحررين التوراتيين، الذين استلهموا هذه الأسطورة في فترة السبي البابلي، بفكرة أيام الخلق الستة واستراحة الخالق في اليوم السابع، ودبجوا قصتهم التي تقوم على العناصر ذاتها التي قامت عليها أسطورة التكوين البابلية وبقيت أساطير التكوين في الثقافات المشرقية.

2- قصة الخليفة التوراتية:

على الرغم من أن قصة الخليفة قد تصدرت الإصحاحات الأولى من سفر التكوين، وهو أول أسفار التوراة العبرانية، إلا أن إشارات متفرقة إلى فعاليات إله التوراة يهوه في التكوين قد وردت في عدد من الأسفار الأخرى. حيث نجد يهوه منهمكاً قبل الخلق، على طريقة الإله مردوخ، في السيطرة على المياه الأولى وإخضاعها، أو في الصراع مع تنين بحري يمثل تلك المياه، يدعى لواياتان أو رهب. نقرأ في سفر المزامير: "أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لواياتان... لك النهار ولك الليل أيضاً. أنت هيأت النور والشمس، أنت نصبت كل تخوم الأرض. الصيف والشتاء أنت خلقتهما" (المزمور 74: 13-17). وأيضاً: "أنت متسلط على كبرياء البحر، عند ارتفاع لججه أنت تُسكتها. أنت سحقت رهب مثل القليل، بذراع

(1) من أجل النص الكامل لأسطورة التكوين البابلية، ومراجعته، انظر كسابي (مغامرة العقل الأولى)، فصل التكوين البابلي.

قوتك بددت أعداءك. لك السماوات ولك الأرض أيضاً. المسكونة وملؤها أنت أسستهما، الشمال والجنوب أنت خلقتهما" (المزمور 89: 9-12). وأيضاً: "المؤسسُ الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر وإلى الأبد. كسوتها الغمر كثوب. فوق الجبال تقف المياه، من انتهارك تهرب، من صوت رعدك تفر تصعد إلى الجبال، تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسسته لها. وضعت تخماً لها لا تتعدها، لا ترجع لتغطي الأرض" (المزمور 104: 5-9). ونقرأ في سفر إشعيا: "استيقظي، استيقظي، إلسي قوة يا ذراع الرب. ألسنتِ القاطعة رهب، الطاعة التنين؟" (إشعيا 51: 9).

وفي الحقيقة فإن فكرة إخضاع المياه البدئية وقتل تينها، لم ترد إلى الميثولوجيا التوراتية من ميثولوجيا بلاد الرافدين فقط، وإنما من الميثولوجيا السورية الكنعانية أيضاً. ففي نصوص بعل وعناة التي وردتنا من ثقافة مدينة أوغاريت الساحلية، نجد الإله بعل أقوى وأفتى الأرباب يخضع المياه البدئية المتمثلة في الإله "يم" قبل أن يباشر مهامه في تنظيم العالم، وترتيب دورة الفصول التي تأتي بالمطر والثلج لخصب الأرض وحياة الزرع. كما إنه يصرع التنين البحري "لوتان"، الذي يظهر في النصوص التوراتية تحت اسم "لوایاتان" نقرأ في نصوص بعل الفقرة التالية وما يقابلها في سفر إشعيا التوراتي، حيث يبدو وكأن المحرر التوراتي ينسخ حرفياً عن النص الأوغاريتي:

1- النص الأوغاريتي:

والآن تريد أن تسحق لوتان

الحية الهاربة

الآن تريد أن تُجهز على الحية المتحوية

ذات الرؤوس السبعة

2- سفر إشعيا 27: 1

في ذلك اليوم يعاقب الرب

بسيفه القاسي الشديد

لواياتان الحية الهاربة

لواياتان الحية المتحوية

ويقتل التنين الذي في البحر

نأتي الآن إلى النص الأساسي لقصة الخليقة التوراتية، مع لفت النظر إلى أن لفظ الجلالة "الله" أينما ورد في التوراة هو ترجمة للاسم العبري "إيلوهيم"، وهو أحد الأسماء التي استخدمها المحررون التوراتيون في الإشارة إلى إلههم، إلى جانب الاسم إيل والاسم يهوه:

"في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف فوق وجه المياه. وقال الله ليكن نور، فكان نور. ورأى الله أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله: ليكن جلدٌ في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك ودعا الله الجلد سماءً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله: لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: لتنبث الأرض عشباً وبقلاً يبرز بزرراً، وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبرز بزرراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكن لآيات وأوقات وسنين، وتكون أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر

لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله في جلد السماء لتثير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

وقال الله: لتُفَضِّ المِياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض وعلى وجه السماء. فخلق الله الثنائين وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المِياه كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلاً: أثمرى واكثري واملئي المِياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً.

وقال الله لتُخرج الأرض ذوات نفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى كل الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم وقال لهم أثمروا واكثروا واملؤوا الأرض واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء على كل حيوان يدب على الأرض... ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

فأكملت السماوات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقُدَّسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل خالقاً" (سفر التكوين 1 و 2: 1-3).

تتفق قصة الخليقة التوراتية في جميع عناصرها تقريباً مع قصة الخليقة البابلية. فالخلق يتم انطلاقاً من المِياه البدئية التي يفصلها الخالق ويصنع منها السماء والأرض. وبعد ذلك تتابع مراحل خلق بقية مظاهر الكون وفق الترتيب نفسه، ويأتي خلق الإنسان بمثابة الخاتمة، ثم يستريح إله التوراة في اليوم السابع مثلما استراح مردوخ في قصره واستوى على عرشه أمام بقية الآلهة التي احتفلت به.

3- قصة الخليفة القرآنية:

كما هو الحال في سفر التكوين التوراتي، فإن القرآن الكريم يخبرنا بأنه في البدء لم يكن سوى الله والماء. ثم خلق الله كل شيء في ستة أيام: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴾ (سورة هود: 7) ويروي ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الحديث الآتي عن الرسول الكريم رواه البخاري ومسلم: "كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كل شيء" وفي حديث آخر أن أبي هريرة قال لرسول الله: "إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني. فاخبرني عن كل شيء. قال رسول الله: كل شيء خُلِقَ من ماء" (ابن كثير، ج 11 مجلد 2، ص 575. وج 17 مجلد 3، ص 239).

وعندما أراد الله خلق العالم، عمد إلى هذه الكتلة المائية البدئية فشققها إلى نصفين، وصنع منها السماء والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾ (21 الأنبياء: 30). ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾، أي كان الجمع متصلاً ببعضه ببعض، متلاصقاً متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر. ففتق هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء". (الجزء 17، المجلد 3، ص 238). وفي موضع آخر يروي ابن كثير عن الربيع بن أنس: "وكان عرشه على الماء. فلما خلق السماوات والأرض قَسَمَ ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور" (الجزء 11، المجلد 2. ص 75).

بعد ذلك تتابع عمليات الخلق وفق ترتيبها في القصة التوراتية تقريباً، إلا أننا لا نستطيع أن نُرجع كل عملية إلى يوم بعينه من أيام التكوين. فقد رفع الله السماء وتركها في حالة سديمية غير منظمة، ثم التفت إلى تنظيم الأرض فرسم معالمها وخلق نباتاتها وحيواناتها: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَايِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (31 لقمان: 10). ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا

وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * ﴿36﴾ (النازعات : 27-31). ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا....﴾ (21 الأنبياء : 31-32).

وقد استغرق خلق الأرض وتنظيمها أربعة أيام من أيام الخلق الستة. بعد ذلك التفت الله إلى السماء وهي في حالتها السديمية، فنظم أمورها وزينها بالأجرام المضيئة والكواكب التي تسير في أفلاكها: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *﴾ (41 فصلت : 9-12).

وهناك آيات أخرى تشير باختصار إلى فعاليات التكوين دون أن توحى بترتيب معين، منها: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ....﴾ (21 الأنبياء : 33). ﴿.... وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا....﴾ (6 الأنعام : 96). ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ....﴾ (10 يونس : 5). ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (25 الفرقان : 61). ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الْمِثْلُ حَيَاتُهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ *﴾ (36 يس : 33-34). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ....﴾ (42 الشورى : 29).

بعد ذلك يأتي خلق الإنسان كآخر عمل من أعمال التكوين: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ.... إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ *﴾ (2 البقرة : 29-30).

وكما رأينا الرب في الرواية التوراتية يستريح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، فإن الله يستوي على العرش في اليوم السابع: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.... ﴿57﴾ (الحديد: 4). ولكن الاستواء على العرش هنا لا يتضمن معنى الراحة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾⁽¹⁾ (50 ق: 38).

وهناك عنصر في الرواية القرآنية لم يرد في سفر التكوين التوراتي، وهو خلق سبع سماوات وسبع أرضين: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ....﴾ (65 الطلاق: 12). ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا....﴾ (67 الملوك: 3). ولكن مثل هذا التصور للسماء والأرض قد ورد في الأدبيات الدينية اليهودية، ومنها ما جاء في كتاب الهاجاده (وهو نوع من الشروح على التوراة يستخدم أسلوب القص). فعندما خلق الله السماء جعلها سبع طبقات تتدرج من السماء الدنيا التي تستند قبتها إلى الأرض عند الجهات الأربع، وحتى السماء السابعة التي تتصل بيدي الخالق. كما جعل الأرض أيضاً سبع طبقات. ثم جعل الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض وقسمه إلى سبع درجات، وجعل الفردوس في الجهة الشرقية وقسمه إلى سبع درجات أيضاً⁽²⁾.

وقد غدا هذا التصور لطبقات السماء والأرض جزءاً من العقائد اليهودية الراسخة، والتي تتفق مع التصورات الكوزمولوجية لثقافات الشرق القديم، التي رأت أيضاً أن السماء تتألف من سبع طبقات، وفوق السماء السابعة هناك مسكن إله السماء المدعو آنو في بلاد الرافدين، وإيل في بلاد الشام. والتي رأت أيضاً أن الأرض تتدرج هبوطاً في سبع طبقات نحو العالم الأسفل (أو الجحيم)، وفي كل بوابة من بوابات الجحيم.

(1) (= تعب).

(2) Willis Barnston, The Other Bible, Harper, Newyork, 1980, PP. 16-19.

17- قصة خلق الإنسان

الخلفية الميثولوجية:

كانت الميثولوجيا السومرية أول من عالج قصة خلق الإنسان في الأدب المكتوب، وذلك في نص يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. فقبل أن يظهر الإنسان على مسرح الأرض ويقدم لآلهته القرابين التي تقيم أودهم، كان الآلهة يعملون ويكدون في الأرض من أجل تحصيل معاشهم. ثم جاء يوم تعبوا فيه من العمل فمضوا إلى إله الحكمة إنكي ليجد لهم حلاً، ولكن إنكي لم يعط أذنًا صاغية لشكواهم، فمضوا إلى أمه نمو لتكون واسطتهم إليه. فخاطبته قائلة: "أي بني، انهض من مضجعتك واصنع أمراً حكيماً. اجعل للآلهة خدماً يقدمون لهم معاشهم. نزل إنكي عند مشيئة أمه وأعطى تعليماته بخصوص عملية صنع الإنسان التي شارك بها كل من الإلهة نمو والإلهة ننماخ (= الأم الأرض) وآلهة الصناعة وربات الولادة، وجرى صنع الإنسان من الطين على صورة الآلهة. وعند هذه النقطة ينكسر الرقيم الفخاري وتضيع بقية القصة⁽¹⁾

وقد التقطت الميثولوجيا البابلية اللاحقة العناصر الرئيسية لهذه القصة، وصاغت منها تصورات مشابهة فيما يتعلق بخلق الإنسان. ففي ملحمة أتراسيس نجد الآلهة المكلفين بالعمل والكد في الأرض يعلنون الثورة على وضعهم ويحرقون أدوات عملهم ثم يمشون إلى الإله إنليل طالبين إنصافهم، فيوكل إنليل إلى الإلهة مامي (=ننماخ أو نننو) مهمة خلق الإنسان التي تنفذها بالتعاون مع الإله إنكي، حيث يتم قتل أحد الآلهة ويعجن دمه ولحمه بالطين الذي يُصنع منه جسد الإنسان. وبذلك يتحد الإله والإنسان في عجينة واحدة⁽²⁾

(1) S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper, New York, 1961.

(2) Stephaie Dally. Mesopotamian Myths and Epics, Oxford, 1999.

ولدينا نص بابلي يتحدث عن خلق الزوجين الأولين آدم وحواء، ويدعوهما أوليجار وألجار اللذين سوف يحملان وذريتهما عبء العمل عن الآلهة. فبعد الانتهاء من فعاليات التكوين، اجتمع الآلهة وتساءلوا عما بقي عليهم خلقه. فقال بعضهم لبعض: "لنذبح بعض آلهة اللامجا (وهم فصيلة من صغار الآلهة)، ومن دمائهم فلنخلق الإنسان فنوكله بخدمة الآلهة على مرّ الأزمان. سنضع في يده السلة والمعول، فيحفر الخنادق والترع، ويسقي الأرض بأقاليمها الأربعة، ويخرج من جوفها الخيرات الوفيرة. أوليجار وألجار سيكون اسماهما"⁽¹⁾

خلق الإنسان في التوراة:

تقوم قصة خلق الإنسان التوراتية على ثلاثة عناصر رئيسة من العناصر التي قامت عليها الأساطير الرافدينية، وتضيف إليها عنصر الجنة حيث تم إسكان الإنسان الأول. وهذه العناصر هي:

1- خلق الإنسان من تراب ممزوج بالماء.

2- صنّعه على شبه الآلهة.

3- فرض عبء العمل عليه.

في الإصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين، لدينا قصتان عن خلق الإنسان كما هو الحال في الأساطير الرافدينية؛ في القصة الأول هنالك حديث عن خلق الإنسان بصورة عامة دون الإشارة إلى الزوجين الأولين، وفي القصة الثانية هنالك حديث مفصل عن خلق الزوجين الأولين. فقد خلق الله الرجل آدم أولاً وأسكنه في جنة زرعها في منطقة من الأرض يدعوها النص بشرفي عدن، ثم خلق من ضلعه المرأة حواء.

وفي الحقيقة، فإن كلمة "آدم" التي استخدمها سفر التكوين كاسم علم للرجل الأول، هي كلمة سورية قديمة تدل على الإنسان بشكل عام، وتعني "البشر"؛ وقد وردت بهذا المعنى في أكثر من موضع في نصوص مدينة

(1) Alexander Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix, Chicago, 1970.

أوغاريت. ومنها ما ورد في ملحمة كِرت ، حيث نجد الإله الأعلى إيل يلقَّب بأبي آدم ، أي أبو البشر: "وبينما كِرت يبكي وقع عليه السبات ، بينما هو يذرف الدموع غلبه النعاس ، ولكنه ما لبث أن أجفل ، إذ ظهر له في الحلم إيل ، في رؤاه ظهر أبو آدم"⁽¹⁾

سفر التكوين - القصة الأولى :

"وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: أثمروا واكثروا ، واملؤوا الأرض وأخضعوها ، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء ، وعلى كل حيوان يدب على الأرض. وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبرز بزراً ، وكل شجر فيه ثمر ليكون لكم طعاماً". (1 : 26-29).

سفر التكوين - القصة الثانية :

"هذه مبادئ السماوات والأرض حين خُلقت. يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات ، كل شجر الأرض لم يكن بعدُ في الأرض ، وكل عشب البرية لم ينبت بعد ، لأن الرب لم يكن قد أمطر على الأرض ، ولا كان إنسان ليعمل في الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ، ونفخ في أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ، ووضع هناك آدم الذي جبله. وأبنت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر... وأخذ الرب الإله آدم ووضع في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً ، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت.

(1) راجع كتابي: مدخل إلى نصوص الشرق القديم ، فصل ملحمة كِرت.

وقال الرب الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنعُ له مُعيناً نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية، وأما نفسه فلم يجد مُعيناً نظيره. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، وأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً. وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امريء قد أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. وكانا كلاهما عريانين، آدم وحواء، وهما لا يخبجلان" (2: 1-25).

غير أن الرواية غير الرسمية في الأسفار التوراتية غير القانونية وفي الأدبيات اليهودية الأخرى، تضيف العديد من العناصر إلى هذه الرواية. ولعل أكثر التوقعات غني وإثارة، هي ما قدمه لنا كتاب "الهاجاده" الذي زاد على الرواية الرسمية عدداً من العناصر، أهمها:

(أ) استطلاع الله رأي الملائكة بخصوص ما هو مقدم عليه من خلق الإنسان.

(ب) تحدي الله للملائكة لكي يخبروه بأسماء حيوانات الأرض قبل عرضها على آدم.

(ج) الله يُعلم آدم أسماء الحيوانات قبل عرضها عليه.

(د) مع خلق آدم يخلق الله جميع أرواح البشر الذين سيتسلسلون من صلبه.

وفيما يأتي أقدم ملخصاً لقصة خلق الإنسان كما وردت في الهاجاده⁽¹⁾.

"في البدء خلق الله سبعة أشياء قبل أن يخلق العالم هي: التوراة مسطرة بنار بيضاء على نار سوداء، والعرش الإلهي، والفردوس عن يمين العرش،

(1) Willis Barnstone, The Other Bible, Harper – Collins, New York, 1980, PP. 15 FF.

والجحيم عن يسار العرش، والهيكل المقدس أمام العرش، ومذبح الهيكل، وجوهرة على مذبح الهيكل محفور عليها اسم المسيح المخلص. وعندما أراد خلق العالم تشاور مع التوراة بهذا الخصوص، فأبدت التوراة شكها من جدوى خلق العالم الأرضي، لأن الناس سوف يُشحيحون بوجوههم عن تعاليمها ويقعون في المعصية. ولكن الله بدد شكوكها بقوله إنه هياً للبشر سبل التوبة والغفران قبل خلقهم، وأعد لهم وسائل تصحيح سلوكهم، وأنه قد جهز الفردوس والجحيم لأجل الثواب والعقاب، وسمى المسيح من أجل تقديم الخلاص لجميع الخطاة.

بعد أن انتهى الله من خلق السماوات وملائكتها والأرض وكائناتها جاء دور الإنسان. وهنا يستطلع الله رأي رؤساء الملائكة فيما يتعلق بهذه الخطوة، فجاءت مشورة معظمهم في غير صالح الإنسان، لأنه سيكون ممتلئاً بالكذب والغش والخداع، ميالاً إلى النزاع والخصام. فقال لهم: من أجل من خلقت طير السماء وسمك البحر وحيوان الأرض؟ وما نفع وليمة أعدت فيها كل الطيبات وما من ضيف يتمتع بها؟ فأجاب الملائكة: ليكن اسمك ممجداً في الأرض كلها، ولتأت مشيئتكم بما تراه مناسباً.

أرسل الله الملاك جبرائيل وأمره أن يأتيه بأربع قبضات من تراب جهات الأرض الأربع، ثم عجنها بيديه وسواها في هيئة الإنسان، ثم نفخ في الصورة من روحه فصار آدم نفساً حية. وبذلك صار الإنسان أقدم مخلوقات الله لا آخرها في ترتيب الخلق، باعتبار ما لروحه من قدم هو قدم الروح الإلهية ذاتها. ومع خلق آدم خلق الله جميع أرواح البشر الذين سيتسلسلون من صلبه إلى يوم القيامة، وحفظها في مكان خاص من السماء السابعة. وسيكون إذا حملت امرأة من نساء الأرض، فإن الله يقرر للكائن الجديد كل صفاته وخصائصه عدا تلك المتعلقة بالخير والشر، لأنه سيكون إنساناً مخيراً في سلوكه يتحمل تبعات أعماله. بعد ذلك يأمر الله خازن الأرواح أن يأتيه بالروح التي اسمها كذا، وتؤمر أن تحل في الجسد الذي بدأ في التكون.

ولقد خرج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين في العشرين من عمره، فأُسكنه في جنة عدن ليحفظها ويرعاها، لا بواسطة عمله الجسدي، وإنما من خلال دراسته للتوراة والتزامه وصايا ربه. هذه الجنة قد زرعها الله في عدن شرقاً وذلك في اليوم الثالث من أيام التكوين، وقسمها إلى سبع درجات لتستقبل كل درجة أهلها وفق ما قدموا في الحياة الدنيا، وجعل لها بوابتين عليهما ألوف من ملائكة الرحمة. فإذا وصل واحد من أهل الجنة نضى الملائكة عنه حلّة القبر وألبسوه عباءة من سحاب المجد، ووضعوا على رأسه إكليلاً من لآلئ وأحجار كريمة، وفي يده سبعة أغصان تفوح بأطيب روائح الجنة، ثم اقتادوه إلى مكان ربيع دائم تجري تحته أربعة أنهار، فنهر من لبن، ونهر من بلسم، وثالث من خمر، ورابع من غسل. وهناك عرائش تتدلى منها عناقيد من ذهب وجواهر، وتحت كل عريشة مائدة منصوبة من حجر كريم يقف عليها ستون ملاكاً يقولون للرجل الصالح: كل طعامك بفرح. وليس في المكان نور يأتيه من خارجه، لأن نوره مستمد من ضياء وجوه الصالحين الذين تحولت هيئاتهم فصارت تضاهي يوسف في الحسن والجمال.

بعد أن أسكن الله آدم في الجنة، أراد أن يثبت للملائكة الذين عارضوا في خلق آدم تفوقه عليهم، فجمع حيوانات الأرض وعرضها عليهم لينبئوه بأسمائها ولكنهم عجزوا عن ذلك، ثم عرضها على آدم بعد أن علّمه أسماءها وحياءاً، فسمّاها آدم بأسمائها. فلقد كان آدم نبياً وحكمته من حكمة الأنبياء".

خلق الإنسان في القرآن:

تقوم الرواية القرآنية عن خلق الإنسان على العناصر نفسها التي وجدناها في سفر التكوين وفي كتاب الهاجاده، على ما تبينه المقارنة الآتية:

1- جسد الإنسان يُصنع من الطين.

"وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض". (التكوين 2: 7)

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (55 الرحمن: 14)

2- يستخدم الله يديه في صنع الإنسان تكريماً له على باقي المخلوقات :

"وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض". (التكوين 2 : 7). "عجن الله بيديه أربع قبضات من تراب الأرض وسواها إنساناً". (الهاجاده).

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِكَ...﴾ (39 الزمر : 75)

3- بعد أن صنع الله جسد آدم من تراب، نفخ فيه من روحه ليصير نفساً إنسانية :

"ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية" (التكوين 2 : 7). "ثم نفخ في صورة آدم من روحه، فصار آدم نفساً حية" (الهاجاده).

﴿...وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ * ... ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ...﴾

(32 سورة السجدة : 7-9)

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (38 ص : 71-72).

4- الله يستشير الملائكة في مسألة خلق الإنسان قبل أن يقدم عليه :

"استطلع الله رأي رؤساء الملائكة فيما هو مقدم عليه، فجاءت مشورة معظمهم في غير صالح الإنسان، لأنه سيكون ممتلئاً بالكذب والغش والخداع، ميالاً إلى النزاع والخصام" (الهاجاده).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (2 البقرة : 30).

5- الله يُعد جنة غناء في منطقة شرقي عدن، ويسكن فيها آدم :

"وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي صنعه" (التكوين 1 : 8)

"ولقد خرج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين في العشرين من عمره، فأسكنه الله في الجنة التي غرسها في عدن شرقاً" (الهاجاده).

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ....﴾ (السورة 20: طه: 76). ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا....﴾ (2 البقرة: 35).

6- "مع خلق آدم خلق الله جميع أرواح البشر المتسلسلين من صلبه إلى يوم القيامة، وحفظها في مكان خاص من السماء السابعة" (الهاجاده).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى...﴾ (7 سورة الأعراف: 172).

7- الله يتحدى الملائكة أن يخبروه بأسماء حيوانات الأرض:

"وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها... فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية" (التكوين 2: 19-20).

"بعد أن أسكن الله آدم في الجنة، أراد أن يثبت للملائكة تفوقه عليهم، فجمع حيوانات الأرض وعرضها عليهم زوجاً زوجاً لينبئوه بأسمائها، ولكنهم عجزوا. فعرضها على آدم بعد أن علمه أسماءها وحياتها، فسمهاها آدم بأسمائها" (الهاجاده).

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِيَّيَّيْ أَغْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ....﴾ (2 البقرة: 31-33).

8- الله يخلق المرأة من جسد آدم:

"فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم" (التكوين 2: 2-22). "ودعا آدم اسم امرأته: حواء. لأنها أم كل حي (التكوين 3: 20).

﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا....﴾ (39 الزمر: 6). ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً....﴾ (4 سورة النساء: 1). وكما نلاحظ هنا فإن القرآن الكريم لا يتعرض لعنصر الضلع الذي أخذ من آدم، ويكتفي بالقول بأن المرأة قد خلقت من الرجل، كما إنه لا يشير إلى اسم المرأة الأولى.

18- إبليس الملاك الساقط

الخلفية التاريخية:

لقد واجه الإنسان منذ فجر وعيه ثلاثة أنواع من الشرور وهي:

1- الشرور الطبيعية: مثل البراكين والزلازل والأعاصير والفيضانات والحرائق.

2- الشرور البيولوجية: مثل الألم والمرض والشيخوخة والموت.

3- الشرور الأخلاقية: مثل السرقة والاعتصاب والتسلط والظلم.

ولكن أديان الإنسان القديم لم تربط بين هذه الشرور ومصدر كوني للشر، وإنما عزتها إلى وجود أرواح أو آلهة خيرة بطبيعتها وأخرى شريرة بطبيعتها. فالنظام المستقر والمتوازن على المستوى الطبيعي والبيولوجي تدعمه هذه، والخروج على النظام تقوم به تلك. وقد قاده هذا التصور إلى تطوير نوعين من الطقوس: الأول يهدف إلى طلب عون الآلهة الخيرة، والثاني يهدف إلى اتقاء أذى الآلهة الشريرة. أما الشر الأخلاقي فقد بقي شأناً اجتماعياً لا يتصل بتلك القوى الماورائية أرواحاً كانت أم آلهة. فالذي يسرق أو يظلم أو يعتدي ليس مدفوعاً من قبل إله خير، والذي ينصف ويحسن ويرأف ليس مدفوعاً من قبل إله شرير. وهكذا تركت المجتمعات الإنسانية لتدير شؤونها الأخلاقية من خلال أعرافها وعاداتها المحلية دون وصاية من قوة قدسية ما.

من خلال هذه التصورات، لم يكن وجود الشر في العالم يطرح أي مشكلة على الفكر الديني للإنسان القديم. ولكن هذه المشكلة غدت أكثر إلحاحاً مع ميل الفكر الديني المشرقي إلى مفهوم التوحيد في سياق الألف الأول قبل الميلاد، عندما أخذ ذلك الفكر ينظر إلى الكون باعتباره وحدة مترابطة متكاملة يسودها نظام دقيق يجمع الأجزاء إلى بعضها في توازن محكم، ويرى وراء هذا الكون

قدرة إلهية واحدة غير مجزأة، كلية الحضور وكلية القدرة وكلية المعرفة، إليها تُعزى كل الكمالات التي تنتهي جميعاً إلى كمال الخير. عند هذه النقطة وجد الفكر التوحيدي نفسه أمام مشكلة تتطلب الحل؛ فإذا كان الله هو الخير المحض فمن أين يأتي الشر؟ أمام هذا السؤال تحولت آلية التفكير الجدلية بطبيعتها عند الإنسان إلى مفهوم الشيطان الكوني. وهذا الشيطان ليس كائناً ماورائياً شريراً من تلك الكائنات التي عرفتھا الديانات السابقة، وإنما هو أصل الشر ومنبعه على المستوى الطبيعي والبيولوجي والأخلاقي. إنه نقیض الله على كل صعيد.

كانت الزرادشتية (وهي أول ديانة توحيدية معروفة لنا تاريخياً، إذا استثنينا الآتونية المصرية التي لا نعرف عنها الكثير) أول عقيدة مشرقية صاغت مفهوماً متكاملًا عن الشيطان الكوني. فوق التعاليم الأصلية لزرادشت، لم يكن في البدء سوى الله الذي يدعوه زرادشت أهورامزدا، وجود كامل وتام، قائم بذاته ومكتفٍ بنفسه. ثم إن الله اختار الخروج من حالة الكمون والظهور لمخلوقاته، فصدر عنه روحان توءمان هما سبيتا مانيو وأنجرا مانيو، اللذان وهبهما الله أهم خصیصة تميزهما عنه وتجعلهما كائنين مستقلين وهي خصیصة الحرية، فاختار الأول طريق الخير ولذلك دُعي سبيتا مانيو أي الروح المقدس، واختار الثاني طريق الشر ولذلك دُعي أنجرا مانيو أي الروح الخبيث. ثم إن الروح المقدس سبيتا مانيو عمد بمعونة أهورامزدا إلى إظهار ستة كائنات قدسية هم الأُميشا سبيتا أي المقدسون الخالدون، وهؤلاء بدورهم عمدوا إلى إظهار عدد من الكائنات الطيبة تدعى بالأهورا. أما الروح الخبيث أنجرا مانيو فقد أظهر إلى الوجود عدداً من الكائنات الشريرة تدعى بالديفا. وهكذا فقد تم تأسيس معسكر الخير في مقابل معسكر الشر في انتظار المجابهة على مسرح العالم المادي الذي خلقه بعد ذلك أهورامزدا على ستة مراحل، وكان الإنسان آخر ما خلق في المرحلة السادسة. ومع خلق الإنسان انطلق التاريخ الذي سيشهد صراعاً لا هوادة فيه بين المعسكرين، وينتهي بالانتصار المؤزر لقوى الخير على قوى الشر. وسوف يقود المعركة الأخيرة ضد قوى الشر مخلصٌ منتظر يدعى ساوشيانط، وهو الذي يقضي على الشيطان. وبعد ذلك يجري تدمير العالم القديم الملوث

بالشر، ثم تجديده ليغدو جنة أرضية. ثم تُفتح القبور في يوم النشور، فتَهبط الأرواح من البرزخ الذي كانت تقيم فيه لتتحد مع أجسادها وتأتي إلى الحساب الذي يفصل بين الأشرار والأخيار. فأما الأشرار فيحرقهم نهر من النار ويمحو أثرهم بعد عذاب أليم، وأما الأخيار فيعيشون في الجنة الأرضية بعد أن يسقيهم ربهم شراب الخلود⁽¹⁾.

الشیطان في التوراة:

لم تتعرض قصة الخلق التوراتية إلى خلق الملائكة أو الشياطين أو أي كائنات ما وراءية أخرى، على الرغم من أن هذه الكائنات تبدأ بالظهور تبعاً بعد ذلك. ولكن محرّر سفر التكوين ترك لنا جملة غامضة في نهاية قصة الخلق يقول فيها: "فأكملت السماوات والأرض وكل جندها، وفرغ في اليوم السابع من عمله وهذا يعني أن يهوه لم يكن وحيداً عندما فرغ من خلق العالم، بل كان محاطاً بحشد من الكائنات الماورئية التي دعاها المحرر بجند السماء. وعلى الرغم من استخدام المحررين التوراتيين معاني مختلفة لتعبير جند السماء. إلا أنهم استخدموه في معظم الأحيان كمترادف لتعبير ملائكة الرب، وهؤلاء هم خدمه العاملون على تنفيذ أوامره ومساعدته في تدبير شؤون الكون. نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني على لسان النبي ميخا: "قد رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جنود السماء وقوف عن يمينه ويساره" (2 أخبار 18: 18). وفي المزمور 103: باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة، الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه. باركوا الرب يا جميع جنوده، خدامه العاملين مرضاته" (103: 19-21).

ومن بين جند الرب، أو جند السماء، جماعة أشرار هم الشياطين. وهؤلاء ليسوا خلقاً مستقلاً وإنما فريق من الملائكة موكلون بشؤون الشر هم أداة غضب يهوه: "أرسل عليهم حُمُومَ غضبه، سخطاً ورجزاً وضيقاً، جيش ملائكة أشرار مهَّد طريقاً لغضبه" (المزمور 78: 49-50). من هؤلاء الأشرار اثنان يسييران مع يهوه

(1) لمزيد من الاطلاع على لاهوت الشيطان في الزرادشتية، راجع مؤلفي "الرحمن والشیطان" فصل ميلاد الشيطان..

عندما يخرج في مهام التدمير ، أحدهما يدعى في النص العبري رشف ، وهو إله الأوبئة الفتاكة في الميثولوجيا الكنعانية ، والثاني يدعى دبير أي الحمى : "جلاله غطى السماوات والأرض امتلأت من تسيحه ، وكان له لمعان كالنور . قدامه ذهب الرباء (=رشف) ، وتحت رجله خرجت الحمى (=دبير)⁽¹⁾... بغضبٍ خطرَتْ في الأرض ، بسخطٍ دُستَ الأمم" (حقوق 3 : 3-12) . ومنهم واحد يدعى المهلك مكلف بالتخريب والتدمير . نقرأ على لسان يهوه في سفر إشعيا : "وأنا خلقت المهلك ليُخرب" (إشعيا 54 : 16) . وفي سفر إرميا : "قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم ، خرج من مكانه ليَجعل أرضك (يا يهوذا) خراباً ، تَهلك مدنك فلا ساكن" (إرميا 4 : 7) . وبينهم أرواحٌ رديئةٌ تتلبس من يخطئ أمام الرب وتسبب له الجنون ، على ما حدث للملك شاول : "وذهب روح الرب من عند شاول وبغتهُ روح رديء من قِبَل الرب... وكان في الغد أن الروح الرديء من قِبَل الرب اقتحم شاول وجُنَّ في وسط البيت" (صموئيل الأول 16 : 14 و 18 : 10) .

بين هذه الكائنات الشريرة التي تعمل تحت إمرة يهوه شخصية رئيسة تدعى بأكثر من اسم ؛ فتحت اسم عزازيل نجده أشبه بالجن التي تسكن البوادي والقفار غير المأهولة ، وهو يقتسم قربان الخطيئة مع يهوه ، أي القربان الذي يغسل بدمه خطايا الشعب ، الأمر الذي يدل على علو مكانته . نقرأ في سفر اللاويين : "ويأخذ هرون التيسين ويوقفهما أمام الرب لدى باب خيمة الاجتماع ، ويلقي على التيسين قرعتين ؛ قرعة للرب وقرعة لعزازيل . ويقرب هرون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحةً خطيئةً ، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقفه حياً أمام الرب ليُكفّر عنه ليرسله إلى عزازيل في البرية" (اللاويين 16 : 5-10) . وتحت الاسم بليعال نجده موكلًا بشؤون فاعلي الإنم الذين يدعوهم النص ببني بليعال (راجع على سبيل المثال سفر القضاة 19 : 22-23) ، وسفر الملوك الأول (10 : 21) . وتحت الاسم شيطان ، وهو بالعبرية شطن أي

(1) بخصوص رشف ودبير راجع :

- W. F. Allbright, Yahweh and the Gods of Canaan, Anchor, 1969, pp. 186, 139-140.

المقاوم والمعاند، نجده في اتفاق مع يهوه ينفذ مهام توكل إليه، على ما نستنتج من المزمور 109 الذي يدعو كاتبه ربه أن يرسل من عنده شيطاناً على خصمه: "فأقم أنت عليه شريراً وليقف شيطان عن يمينه. إذا حوكم فليخرج مذنباً، وصلاته فلتكن خطيئة" (المزمور 109: 6-8). كما نجده يعمل في استقلال عن يهوه معارضاً لمشيئته، على ما نجد في سفر زكريا، حيث ينتهر الرب الشيطان لأنه وقف عن يمين الكاهن زكريا ليقاومه: "وأراني (الملاك) الكاهن العظيم يهوشع قائماً قدام الرب والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه. فقال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان، لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم" (زكريا 3: 1-2).

والشيطان كشخصية مستقلة في عملها قادر على خداع يهوه، على ما نرى في سفر أيوب عندما أوغر صدر يهوه على عبده الصالح أيوب بعدما سمع منه مديحاً بحقه، ووصفه بأنه رجل صالح كامل ومستقيم. فقال له إن أيوب لا يتقيه مجاناً، وإنما لما أغدق عليه من سعة في الرزق وصحة في البدن، ولكن إذا ناله الضرر من ربه فإنه سيجدف عليه. عند ذلك أطلق يهوه يد الشيطان في أيوب لينزل به المصائب في ماله وأهله وصحته، لكي يختبر قلبه.

هذه هي الملامح العامة لشخصية الشيطان كما تتبدى لنا في النص التوراتي. وكما نلاحظ، فإن الشيطان التوراتي لم يتحول إلى مبدأ كوني للشر حتى اختتام الأسفار القانونية في القرن الثاني قبل الميلاد. والسبب في ذلك راجع إلى تقصير الأيديولوجيا التوراتية عن بلوغ مفهوم الكمال والخير المطلق في شخصية يهوه، الذي بقي يتصرف حتى النهاية كزعيم قبلي مدفوع بردود أفعاله الآنية وبعواطفه الفطرية مثل الغضب والغيرة والانتقام، وهذا ما دفع بالشيطان إلى دائرة الظل عبر أحداث الرواية التوراتية، لأن يهوه هو صانع الخير وصانع الشر في آن معاً، على ما يعلن محرر سفر إشعيا على لسان إلهه: "أنا الرب وليس آخر. مصور النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر. أنا صانع كل هذا" (إشعيا 45: 6-7). ونقرأ في سفر يشوع بن سيراخ: "الخير والشر، الحياة والموت، الفقر والغنى، من عند الرب" (11-14). ولكن شخصية الشيطان تطورت بعد ذلك على يد محرري الأسفار غير القانونية التي مارست تأثيراً كبيراً في الفكر التلمودي وفي العقائد

اليهودية، على الرغم من بقائها على هامش النص الرسمي للكتاب. وقد كان للأفكار الدينية الزرداشتية أثر كبير في نضوج لاهوت الشيطان في العقائد اليهودية بعد أن آلت المنطقة السورية إلى الحكم الفارسي بين عام 539 و 333 ق.م.

يقدم لنا سفر أخنوخ الأول الذي ترجع أصوله الأولى إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، التصورات اللاهوتية المبكرة التي تشرح انقسام الملائكة إلى فريق صالح وآخر طالع شرير. ففي تلك الأيام الأولى:

"عندما تكاثر بنو الإنسان وولد لهم بنات حسنات وجماليات، حدث أن فريقاً من الملائكة أبناء السماء رأوا بنات الأرض فاشتبهوهن. فقال بعضهم لبعض: هلم بنا نختار لأنفسنا زوجات من بني الإنسان وننجب منهن نسلًا. فقال لهم رئيسهم سيمياز: أخشى أن تتراجعوا عن فعل هذا الأمر بعد الشروع به فأدفع وحدي ثمن هذه الخطيئة العظيمة. فأجابوه جميعاً: دعونا نقسم قسماً بأن نحل اللعنة على من يتراجع عن فعل هذا الأمر. فأقسموا جميعاً وارتبطوا بقسم اللعنة هذا. ثم نزلوا فهبطوا على قمة جبل حرمون، وكان عددهم مئتين. وقد سمي الجبل حرمون نسبة إلى قسمهم الذي ربطهم باللعن (لأن كلمة حرم بالعبرية تعني لعنة). وهذه أسماء رؤسائهم: سيمياز، راميثيل، تاميثيل، دانييل... (إلخ). هؤلاء هم رؤساء العشرات، وكان الجميع تحت إمرتهم"⁽¹⁾.

بعد ذلك يتابع الكاتب فيقول إن زوجات هؤلاء الملائكة الساقطين ولدن لهم أولاداً عمالقة أكثروا من الشر في الأرض وأكلوا الأخضر واليابس. وعندما لم يبقَ ما يكفي لطعامهم راحوا يلتهمون البشر أيضاً، فصعد صراخ البشر إلى السماوات. عند ذلك نظر الملائكة ميخائيل وسورافيل وجبرائيل من الأعالي ورأوا ما يجري على الأرض من شر وعنف، فمضوا إلى الرب وأطلعوه على الأمر، فبعث الرب مع الملائكة إلى أخنوخ يأمره أن يذهب إلى الساقطين وينقل لهم قضاء السماء بشأنهم؛ فهم سيشهدون ذبح أولادهم العمالقة ثم يقيدون في

(1) المقتبسات التي أوردها هنا من سفر أخنوخ هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية:

- J. H. Charlesworth, ed, The Old Testament Pseudepigrapha, New York, 1983. vol. 1, p. 13 ff.

ثنايا الأرض حتى يوم الدينونة عندما يقادون إلى هوة النار والعذاب الأبدي. سمع الساقطون حكم الرب عليهم فارتاعوا والتمسوا من أخنوخ التوسط لهم لدى الرب علّه يقبل استرحامهم واستغفارهم. فمضى أخنوخ وجلس عند ضفة النهر حيث قرأ استرحام الساقطين، ثم غرق في نوم عميق وعرضت له رؤيا حملته إلى السماء حيث وضعه الملائكة في حضرة الرب الذي كلمه قائلاً: "لا تخف يا أخنوخ أيها الرجل الطيب يا كاتب الصدق. تقدم إلي واسمع صوتي. اذهب إلى ساهري السماء (وهو لقب الساقطين لأنهم كانوا مكلفين بالسهر على أحوال الأرض وتفقدوها على الدوام) وقل لهم: كان أخرى بكم أن تسترحموا من أجل الإنسان لا أن يسترحم الإنسان من أجلكم. وقل لهم: لماذا توليتم عن السماء العليا المقدسة لتناموا مع النساء وتتدنسوا بينات الناس، وتأخذوا لكم زوجات مثل بني البشر وتنجبوا منهن أولاداً عمالقة؟... لقد أعطيت رجال البشر زوجات يخصبوهن حتى لا يفنى جنسهم على الأرض، أما أنتم فكنتم روحانيين وخالدين على مرّ أجيال الأرض، فلم أعطكم زوجات لأن السماء مسكنكم. والآن فإن العمالقة أولادكم، نسل الروح والجسد، سيدعون أرواحاً شريرة لأن أرواحاً خبيثة سوف تنشأ عن أجسادهم (المذبوحة) ويكون في الأرض مسكنها... سوف يسببون الأذى والعنف والدمار على الأرض، ويدفعون الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية... عندما يهلك العمالقة سوف تعيث الأرواح الخارجة منهم فساداً وترتع بلا رادع إلى يوم الحساب الأخير يوم يهلك الساهرون الساقطون".

يقدم لنا هذا النص شرحاً لأسباب وجود الشر في العالم، إلا أنه يبقى ضمن الرؤيا التوراتية الرسمية للخير والشر على أنهما من صنع يهوه، الذي على الرغم من عقابه للعمالقة إلا أنه ترك أرواحاً شريرة تنشأ عن أجسادهم القتيلة تدفع الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية، أما الملائكة الساقطون فسيقون على قيد الحياة إلى يوم الحساب الأخير. هذه الفكرة سوف يجري تطويرها في سفر اليوبيليات (=الخمسينيات) الذي تنضج فيه شخصية الشيطان كرئيس للأرواح الشريرة، وتبدأ باتخاذ خصائص المبدأ الكوني للشر.

وُجدت أجزاء من سفر اليوبيليات بين نصوص قمران باللغة العبرية، الأمر

الذي يدل على أن أصوله ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد. كما وُجدت أجزاء منه مترجمة إلى اللغة اللاتينية. أما النص الكامل فمتوافر فقط في اللغة الأثيوبية. والكنيسة الأثيوبية ما زالت حتى الآن تعدّه من الأسفار القانونية لكتاب العهد القديم. يقتفي مؤلف هذا السفر أثر مؤلف سفر أخنوخ الأول في موضوع الملائكة الساهرين الذين هبطوا إلى الأرض وتزوجوا من بنات الناس، وأولادهم العمالقة، والأرواح الشريرة التي أفسدت في الأرض. ثم يضيف إلى ذلك قصة الطوفان العظيم الذي أرسله الرب إلى الأرض بعد أن كثّر شر البشر وأفنى به كل ذي روح إلا نوحاً ومن في الفلك معه. ولكن قوى الشر ما لبثت أن نشطت مجدداً. نقرأ في الفصل العاشر من السفر ما يأتي:

"في الأسبوع الثالث من تلك الخمسينية، أخذ الشياطين المتمردون بتضليل نسل نوح ودفعهم إلى الرذالات وإهلاكهم. فجاء أولاد نوح إلى أبيهم وحدثوه بأمر الشياطين التي تعمي وتهلك أحفاده. فصلى نوح إلى الرب إلهه وقال: يا إله الأرواح التي تقيم في كل جسد، أنت الذي رحمني مع أولادي وأنقذني من مياه الطوفان فلم أهلك مع أبناء اللعنة... أسبغ نعمتك على أولادي ولا تدع للأرواح الشريرة عليهم سلطاناً... أنت تعلم ما فعله ملائكتك الساهرون آباء هذه الأرواح في أيامي، وما فعله من بقي من هذه الأرواح (بعد حملتك عليهم). فلتوقع بهم وتقودهم إلى مكان الحساب ولا تتركهم يعيشون فساداً بين أبناء خادمك، لأنهم يا إلهي قساة وقد خلّفوا لكي يدمروا، فلا تدع لهم سلطاناً على نفوس البشر"⁽¹⁾.

يستجيب الرب لصلاة نوح، ويأمر فريقاً من الملائكة بمطاردة الشياطين وتقييدهم، ولكن رئيسهم مستيماً يلتمس من الرب أن لا يهلك أتباعه جميعاً بل يترك له قسماً منهم. فيوافق الرب على إمهاله ومن بقي من أتباعه إلى نهاية الزمن:

"فأمرنا الرب إلهنا (والكلام هنا للملاك الذي يملي الكتاب على موسى) أن نوثقهم جميعاً، ولكن رئيس الأرواح مستيماً مثلاً أمام الرب وقال له: أيها الإله

(1) هذه المقبسات من البوبيليات هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص 75 وما بعدها.

الخالق، اترك لي بعضاً منهم ليستمعوا إلي ويفعلوا ما أمرهم به، لأنه إذا لم يبق منهم أحد معي لا أستطيع بسط سلطاني على بني البشر، لأن شر البشر عظيم وبنو الإنسان منذرون للضلالة قبل أن يصدر حكمك بشأني. فأمر الرب أن يبقى عشر الأرواح الشريرة مع مستيما، وأن ينزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب. ثم أمر واحداً منا أن يُعلّم نوحاً كل سبل الشفاء من شر الشياطين، لأنه يعرف أن البشر لن يسيروا ولن يجاهدوا في سبل الحق والخير

بعد ذلك يدخل يهوه والشیطان في علاقة معقدة، فهو يقيده ليكيف أذاه أحياناً، ثم يطلقه لكي يتابع مهامه في أحيان أخرى. وسأكتفي فيما يأتي بمقطع من أحداث سفر الخروج كما يرويهِ كاتب النص. والمتحدث هنا هو يهوه:

"ولقد انتصب الرئيس مستيما أمامك يا موسى وحاول تسليمك ليد فرعون، كما أنه حاول مساعدة سحرة مصر الذين مارسوا سحرهم أمامك... ولكن الرب ضربهم بقروح رديئة ومنعناهم عن إتيان معجزة واحدة. ولكن الرئيس مستيما لم ينخزل بل استجمع قواه وأهاب بالمصريين أن يلاحقوك بكل جيوشهم وبكل عرباتهم وخيلهم، ولكنني حلتُ بين المصريين وإسرائيل وخلصنا إسرائيل من يد فرعون وشعبه... وفي الأيام الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر، كان الرئيس مستيما مقيداً ومحجوراً خلف مكان بني إسرائيل لكي لا يلاحقهم ويوقع بهم. وفي اليوم الثامن عشر حللنا قيوده مع أتباعه لكي يساعد المصريين على ملاحقة إسرائيل، فشدد عزيمة المصريين وقواهم، ثم قيدناه مجدداً... إلخ".

يبقى هذا النص أميناً لفكرة مسؤولية يهوه عن وجود الشر في العالم، ثم يضيف إليها فكرة المهلة التي منحها يهوه للشیطان لكي يتابع مهامه في غواية البشر. بعد ذلك تتطور قصة الشيطان نحو شكلها الأخير، حيث نجد أن سقوط الملاك الرئيس ومن تبعه من أوليائه، لم يكن بسبب رغبتهم في نساء البشر. وإنما بسبب عصيان الملاك الرئيس أمر ربه بالسجود لآدم. وهذا التنويع على القصة موجود في أكثر من نص.

تبدأ قصة عصيان الملاك الرئيس في سفر أسرار أخنوخ (أو أخنوخ الثاني)، الذي يقدم تنويعه الخاص على قصة الخليقة التوراتية. فلقد خلق الرب الملائكة من جوهر النار، وذلك في اليوم الثاني من أيام التكوين، وجعلهم في طبقات لكل طبقة رئيس. ولكن أحد رؤساء هذه الطبقات ويدعى ساتانا إيل، تصور في قلبه خطة مستحيلة، وهي أن يعلو ويصبح نداً للعلي في القوة، فتمرد هذا الملاك الرئيس على خالقه ثم أغوى من تحته من الملائكة وزين لهم العصيان. ولكن الرب رماه من الأعالي مع ملائكته، ففقدوا بريقهم الإلهي وتحولوا إلى أرواح متمردة شريرة تهيم فوق وجه الهاوية السفلى⁽¹⁾.

في كتاب حياة آدم الذي يعود تاريخ نصه الأصلي إلى زمن ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي، نجد أن سبب سقوط الملاك الرئيس هو رفضه السجود لآدم. والقصة هنا يرويها الشيطان نفسه لآدم بعد طرده من الفردوس عندما حاول إغواءه وزوجته مجدداً، فصرخ آدم في وجهه قائلاً: الويل لك أيها الشيطان. لماذا تهاجمنا دون سبب؟ وما الذي فعلناه حتى تلاحقنا دوماً بالمكر والخديعة:

"فتنهد الشيطان وقال: أنت السبب في كل هذا العداء والحسد. بسببك أنت طُردتُ وحُرمتُ من مجدي في السماء بين الملائكة، وبسببك أنت رُميتُ من الأعالي إلى الأسافل. فقال آدم: ما الذي فعلته لك؟ وعلى ماذا تلومني؟ لماذا تلاحقنا ولم نسبب لك ضرراً ولا أذى؟ فأجاب الشيطان: عن أي شيء تتحدث يا آدم؟ بسببك أنت أخرجتُ من هناك، وبعد خلقك أنت أبعدتُ من حضرة الرب وصحبة الملائكة. فبعدما صنعك الرب على صورته ونفخ في أنفك نسمة الحياة، أتى بك ميكائيل لنسجد لك في حضرة الرب الذي قال لك: انظر يا آدم؛ لقد صنعناك على صورتنا كشبهنا. ولقد دعا ميكائيل كل الملائكة قائلاً: اسجدوا لصورة الرب الإله كما أمر. وكان ميكائيل أول الساجدين، ثم دعاني إلى السجود قائلاً: اسجد لصورة الإله يهوه. فأجبت: أنا لا أسجد لآدم. وعندما ألح علي قلت

(1) من ترجمتي عن المرجع السابق، المجلد الأول، ص 148.

له: لن أسجد لمن هو أدنى مني مرتبة، فلقد خلقت قبله وعليه هو أن يسجد لي. لما سمع الملائكة التابعون لي قولي رفضوا السجود أيضاً. ولكن ميكائيل أَلَحَّ علينا قائلاً: إذا لم تسجدوا سوف يصب الرب جام غضبه عليكم. فقلت: إذا غضب الرب علي سوف أرفع لنفسي كرسيّاً فوق النجوم وأصبح نداً للعلي. فلما سمع الرب قولي ثار غضبه وأنزلني من مرتبة المجد مع أتباعي وطرّدنا من مقرنا الأعلى إلى الأرض حيث لبثنا نندب مجدنا الضائع. وقد آلمني أن أراك تنعم بالبركة، فحُتّت زوجتك بالخديعة وأغويتها فجعلتها سبب فقدانك أفراح النعيم مثلما فقدتُ بسببك مجدي العظيم⁽¹⁾

في أحد نصوص الهاجاده (وهي مجموعة شروح على هامش التلمود دونت في القرون الأولى للميلاد من أجل تقريب المعتقدات التلمودية إلى ذهن عامة الناس من خلال أسلوب القص المشبع بالميثولوجيا)، لدينا رواية مشابهة عن عصيان الملاك الرئيس المدعو ساتان للأمر الإلهي. فبعد أن خرج آدم إنساناً تام التكوين من يد الخالق، أمر الرب كل الملائكة أن يسجدوا لآدم ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين لكي يضرب للآخرين مثلاً في الطاعة والخضوع للأمر الإلهي. ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم، رفض السجود قائلاً للرب: لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننظر أمام من خلقته من تراب الأرض؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكمةً وفهماً. وهنا تدخل ميكائيل وألح على ساتان قائلاً: إذا لم تبجل آدم وتخضع له عليك أن تتحمل عاقبة غضب الرب. فأجابه ساتان: إذا صب غضبه علي سوف أرفع عرشي فوق النجوم وأغدو نداً للعلي. فلما سمع الرب منه ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى نحو الأرض. وتبعه حشد من الملائكة الذين شجعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسد لآدم ورفض لسموه عليهم. ومن تلك اللحظة صارت عداوة بين الشيطان والإنسان⁽²⁾

(1) من ترجمتي عن المرجع السابق، المجلد الثاني ص 262.

(2) Willis Barnstone, ed, The Other Bible, Harper, New York, 1984, p.30.

وتتجلى عداوة الشيطان للإنسان بأكثر من طريقة، فهو يزين له الشر ويبعده عن طريق الخير، ويغذي في نفسه نوازع الطمع والحسد والغرور ويدفعه إلى الكذب والغضب والظلم والفسق، وكل نقيصة أخرى في السلوك الإنساني. ولعل من أهم وظائف الشيطان في هذه الأسفار كونه ولي الكافرين، في مقابل يهوه ولي المؤمنين. ففي النص لمعروف بعنوان رؤيا إبراهيم، الذي يُرجع الباحثون تأليفه إلى أواسط القرن الثاني الميلادي، يصعد إبراهيم إلى السماء حيث يريه الرب تاريخ الأرض معروضاً عليه دفعة واحدة. ومن بين ما رأى جنة عدن وفيها آدم وحواء وبينهما الشيطان عزازيل يطعمهما من ثمار الشجرة المحرمة، وعن يمين ويسار المشهد مجموعتان كبيرتان من الناس. يسأل إبراهيم ربه عن أهل اليمين وأهل اليسار هؤلاء، فيجيبه بأن أهل اليسار هم الخطاة الذين أداروا ظهرهم للرب فأعطاهم إلى عزازيل ليسود عليهم، أما أهل اليمين فهم شعب الرب الذين آمنوا به واتبعوا وصاياه، فهو وليهم إلى يوم الدينونة⁽¹⁾.

ونقرأ في مخطوط نظام الجماعة، وهو من مخطوطات البحر الميت، ويرجع بتاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد ما يأتي: "في يد أمير الأنوار سيادة على جميع أبناء الرب فهم في طريق النور يسرون، وفي يد ملاك الظلمة سيادة على جميع أبناء الضلال فهم في طريق الظلام يسرون. ولكن بسبب ملاك الظلمة يضل أبناء البر أيضاً، فكل آثامهم وخطاياهم ومعاصيهم هي بسببه. حسب أسرار الرب، إلى نهاية الزمن"⁽²⁾.

في القرآن الكريم:

يدعى الملاك الساقط في القرآن الكريم بالشيطان، وهي من الكلمات الأجنبية. وقد وردت في العبرية التوراتية بصيغة شطن، وفي الأسفار التوراتية غير القانونية بصيغة ساتان أو ساتانا إيل، وفي السريانية بصيغة سوتونو. ومنها جاءت الكلمة

(1) موسوعة الأسفار غير القانونية، المجلد الأول، ص 700-701.

(2) عن ترجمة الدكتور الخوري بولس الفغالي: كتابات قمران، الرابطة الكتابية، بيروت 1997، ص 29-30.

الإنكليزية Satan. كما يدعى الملاك الساقط في القرآن أيضاً بالاسم إبليس، وهو على ما يبدو صيغة محرفة عن الكلمة اليونانية ديابولوس التي استخدمتها المؤلفات المسيحية. ومنها جاء الاسم الآخر للشيطان في الإنكليزية Devil.

يستخدم النص القرآني الاسم إبليس في قصه عن سقوط الملاك الرئيس التي تقوم على العناصر نفسها التي رأيناها في الأسفار التوراتية غير القانونية، وفي نصوص الهاجاده التي غدت جزءاً من الأدبيات التلمودية. أما بعد سقوط الملاك وتحوله إلى عدو البشر، فإن النص القرآني يستخدم الاسم شيطان في بقية أخباره عن نشاط ذلك الملاك الأسود في التاريخ وصولاً إلى اليوم الأخير.

يعيد النص سرد قصة السقوط في أحد عشر موضعاً، وبتنوعات طفيفة نورد أكثرها تفصيلاً فيما يأتي:

1- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَّنْ يَبْعَثَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ *﴾ (7 الأعراف: 11-18).

2- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ *﴾

(15 الحجر: 28-43)

3- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً * وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَعْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصُورِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً *﴾ (17 الإسراء : 61-65).

4- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَقْسَى *﴾ (20 طه : 116-117).

5- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ *﴾ (38 ص : 71-85).

6- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا *﴾ (18 الكهف : 50).

نلاحظ من البنية اللغوية للأمر الإلهي بالسجود لآدم ورفض إبليس الانصياع لهذا الأمر، وذلك في التنويعات الخمسة الأولى على القصة، أن إبليس كان من الملائكة، لأن الاستثناء في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، وتنويعاته الأخرى هو استثناء متصل لا منقطع، لأن وقوع الإباء منه دليل على أن الأمر الإلهي يشمل وأنه من الملائكة. ولكن التنويع السادس يشد عما سبق، إذ يعلمنا أن إبليس كان من الجن لا من الملائكة. فإذا كان الأمر كذلك، فإن الأمر الإلهي الموجه إلى الملائكة لا يشمل، كما إن إباءه من السجود لا يكون معصية لأن المأمور غيره. وهذا من متشابهات القرآن التي لم يصل المفسرون إلى اتفاق بشأنها.

على الرغم من أن القصة القرآنية هي أكثر اختصاراً وإيجازاً من مثيلاتها في الأسفار غير القانونية، إلا أنها تتفق معها في العناصر الرئيسة، وهي:

1- الأمر الإلهي وعصيانه:

"بعد خروج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين، أمر الرب الملائكة كلهم أن يسجدوا له ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين لكي يضرب للآخرين مثلاً في الطاعة. ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم رفض السجود" (الهاجاده).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (5 الحجر: 28-31).

2- إبليس يسوّغ سلوكه:

"قال ساتان للرب: لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب الأرض؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكماً وفهماً" (الهاجاده).

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ *﴾ (15 الحجر 32-33). ﴿... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (7 الأعراف: 12).

3- الطرد والسقوط:

"فلما سمع منه الرب ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى نحو الأرض وتبعه حشد من الملائكة الذين شجعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسد لآدم" (الهاجاده).

﴿قَالَ فَأَمِيطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (7 الأعراف: 13). ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ *﴾ (38 ص: 77-78).

4- طلب المهلة:

"فأمرنا الرب إلهنا أن نوثقهم جميعاً (= الأرواح الشريرة)، ولكن رئيس الأرواح مستيماً مثل أمام الرب وقال له: أيها الإله الخالق، اترك لي بعضاً منهم ليستمعوا إلي ويفعلوا ما أمر به، لأنه إذا لم يبق منهم أحد معي لا أستطيع بسط سلطاني على بني البشر... فأمر الرب أن يبقى عشر الأرواح الشريرة مع مستيماً، وأن ينزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب" (سفر أخنوخ الأول).

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *﴾ (7 الأعراف: 14-15).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ الْمَعْلُومِ *﴾ (15 الحجر: 36-38).

وعيد إبليس:

يكفي النص التوراتي من وعيد إبليس بقوله: ومنذ ذلك الوقت صارت عداوة بين الإنسان والشيطان (الهاجاده). أما في النص القرآني فإن إبليس يسترسل في وعيده عارضاً بأسلوب فظ وسائله في الانتقام:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *﴾ (38: ص 82).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ *﴾ (15 الحجر: 39-40).

﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ *﴾ (7 الأعراف: 17).

أمام هذا الوعيد يتحدى الله إبليس بأنه مهما فعل لن يقدر على إغواء الصالحين من عباده: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيْلِكَ وَرَجِّلْكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً *﴾ (17 الإسراء: 63-65).

وعلى الرغم من أن الرواية القرآنية لا تنص صراحة على أن حشداً من الملائكة تبعوا إبليس وتحولوا إلى شياطين، إلا أن الإشارات اللاحقة إلى الشياطين بالجمع، وإلى جنود إبليس وذرية إبليس، تدلنا على ذلك: ﴿فَكَبَّكُوا فِيهَا⁽¹⁾ هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ *﴾ (26 الشعراء: 94-95). ﴿....أَفْتَنَّاكَ مِنْ دُورِهِ هُمْ وَلَهُمْ كُفٌ عَدُوٌّ بِشَرِّ الظَّالِمِينَ....﴾ (18 الكهف: 50). وكلمة ذرية هنا لا تعني النسل بالمعنى البيولوجي وإنما النظائر والأشباه، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ....﴾ (17 الإسراء: 27). أي إن المبذرين كانوا من نوع الشياطين.

بعد سقوط إبليس ودخوله في التاريخ، نراه تحت اسم الشيطان يترصد بني آدم ليضلهم عن سبل الحق: ﴿....إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (17 الإسراء: 53). ﴿...وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (2 البقرة: 208). ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ....﴾ (2 البقرة: 268). ﴿....وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (4 النساء: 60). ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ....﴾ (5 المائدة: 91). ﴿....وَزَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَاهُمْ فَصَدَّ هُمْ عَنِ السَّبِيلِ....﴾ (27 النمل: 24).

ولا أدل على سلطان الشيطان على بني البشر من قدرته على التلاعب بعقول أنبياء الله أنفسهم، والتشويش على عملية الوحي، وذلك بأن يزرع في قلوبهم آيات شيطانية تبدو لهم للوهلة الأولى آية من الرحمن. وهذا هو مؤدى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *﴾ (22 الحج: 52-53). ومن أقوال بعض المفسرين في أسباب نزول هذه الآيات من سورة الحج، ومنهم الطبري، نورد الملخص الآتي:

(1) (= جهنم).

ورد في خبر حديث الغرائيق أن الرسول تمنى في نفسه أن ينزل عليه من الوحي ما يُقرب بينه وبين قومه المشركين في مكة، ويحبب إليهم الإيمان. وكان ذات يوم جالساً في ناد من أنديتهم وقد نزلت عليه سورة والنجم إذا هوى، فأخذ يقرأها عليهم حتى إذا بلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وكان تمنيه لا يزال عالقاً في نذسه، فأجرى الشيطان على لسانه: "تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لترجى. مضى الرسول يقرأ حتى أتم السورة ثم سجد وسجد معه المسلمون وكذلك المشركون من قريش، ثم تفرق الناس وخرجت قريش مسرورة بما ذكر محمد عن آلهتهم أحسن الذكر. وقد بلغ خبر السجدة من بأرض الحبشة من المهاجرين، وقيل لهم قد أسلمت قريش، فهم بعضهم بالرجوع وتريث آخرون. ثم إن جبريل أتى إلى النبي وقال: ما صنعت يا محمد؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به، فجزع الرسول، ولكن الله كان به رحيماً، وأنزل عليه ما نسخ الذي أجراه الشيطان على لسانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ أَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ....﴾ (53 النجم: 19-23).

وعلى الرغم من عصيان الشيطان وتنفيذه للعهد الذي قطعه على نفسه بمقاومة أعمال الرحمن، ومن وصفه بالكفر في بعض الآيات: ﴿...وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (17 الإسراء: 27)، إلا أنه يبدو في بعض الأحيان، وكما هو الحال في النص التوراتي، خاضعاً للرحمن ياتمر بأمره متى يشاء: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَبْغُدُونَهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (43 الزخرف: 36-37). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوَرُهُمْ آزًا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُهُمْ عَذَابٌ *﴾ (19 مريم: 83-84). وبعد أن وُصف الشيطان بالكفر في المقتبس السابق من سورة الإسراء، نجده يعلن إيمانه في سورة الحشر: ﴿كَمَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (59 الحشر: 16). وهو يتوعد المشركين، بدلاً عن الله، بالعذاب الأليم.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ... مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (14 إبراهيم: 22).

وكما هو الحال في الروايات التوراتية، فإن البشر موزعون بين فريقين هم أهل اليمين الواقعون تحت سلطة الرحمن فهو وليهم، وأهل الشمال الواقعون تحت سلطة الشيطان فهو وليهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ...﴾ (2 البقرة: 257). ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (16 النحل: 63). ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وظِلٍّ مُتَدُوِّ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ *﴾ (56 الواقعة: 27-31) ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ * وظِلٍّ مُنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ *﴾ (56 الواقعة: 41-44). ومن الجدير بالذكر أن الإنجيل أيضاً قد أتى على ذكر أهل اليمين وأهل الشمال، وذلك في قول يسوع عن عودته في اليوم الأخير: "ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذٍ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم... ثم يقول أيضاً للذين على اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته. فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية" (إنجيل متى 25: 31-46).

أما عن مصير إبليس عند اختتام تاريخ العالم، فلا نمتلك إلا إشارات عابرة تدل على أن مآله هو وأتباعه إلى النار الأبدية. من ذلك ما ورد من المقتبس السابق من سورة الأعراف: ﴿لَنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وفي المقتبس من سورة الشعراء: ﴿فَكَبِّهُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾

19- سقوط الإنسان الساقط

لم يطل الوقت بآدم وزوجه في الجنة، لأن معصيتهما للخالق قد تسببت بطردهما من الجنة إلى الأرض القاحلة ليُحصَّلا قوتهما منها بالتعب والعرق. وسنبتدئ أولاً بسرد الرواية الرسمية التوراتية لقصة السقوط كما وردت في سفر التكوين، ثم نتقل إلى الرواية غير الرسمية التي وردت في الأسفار غير القانونية. الرواية التوراتية

"وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من كل شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" (التكوين 2: 15-16).

"وكانت الحية أحيـل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكل من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما من ثمر الشجرة التي وسط الجنة فقال الله لا تأكل منه ولا تمسأه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة جيدة للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها معها أيضاً فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانين، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.

وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاختبأت. فقال: ومن أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله

الحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة: تكثيراً أكثر من أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسبك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك من تراب وإلى تراب تعود.

ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي. وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصه من جلد وألبسهما. وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أخذ منها، فطرد الإنسان، وأقام الرب شرقي جنة عدن: الكروبيم (= ملائكة مجنحة حارسة) ولهيب سيف متقلب، لحراسة طريق شجرة الحياة" (التكوين 3: 1-24).

في هذه القصة الرسمية لسقوط الإنسان نلاحظ غياب الشيطان عن مسرح الحدث، ولا يوجد ما يشير إلى أن الحية التي أغوت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة كانت قناعاً للشيطان. أما بعد تشكل ونضوج لاهوت الشيطان في القرنين السابقين للميلاد وما تلاهما، فقد عمدت الأسفار غير القانونية إلى المطابقة بين الحية والشيطان، وتشابكت قصة سقوط إبليس مع قصة سقوط الإنسان. فإبليس هو الذي تخفى في هيئة الحية وتسلل إلى الفردوس لكي ينتقم من آدم الذي كان سبب بليته وخسارة مجده السماوي. وعلى ما قرأنا في المقتبس الذي أوردناه سابقاً من كتاب حياة آدم، يقول الشيطان إنه بعد طرده مع أتباعه من مقره الأعلى إلى الأرض، لبث يندب مجده الضائع بحزن وأسى. وقد ألمه أن يرى آدم ينعم هناك بالبركة والسرور، فجاء زوجته بالخديعة وأغواها فجعلها سبب فقدانه أفراح النعيم. وفي سفر أسرار أخنوخ (أو أخنوخ الثاني) يشبك المحرر القصتين على الشكل الآتي:

"وفي اليوم السادس خلق الرب الإنسان من سبعة عناصر، فجعل لحمه من تراب الأرض ودمه من الندى، وعينه من الشمس، وعظمه من الصخر، وذكاه من الغيوم ومن سرعة الملائكة، وشعره وأوردته من عشب الأرض، وروحه من نفس الرب ومن الريح، ودعا اسمه آدم. ثم أسكن الرب آدم في جنة زرعتها على الأرض في عدن شرقاً ليرعى عهده ووصاياه، وأراه طريقين: طريق النور وطريق الظلام، وقال له هذا حسن وذاك سيئ. ومع ذلك فقد كان الخالق مطلعاً على فؤاد آدم عارفاً بطبيعته الخاطئة، فقال في نفسه: وهل بعد الخطيئة سوى الموت. ثم أوقع الرب سباتاً على آدم وأخذ من أضلاعه واحداً وخلق منه زوجاً له دعاها حواء. ولكن الشيطان تسلل إلى الفردوس وأغوى حواء وجعلها تخطئ ولكنه لم يقارب آدم⁽¹⁾.

الرواية القرآنية:

في الرواية القرآنية تتشابه قصة سقوط إبليس مع قصة سقوط الإنسان. نقرأ في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(2 البقرة: 34-37)

وفي تنويع ثانٍ على القصة يُدخل عليها عناصر جديدة، نقرأ في سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا

(1) راجع سفر أسرار اخنوخ في:

- Willis Barnstone, edt, The Other bible, Harper, New York, 1984.

رَبُّهَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * ﴿7 (الأعراف: 19-24).

وفي تنويع ثالث نقرأ في سورة طه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لُهُمَا سَوَاتِمُهُمَا وَطُفِقَا بَخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *﴾ (20 طه: 116-124)

تقوم الرواية القرآنية على العناصر الرئيسة لرواية سفر التكوين، ولكنها تختلف عنها في النقاط الآتية:

1- المغوي في الرواية القرآنية هو الشيطان لا الحية. وهذا ما تشترك به مع الأسفار غير القانونية.

2- الشيطان لا يوسوس إلى حواء بل إلى آدم، وذلك في قوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ...﴾ (20 طه: 120). وفي تنويع آخر يوسوس الشيطان إلى الزوجين معاً، وذلك في قوله: ﴿فَوَسَّوَسَ لُهُمَا الشَّيْطَانُ...﴾ (7 الأعراف: 20). الأمر الذي يرفع عن حواء وزر الخطيئة الأولى.

3- لا تبادل حواء إلى الأكل من ثمر الشجرة ثم تغري زوجها بالأكل، بل إن الزوجين يأكلان منها معاً: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا...﴾ (20 طه: 121). ﴿...فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ...﴾ (7 الأعراف: 22). وهنا تغيب الإشارة إلى من هو البادئ بالأكل والمحرض عليه.

4- لا يوجد في الجنة شجرتان مميزتان هما شجرة المعرفة وشجرة الحياة، بل شجرة واحدة يدعوها الشيطان شجرة الخلد (أي الحياة الخالدة). وربما قصد النص إلى القول بأن هذا هو اسمها الحقيقي. ومن الناحية اللغوية فإن شجرة الخلد وشجرة الحياة تؤديان المعنى نفسه. وقد أكل الزوجان من شجرة الخلد. فإذا كان المعنى الباطني للأكل من الشجرة هو الفعل الجنسي على ما يذهب إليه كثير من مفسري الكتاب المقدس، فإن الخلد هنا هو خلود الجنس البشري الذي أدى إليه ذلك الفعل الجنسي الاستهلاكي. وفيما عدا ذلك فإن الروایتين تشتركان في البنية العامة وفي المفاصل الرئيسة للحبكة، على ما تبينه المقارنة التالية:

الرواية القرآنية	سفر التكوين
<p>- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (2 البقرة 35)</p>	<p>1- وأخذ الرب الإله آدم وأسكنه في جنة عدن... وأوصى الرب آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت.</p>
<p>- ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا....﴾ (7 الأعراف 20)</p> <p>﴿....قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدْنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَآبَيْلَى﴾ (20 طه 120)</p> <p>﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (7 الأعراف 21)</p>	<p>2- فقالت الحية للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تلمسناه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر.</p>

<p>3- فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، فأخذت من ثمرها وأعطت زوجها أيضاً.</p>	<p>3- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا....﴾ (20 طه : 121)</p>
<p>4- فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانين ، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.</p>	<p>4- ﴿....فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفًا عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ....﴾ (7 الأعراف 22)</p>
<p>5- فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة فاخبتأت لأني عريان. فقال : من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟</p>	<p>5- ﴿....وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (7 الأعراف 22)</p>
<p>6- وقال الرب لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة ، ملعونة الأرض بسبك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها... فطرد الرب الإنسان.</p>	<p>6- ﴿قَالَ اضْطَبِّأْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ....﴾ (20 طه 123).</p> <p>7- ﴿....وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (7 الأعراف 24)</p>
<p>7- وقال الرب الإله : هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد.</p>	<p>7- ﴿....وَقَالَ⁽¹⁾ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (7 الأعراف 20)</p>

(1) (لهما الشيطان).

إلى هذا فقد احتوت الرواية القرآنية على أهم عنصر في الرواية التوراتية غير الرسمية ، وهي استبدال الشيطان بالحية. كما احتوت على عنصر هام آخر وهو توبة آدم التي قبلها الرب: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة). وتوبة آدم مفصلة في كتاب حياة آدم الذي اقتبسنا منه في موضع سابق ، وهو يحكي عن أحوال الزوجين على الأرض. فبعد طردهما من الفردوس:

"مشى الاثنان مدة تسعة أيام يبحثان عن الطعام ، ولكنهما لم يجدا طعاماً يشبه ما كانا يأكلانه في الفردوس ، بل طعاماً مما تأكله حيوانات الأرض. فقال آدم لحواء: لقد جعل الرب هذا الطعام نصيباً للحيوانات بينما كنا نتناول هناك طعام الملائكة. من الأفضل لنا أن نبكي أمام الرب فنستغفره ، ونعلن الندم والتوبة لعله يسامحنا ويرأف بنا ويزودنا بأسباب الحياة. فقالت حواء: قل لي يا سيدي ما هو الندم؟ وكيف أستغفر؟ لكي لا يأتينا عكس مرادنا ويدير الرب وجهه عنا ولا يعير أذننا صاغية لصلاتنا. سيدي ، قد يدوم استغفارك طويلاً ، فأنا من جلب عليك العناء والمشقة. فقال آدم: لن يكون بمقدورك القيام بما سأقوم به ، ولكن ابذلي قدر استطاعتك. سوف أصوم لمدة أربعين يوماً وأنا غاطس في مياه نهر الأردن ، أما أنت فامضي إلى نهر الدجلة وخذي لك حجراً قفي عليه في وسط الماء واغطسي إلى الرقبة ثم البثي سبعة وثلاثين يوماً ، والزمي الصمت لأن شفاهنا التي تنجست بالأكل من الثمرة المحرمة غير جديرة بالتوسل إلى الرب ، لعله يعملنا هذا يرحمنا ويرأف بنا"

ولكن الشيطان تنكر في هيئة ملاك وضآء وجاء إلى حواء وحال بينها وبين متابعة استغفارها ، ثم قادها إلى آدم مدعياً أن الرب قد استجاب لهما. فلما رآهما آدم قادمين تعرّف على الشيطان فصرخ وانتحب وناداهما قائلاً: أين ذهب ندمك واستغفارك؟ وكيف وقعتِ ثانية فريسة لإغواء عدونا الذي حرمننا مسكننا الفردوسي ومتعنا الروحانية. عند ذلك انتهت حواء إلى خديعة الشيطان فسقطت على وجهها في التراب وصرخت في وجهه: الويل لك أيها الشيطان ، لماذا تهاجمنا دون سبب؟ وما الذي فعلناه لك حتى تلاحقنا دوماً بالمكر والخديعة؟

عند ذلك قصّ عليهما الشيطان ما جرى من عصيانه أمر الخالق بالسجود لآدم، وما تبع ذلك من غضب الرب عليه وطرده من السماء. ثم يتابع النص سرد أخبار أسرة آدم وما جرى من نزاع بين قابيل وهابيل؛ وما جرى لبقية أولاد آدم إلى أن حضرته المنية. وينتهي النص بالمشهد الآتي:

"ولسبعة أيام أظلمت الشمس وأظلم القمر والنجوم. وكان شيت يحتضن جسد أبيه، وحواء تشبك ذراعيها فوق رأسها المنكس والمستند على ركبتيها، وكل الأولاد يبكون بحرقة. وبينما هم على هذه الحال ظهر الملاك ميكائيل واقفاً عند رأس آدم وخاطب شيت قائلاً: انهض عن جسد أبيك وتعال لأريك ماذا أعد الرب له. فلقد رحم الرب مخلوقه وتاب عليه. وعزف الملائكة بأبواقهم وأنشدوا: مبارك أنت أيها الرب الذي أشفق على مخلوقه. عندها رأى شيت ذراع الرب تمتد فتحمل آدم وتسلمه إلى ميكائيل قائلاً له: ليكن آدم في حرز لديك إلى يوم الدينونة في آخر الزمن. عندها سأحول حزنه إلى فرح، وأجعله يتربع على عرش الذي غلبه (= الشيطان)"⁽¹⁾.

(1) هذه المقاطع والملخصات هي من ترجمتي عن كتاب حياة آدم. راجع موسوعة الأسفار غير القانونية:

- J. H. Charlesworth, ed, The Old Testament Pseudepigrapha, vol. 2, p.258 ff..

قابيل وهابيل

بعد طرد آدم وحواء من الجنة، أنجبت حواء من آدم ولدين: الأول دعي قاين (أو قابيل في الموروث الإسلامي)، والثاني دعي هابيل. وهذه قصتهما كما وردت في سفر التكوين 4: 1-13، وفي سورة المائدة: 27-31.

سفر التكوين: "وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قاين، ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قاين عاملاً في الأرض. وحدث بعد أيام أن قابيل قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب على هابيل وقربانه، ولكن إلى قاين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قاين وسقط على وجهه. فقال الرب لقاين: لماذا اغتظت، ولماذا سقطت على وجهك؟ إن أحسنت أفلا رفع؟ (أي إذا عملت حسناً أفلا تقبل؟).

سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلُ عَلَيْهِم بَنَاءَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *﴾

سفر التكوين: "وكلم قاين أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قاين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقاين: أين هابيل أخاك؟ فقال: لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض، فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهاً لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها، تائهاً وهارباً تكون في الأرض. فقال قاين للرب: ذنبي أعظم من أن يحتمل

سورة المائدة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ *﴾

20- الطوفان الكبير

الخلفية الميثولوجية:

أسطورة الطوفان الكبير الذي غمر الأرض وأفنى البشر والكائنات الحية، عدد فئة قليلة نجت وأعادت بناء الحضارة، هي أسطورة شائعة في ثقافات العالم القديم وفي الثقافات البدائية المعاصرة. ولكن السومريين في جنوب وادي الرافدين كانوا أول من قدّم لنا وثيقة مكتوبة عن هذه الأسطورة ترجع إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. وقد احتوت الأسطورة السومرية العناصر التي بنيت عليها بقية ثقافات المنطقة، إضافة إلى الثقافة اليونانية، تنويعاتها الخاصة

وُجدت الأسطورة السومرية منقوشة على رقيم فخاري مكسور وكثير التشوه، ولكن الأسطر القليلة الباقية من النص كافية لإطلاعنا على الخطوط العامة للقصة. فقد رأى الملك الكاهن المدعو زبوسودر في إحدى النياي حمى سمع فيه صوت أحد الآلهة يكلمه من وراء جدار، ويُعلمه عن قرار مجمع الآلهة بإفناء الحياة على الأرض. عند هذه النقطة يتشوه الرقيم. ومن المرجح أن أجزاء المفقود من النص يتحدث عن تعليمات الإله بخصوص قيام زبوسودر ببناء سفينة عملاقة يحمل فيها عدداً من البشر، إضافة إلى أزواج من كل حيوان من الحيوانات. وعندما يتضح النص للقراءة مرة ثانية نجد وصفاً مكثفاً لاندبوح الطوفان وتراجعته: "هبّت العواصف كلها دفعة واحدة، ومعها انداحت سيوب الطوفان فوق الأرض، وغمرتها لسبعة أيام وسبع ليال، ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه المتعازمة. ثم ظهر إله الشمس أوتو ناشراً ضيائه في السماء والأرض. فتح زبوسودر كوة في المركب تاركاً أشعة أوتو تسقط منه. ثم خر ساجداً أمام أوتو ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم

بعد ذلك يعود الرقيم إلى التشوه. وعندما يتضح للقراءة ثانية نأتي إلى خاتمة القصة، حيث يصف المقطع الأخير سرور الآلهة بنجاة الحياة من التدمير

الكامل، ثم إسباغهم على بطل الطوفان نعمة الخلود: "زيوسودرا الملك سجد أمام أنو وإنليل. فوهباه روحاً خالدة مثل الآلهة. عند ذلك دُعي زيوسودرا باسم حافظ بذرة الحياة. وفي أرض دلمون حيث تشرق الشمس أسكنه"⁽¹⁾.

اعتماداً على العناصر الرئيسة لهذه الأسطورة السومرية، قدّم لنا البابليون عدة نصوص عن الطوفان الكبير، أوضحها النص الوارد في آخر ملحمة جلجامش، حيث يروي بطل الطوفان نفسه القصة لجلجامش الذي قصده ليسأله عن الكيفية التي حصل بها على الخلود.

فقد اتخذ مجمع الآلهة بتحريض من إله العاصفة إنليل قراراً بإفناء الحياة على الأرض، ولكن قبل الشروع بتنفيذ خطتهم قام الإله إيا (= إنكي) بنقل الخبر إلى أوتنابشتيم ملك مدينة شوريباك وكلمه من وراء جدار، وأمره أن يبني سفينة عملاقة وفق مخطط خاص شرحه له. وعند اندياح الطوفان عليه أن يحمل إليها كل ما يملك من ذهب وفضة، وأهله وأقاربه، ونخبة من أصحاب الصناعة والحرف، وعدداً لا يحدده كاتب النص من حيوانات الأرض ووحوشها. صدع أوتنابشتيم بما أمر، وعندما بدأت تُذر الطوفان بمطر غزير مدمر دخل السفينة وأغلق عليه الباب. استمر المطر بالهطول، ثم انهارت السدود وتدفق ماؤها، وانفتحت بوابات المياه الجوفية، فتعاظم الطوفان وحمل السفينة، بينما كانت العواصف الثائرة تحصد البشر وتحطم الأرض مثل جرة فخارية. حتى الآلهة أنفسهم ذعروا من هول الطوفان وهربوا جميعاً فالتجؤوا إلى السماء السابعة سماء الإله أنو كبيرهم، وربضوا هناك عند الجدار الخارجي يرتعدون. وقامت بينهم الإله عشتار تنوح وتندب فناء البشرية، وتعلن ندمها على الموافقة على قرار الطوفان.

سنة أيام وست ليال والرياح تهب، والعاصفة وسيول المطر تغطي على الأرض. ومع حلول اليوم السابع هدأ البحر وسكنت العاصفة وتراجع الطوفان. فتح أوتنابشتيم كوة السفينة، كان الهدوء شاملاً وقد آل البشر إلى

(1) Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic, Phoenix, Chicago, 1963.

الطين، فهالك وانحنى يبكي. ثم إن السفينة استقرت على قمة جبل نصير الذي منعها من الحركة أسبوعاً. خلال ذلك أتى أوتنابشتيم بحمامة وأطلقها، فطارت بعيداً ثم عادت إليه لأنها لم تجد يابسة تقف عليها. وبعد فترة لا يحددها كاتب النص أطلق أوتنابشتيم سنونو فطار بعيداً ثم عاد إليه. وبعد فترة أخرى أطلق غراباً فطار بعيداً وحام وأكل ولم يعد. عند ذلك أطلق أوتنابشتيم جميع ركاب السفينة في الاتجاهات الأربع، وقدم ذبيحة للآلهة أحرقت تحتها القصب الحلو والآس وخشب الأرز لتشم الآلهة الرائحة الزكية. تجمع الآلهة حول القربان، وعندما وصلت عشتار رفعت عقدها الكريم الذي صنعه لها أنو وقالت: "أيها الآلهة الحاضرون، كما لا أنسى هذا العقد اللازوردي في عنقي، كذلك لن أنسى هذه الأيام قط وسأذكرها دوماً. هلموا جميعاً إلى الذبيحة إلا إنليل، لأنه دونما تفكر قد سبب الطوفان" وعندما وصل إنليل ورأى السفينة ثارت ثائرته وقال: "هل نجا أحد من الفانين؟ ألم نقرر إهلاك الجميع؟". فتوجه إليه إيا بقوله: "أيها المحارب، أيها الحكيم بين الآلهة، كيف دونما تروّ جلبت هذا الطوفان؟ كان بإمكانك أن تُحمّل الأثم إثمه والمعتدي عدوانه، تمهله فلا يهلك ولا تهمله فيشتط. لو أرسلت بدل الطوفان الأسود الذئب لقللت من عدد البشر، لو أرسلت بدل الطوفان المجاعة لأنقصت من البشر، لو أرسلت عليهم الطاعون لحصد منهم. وبعدُ لستُ الذي أفشى سر الآلهة الكبار. لقد أريت أوتنابشتيم حلماً فاستشف من الأمر. والآن اعقد أمرك بشأنه". فصعد إنليل إلى السفينة ثم أخذ بيد أوتنابشتيم وأصعده هو وزوجته معه وجعلهما يركعان أمامه، ثم وقف بينهما ولمس جبهتيهما مباركاً وقال: "ما كنتَ قبل اليوم إلا بشراً فانياً، ولكنك ستغدو وزوجتك مثلنا خالدين" وبعد ذلك أمر بأخذهما وجعلهما يسكنان في القاصي البعيد عند فم الأنهار⁽¹⁾

(1) انظر ترجمتي الكاملة للوح الحادي عشر من النص في مؤلفي "جلجامش - ملحمة الرافدين الخالدة"

الرواية التوراتية:

إن الشكل الأدبي الأخير لملحمة جلجامش يعود بتاريخه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولكن نسخة منها وُجدت محفوظة في مكتبة الملك آشور بانيبال بمدينة نينوى تعود بتاريخها إلى أواسط القرن السابع قبل الميلاد، وهذا يدل على أنها بقيت متداولة إلى حين وصول سبي يهوذا إلى بابل نحو عام 587 ق.م، وكان لدى محرري التوراة فرصة للاطلاع على قصة الطوفان الكبير، ودمجها في روايتهم عن بدايات التاريخ البشري في سفر التكوين. فخلال تسعة أجيال أعقبت وفاة آدم كان شر البشر يكثر على وجه الأرض، فندم الرب على خلقه للإنسان وعزم على إفناؤه بواسطة طوفان شامل.

تتصف قصة الطوفان التوراتية بالاضطراب والتشوش والتناقض في المعلومات، وذلك بسبب لجوء المحرر إلى الجمع بين روايتين مختلفتين عن الطوفان في نص واحد دون محاولة منه للتوفيق بينهما في سردية متسقة. في الرواية الأولى يظهر الإله التوراتي بالاسم يهوه، ولذلك يدعونها الباحثون بالرواية اليهودية (Y)، أما في الرواية الثانية فيظهر تحت اسم إيلوهيم (أو الله في الترجمات العربية، و God في الإنكليزية)، ولذلك يدعونها بالرواية الإيلوهيمية (E). ومثل هذا الجمع بين الرواية Y والرواية E نصادفه في العديد من قصص سفر التكوين، ولكنه هنا يتجلى في أوضح أشكاله وأكثرها تعقيداً. ولغرض التيسير على القارئ فقد قمت بتفكيك القصة إلى عناصرها اليهودية والإيلوهيمية، ثم إلى شبك الثانية في سردية متصلة ومطردة خالية من التشوش والتناقض:

"كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله. وسار نوح مع الله. وولد نوح ثلاثة بنين: سام وحام ويافث. وفسدت الأرض أمام الله وامتألت الأرض ظلماً. ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض. فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتألت منهم ظلماً. فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنعُ فُلْكَاً من خشب جُفْر، وتجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار، وهكذا تصنعه: ثلاثمئة ذراع يكون طول

الفلك وخمسون ذراعاً عرضه وثلاثون ذراعاً ارتفاعه. وتصنع كواً للفلك وتكمله إلى حدّ ذراع من فوق، وتصنع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. فيها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت، ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك. ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها، اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها. وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك فيكون لك ولها طعاماً. ففعل نوح حسب كل ما أمره الرب (التكوين 6: 9-22).

"ولما كان نوح ابن ستمئة سنة صار طوفان الماء على الأرض. فدخل نوح وبنوه ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان، ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة، ومن الطيور ومن كل ما يدب على الأرض دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً. وحدث بعد سبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. في سنة ستمئة من حياة نوح، في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر من الشهر، في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة (التكوين 7: 6-12). "وكان الطوفان على الأرض أربعين يوماً على الأرض، وتكاثر المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض. وتعاضمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض، فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاضمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاضمت المياه فتغطت الجبال، فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض... وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط" (التكوين 7: 17-24).

"ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك، وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً... وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر

من الشهر على جبل أراط.... وحدث بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة في الفلك التي كان عملها، وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض، فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه... فلبث أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك، فأنت إليه عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها، فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث أيضاً سبعة أيام آخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً.

وكان في السنة الواحدة والستمئة (من عمر نوح) في الشهر الأول في أول الشهر، أن المياه نشفت عن الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر وإذا وجه الأرض قد نشف. وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض. وكلم الله نوحاً قائلاً: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وكل الحيوانات التي معك... فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه وكل الحيوانات... وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا، وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان، لأن قلب الإنسان شرير منذ خلقه، ولا أعود أيضاً أमित كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال (التكوين 8: 1-22).

"وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: أثمروا واكثروا في الأرض، ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض... وها أنا مقيمٌ ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية... لا ينقرض كل ذي جسد بمياه الطوفان، ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض؛ فيكون متى أنشر سحباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب أنني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية (التكوين 9: 1-14). وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمئة وخمسين سنة، فكانت كل أيام نوح تسعمئة وخمسين سنة ومات. (التكوين 9: 28-29).

بين الرواية التوراتية والرواية البابلية:

تعتمد الروايتان التوراتية والبابلية على العناصر نفسها، وتسير الأحداث فيهما على نحو متوازٍ. فقرار الطوفان يتخذه الإله إنليل في الرواية البابلية بعد موافقة مجمع الآلهة عليه، وفي الرواية التوراتية يتخذ القرار الإله يهوه منفرداً نظراً لعدم وجود مجمع للآلهة. أما الدافع إلى ذلك فهو ازدياد شر البشر على الأرض، على ما نفهم ذلك بشكل صريح في مطلع القصة التوراتية، وبشكل غير مباشر في نهاية القصة البابلية، حيث يقول إيا لإنليل: "كيف دونما تروّ جلبت هذا الطوفان؟ كان بإمكانك أن تُحمّل الأثم إثمه والمعتدي عدوانه... إلخ". بعد ذلك يقوم كل من الإله إيا والإله يهوه باختيار رجل صالح لمهمة إنقاذ بذرة الحياة على الأرض، ويعطيه تعليمات مفصلة حول مخطط السفينة وكيفية بنائها، وركابها وما يُحمل فيها من متاع. فقد كان على أوتناشتيم أن يحمل معه عدداً غير محدد من أهله المقربين وممتلكاته، وعدداً غير محدد أيضاً من حيوانات الأرض. وكان على نوح أن يحمل معه امرأته وأبناءه ونساء أبنائه، ومن الحيوانات من كل زوجين اثنين، إضافة إلى ما يكفي من طعام. ولكن أوتناشتيم كان أكثر فطنة من نوح لأنه حمل معه أيضاً نخبة من أهل الصناعة والحرف، من شأنها حفظ منجزات الحضارة من الضياع.

انداح الطوفان في الروايتين بتأثير عاملين رئيسيين هما ماء المطر والمياه الباطنية التي تفجرت من أعماق الأرض. وأضافت الرواية البابلية إلى ذلك مياه السدود التي انهارت. وقد استمر طغيان الطوفان في الرواية البابلية سبعة أيام، تلتها سبعة أيام أخر استقرت السفينة خلالها على جبل نصير، أثناء ذلك وعلى ثلاث فترات غير محددة أطلق أوتناشتيم على التوالي ثلاثة طيور هي الحمامة والسنونو والغراب. أما في الرواية التوراتية (E) فلدينا أربعون يوماً لطغيان الطوفان وأربعون يوماً لتراجعته، إضافة إلى ثلاثة أسابيع أطلق خلالها نوح الغراب أولاً ثم الحمامة مرتين، وقد رست السفينة بعد تراجع الطوفان على جبل يدعوه النص بجبل آراراط.

بعد أن تأكد كل من أوتنابشتيم ونوح من انحسار الطوفان عقب بشارة الطائر الثالث، أطلق ركاب السفينة وقدم قرباناً للإله. يلي ذلك مباركة إنليل لأوتنابشتيم وزوجته وإسباغ نعمة الخلود عليهما، ومباركة يهوه لنوح وبنيه وإعطائه عمراً مديداً بلغ 950 سنة. أما عن الميثاق الذي عقده يهوه مع كائنات الأرض بعدم إرسال طوفان مدمر مرة أخرى، وقوسه الذي وضعه في السحاب (وهو قوس قزح) ليذكره بميثاقه، فيقابله قول الإلهة عشتار عندما رفعت عقدها اللازوردي: "كما أنني لا أنسى هذا العقد اللازوردي في عنقي، كذلك لن أنسى هذه الأيام، وسأذكرها دوماً"

بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية:

وردت قصة نوح والطوفان في القرآن الكريم بشكل مختصر في السور الآتية:
 (7 الأعراف: 59-64)، (10 يونس: 71-73)، (26 الشعراء: 105-122)،
 (37 الصافات: 71-83)، (54 القمر: 9-16)، (23 المؤمنون: 23-31)،
 (71 نوح: 1-8). وهنالك إشارات عابرة إلى القصة في السور التالية:
 (21 الأنبياء: 76-77)، (25 الفرقان: 77)، (29 العنكبوت: 14-15)،
 (40 غافر: 5-6). أما القصة الأكثر تفصيلاً فقد وردت في (سورة هود: 25-49).

تحتوي الرواية القرآنية على العناصر الرئيسة للقصة التوراتية، وتسير على التوازي معها، ولكن باستخدام الأسلوب المكثف الموجز الذي يقفر فوق التفاصيل:

1- شر البشر يكثر على الأرض، والله يختار الرجل الصالح نوحاً لهدايتهم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنِ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتْكَارًا *﴾ (71 نوح: 1-7) ﴿... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا *﴾ (71 نوح: 26-27).

ونلاحظ هنا أن الرواية القرآنية قد انفردت بذكر الدعاء الذي توجه به نوح إلى ربه لكي يهلك الكافرين ولا يترك لهم أثراً. وهذا يعني أنه كان يتمنى على ربه أن يرسل كارثة شاملة لا تبقي ولا تذر.

2- قرار الطوفان والإعلام عنه والتعليمات :

﴿وَأَوْحِيْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ *﴾ (11 هود : 36-37).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (11 هود : 40).

نلاحظ من قوله تعالى : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أن نوحاً كان يصنع السفينة تحت إشراف الرب بعد أن تلقى منه التعليمات الخاصة بذلك وحيّاً. كما إنه قد حمل زمرة من الصالحين إضافة إلى أهله، وهذا عنصر غير وارد في الرواية التوراتية. أما عن التنور الذي فار عند ابتداء الطوفان، فيقول أغلب المفسرين بأنه تنور كانت تحبز فيه امرأة نوح الخبز، ومنه تدفقت المياه السفلية.

3- دخول الفلك واندياح الطوفان :

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَنُزَّاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَأُولِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ *﴾ (11 هود : 41-43).

تنفرد الرواية هنا بذكر قصة ابن نوح التي لم ترد في التوراة. كما أنها لا تنص على فترة معينة لطغيان الطوفان وتراجعها.

4- تراجع الطوفان والرسو على الجبل :

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (11 هود : 44).

نستدل من قوله أعلاه: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي﴾ على أن علل الطوفان كانت مياه الأمطار والمياه السفلية التي تفجّرت من الأعماق. أما الجودي فهو جبل بالعراق قرب الموصل.

5- النزول ومباركة بطل الطوفان:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (11 هود: 48).

ونلاحظ هنا غياب عنصر إطلاق الطيور الوارد في الرواية التوراتية. وقد أنعم الله على نوح بحياة مديدة، فعاش عدداً من السنوات يعادل ما ذكرته الرواية التوراتية.

نقرأ في سورة العنكبوت:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا..﴾ (29 العنكبوت: 14)

ونقرأ في سفر التكوين:

"وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمئة وخمسين سنة، فكانت أيام نوح تسعمئة وخمسين سنة، ومات" (التكوين 9: 28).

21- القيامة والتصورات الآخروية

التصورات الآخروية، أو الإسكاتالوجيا / Eschatalogy، هي ذلك النوع من الأفكار الدينية المتعلقة بنهاية التاريخ والزمن الدنيوي، والدخول في الزمن المقدس المفتوح على الأبدية، وما يتصل بذلك من مسائل مصير الروح، والبعث، والحساب والعقاب. وسنشرح فيما يأتي باستقصاء هذه التصورات في كتاب التوراة، ثم ننتقل بعد ذلك إلى التجديدات التي أحدثتها الأسفار التوراتية غير القانونية، ونقارن أخيراً هذه الحصيلة مع التصورات القرآنية.

في كتاب التوراة:

تسج التصورات التوراتية عن حياة ما بعد الموت على منوال مثيلاتها في الديانات السومرية و الرافدينية القديمة. فأرواح الموتى تهبط إلى العالم الأسفل المدعو بالعبرية شئول، والتي ترد في الترجمات العربية بعدة صيغ؛ فهي الهاوية، والهاوية السفلى، والجب الأسفل، والحفرة السفلى. وهذه الهاوية هي أرض ظلمة وديجور لا يرى أهلها نوراً: "قد شَبَعَتْ من المصائب نفسي وحياتي إلى الهاوية دنت... وضعتني في الجب الأسفل، في ظلمات في أعماق" (أيوب، 1 : 2-22). وسكانها هم ظلال وأخيلة: "الهاوية من أسفل مهتزة لك، لاستقبال قدومك، مُنْهَضَةٌ لك الأخيلة". (إشعيا 14 : 9). "يا رب، أفلعلك للأموات تصنع عجائب أم الأخيلة تقوم تمجداً؟" (المزمور 88 : 10). والإقامة فيها أبدية، والطريق إليها لا يقود إلى خارجها: "هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد ولا يرجع بعد إلى بيته" (أيوب 7 : 9-10). وأرواح الأخيار تمضي إليها مثل أرواح الأشرار بما في ذلك أرواح الأنبياء. فبعد موت النبي صموئيل هبطت روحه إلى الهاوية. وعندما ضاقت نفس الملك شاول استعان بامرأة صاحبة جان لكي تستحضر له روح صموئيل من العالم الأسفل، وعندما فعلت وصعد صموئيل قال لشاول: "لماذا أقلقني بإصعادك إياي؟ فقال شاول: قد ضاق بي الأمر جداً... فدعوتك لكي تعلمني ماذا

أصنع" (صموئيل 28: 7-15). والهاوية مهما امتلأت لا تشيع بل تطلب المزيد: "الهاوية والهلاك لا يشبعان" (الأمثال 27: 20). هذا العالم الأسفل عبارة عن مملكة مستقلة لا سلطة لإله التوراة عليها، وأهلها لا يعرفون الرب وهو من جانبه قد نسيهم: "لأن الهاوية لا تحمدك، الموت لا يسبحك. لا يرجو الهابطون إلى الجب أمانتك، الحي هو الذي يحمذك كما أنا اليوم" (إشعيا 38: 18-19). "ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكون. أما نحن فنبارك الرب من الآن وإلى الدهر (المزمور 115: 17).

والإقامة في الهاوية ليست مقدمة لبعث الجسد الميت وعودة الروح إليه، لأن الميت يضطجع ولا يقوم على حد تعبير سفر الجامعة: "الإنسان يسلم الروح فأين هو؟ قد تنفذ الحياة من البحر والنهر يجف، والإنسان يضطجع ولا يقوم" (الجامعة 14: 10-12). وموت الإنسان كموت البهيمة كلاهما يؤول إلى الفناء: "موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل. فليست للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد (الجامعة 3: 19-20). وبالتالي فلا قيامة عامة للموتى في اليوم الأخير ولا بعث ولا نشور، أما الثواب والعقاب ففي هذه الدنيا لا في الآخرة: مخافة الرب تزيد الأيام وسنو المنافقين تَقْصُرُ" (الأمثال 10: 27). ومع ذلك نجد أيوب يتساءل عن الحكمة من سعادة الأشرار في هذه الحياة ويؤس الأخيار: "لماذا تحيا الأشرار ويشيخون؟ نعم ويتجبرون قوة. نسلهم قائم أمامهم وذريتهم في أعينهم وبيوتهم. أمنة من الخوف" (أيوب 21: 7-9). والفریقان يؤولان إلى نهاية واحدة، كما يتابع أيوب، فأين العدالة في ذلك: "هذا يموت في عين كماله كله مطمئن وساكن، أحواضه ملائمة لبناً ومخ عظامه طري، وذاك يموت بنفس مرة ولم يذق خيراً. كلاهما يضطجعان معاً في التراب والدود يغشاها" (أيوب 21: 23-26).

ومن الجدير بالذكر أن الهاوية كانت من الأسماء التي أطلقها النص القرآني على الجحيم. وقد ورد ذكرها مرة واحدة في سورة القارعة حيث نقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَّلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (101 القارعة: 6-11).

هذا الموقف من مسألة البعث والقيامة العامة للموتى، بقي السمة العامة للأيدولوجيا اليهودية حتى القرن الأول قبل الميلاد، عندما انقسم الربانيون اليهود إلى فرقتين هما: فرقة الصدوقيين المحافظين الذين التزموا بالتفسير الحرفي للنص وأنكروا قيامة الموتى، وفرقة الفريسيين الراديكاليين الذين قالوا بقيامة الموتى استناداً إلى شريعة مفترضة غير مكتوبة أنزلها الرب على موسى إلى جانب الشريعة المكتوبة، وجرى تداولها شفاهة عبر أجيال الحكماء. وفكرة الشريعة غير المكتوبة هذه هي التي التقطها فيما بعد حكماء التلمود وأسندوا إليها كل التجديدات التي قدموها إلى الفكر الديني. وقد بقي هذا الخلاف قائماً بين الفرقتين إلى عصر يسوع المسيح، الذي كان على خلاف مع الفريسيين ونالهم من نقده اللاذع ما لم ينله الصدوقيون، ولكنه وقف إلى جانبهم في مسألة قيامة الموتى. وفي أواسط القرن الأول الميلادي عندما قبض اليهود على بولس الرسول وقدموه للمحاكمة بتهمة خروجه في تعاليمه على الشريعة، لاحظ بولس أن قضائه ينقسمون بين فريس وصدوقي، فحاول إثارة الخلاف بين الفريقين وصاح بأعلى صوته قائلاً: "إنني فريسي ابن فريسي، وأنا أحاكم على إيماني بقيامة الموتى فحدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين وتم تأجيل المحاكمة (العهد الجديد - أعمال الرسل: 23).

على أن غياب فكرة البعث والقيامة العامة للموتى، لم يستبعد الفكرة الأساسية الأخرى في الإسكاتالوجيا التوراتية، وهي اليوم الأخير ونهاية التاريخ. فالتاريخ ينتهي بيوم الرب الذي يدمر العالم القديم ويفني شعوبه من أجل التأسيس لملكوت الرب. وهذا الملكوت ليس ملكوتاً سماوياً يعيش فيه الأخيار ويعاقب الفجار كما هو الحال في المسيحية والإسلام، بل هو مملكة أرضية تخلف ممالك العالم البائدة، يحكمها الإله يهوه بشكل مباشر وتكون بمثابة نعيم أرضي لبني إسرائيل. أما البقية الباقية من الأمم التي عبرت محنة اليوم الأخير فيتحولون إلى عبيد وخدم لشعب الرب.

ومجيء يوم الرب ليس بعيداً وإنما قريب إلى زمن الناس هذا: "أسكتُ قدام السيد الرب، لأن يوم الرب قريب" (صفنيا 1: 7). "آه على اليوم لأن يوم الرب

قريب. يأتي من القادر على كل شيء" (يوئيل 1: 15). ويستهل يهوه يومه بصرخة الحرب المرة: "قريب يوم الرب العظيم، وسريع جداً صوت يوم الرب. يصرخ حينئذ الجبار مُراً. ذلك اليوم يوم سخطٍ، يوم ضيقٍ وشدةٍ، يوم خرابٍ ودمارٍ، يوم ظلامٍ وقيامٍ، يوم سحبٍ وضبابٍ، يوم بوقٍ وهتافٍ على المدن المحصنة وعلى الشرف الرفيعة. وأضايق الناس فيمشون كالعمي لأنهم أخطؤوا إلى الرب، فيسفع دمهم كالتراب ولحمهم كالجلّة. لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع إنقاذهم في يوم غضب الرب، بل بنار غيرته تَؤكل الأرض كلها لأنه يصنع فناءً باغتاً لكل سكان الأرض (صفنيا 1: 14-18). "هو ذا الرب يخلي الأرض ويفرغها، ويقلب وجهها، ويبدد سكانها" (إشعيا 24: 1).

ويرافق هجوم يهوه مع وقوع عدد من الكوارث الكونية والطبيعية: "ولولوا لأن يوم الرب قريب، قادم كخراب من القادر على كل شيء... هو ذا يوم الرب قادم، قاسٍ بسخطٍ وحموٍ غضبٍ ليَجعل الأرض خراباً ويبعد منها خطاياها. نجوم السماء لا تُبرز نورها. تظلم الشمس عند طلوعها والقمر لا يلمع بضوئه... وتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود وفي يوم حموٍ غضبه، ويكونون كظبي طريد وكغنم بلا من يجمعها" (إشعيا 13: 6-14). "عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض... لأن ميازيب من العلاء انفتحت، وأسس الأرض تزلزلت، انسحقت الأرض انسحاقاً، تشققت الأرض تشققاً، تزعزعت الأرض تزعزعاً، وترنحت الأرض ترنحاً كالسكران، وتدلّدت كالعرزال، وثقل عليها ذنبها. تسقط ولا تقوم" (إشعيا 24: 17-20). "اقربوا أيها الأمم لتسمعوا، ويا أيها الشعوب أصغوا. لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل ما تُخرجه، لأن للرب سخطاً على كل الأمم، وحمواً على جيشهم. قد حرّمهم للذبح، فقتلهم تُطرح وجيفهم تصعد نثانتها، وتسيل الجبال بدمائهم، ويفنى كل جند السماوات، وتلتف السماوات كدرج (من ورق) وكل جندها ينتشر" (إشعيا 34: 1-5). "جماهير جماهير في وادي القضاء، لأن يوم الرب قريب في وادي القضاء، الشمس والقمر يظلمان، والنجوم تحجز لمعانها، والرب من صهيون يزمجر، ومن أورشليم يعطي صوته

فترجف السماء والأرض" (يوئيل 3: 14-16). "ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تنقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب. لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور" (زكريا 14: 6-7).

على أنقاض الأرض الخربة وأشلاء قتلى الشعوب تقام مملكة يهوه الذي يتربع على عرشه ملكاً في جبل صهيون: "ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء وملوك الأرض على الأرض... ويُجمعون كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس. ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون. ويخجل القمر وتخزي الشمس، لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وقُدام شيوخه قد مُجّد" (إشعيا 24: 21-23). "الرب قد ملك. لبس الجلال، لبس القدرة اثتزر بها" (المزمور 93: 1). "الرب قد ملك. ترتعد الشعوب. هو جالس على الكروبيم. تنزل الأرض" (المزمور 99: 1). وفي المقتبس الأخير إشارة إلى عرش يهوه الذي تحمله ملائكة الكروبيم، وهم كائنات مجنحة لها وجه إنساني وجسد يحمل سمات الثور والأسد.

بعد أن يتحقق ملكوت الرب يدعو يهوه إليه شرادم شعبه من كل مكان ويريحهم في أرضهم إلى الأبد، ثم يسوق إليهم من بقي من الشعوب ليكونوا عبيداً لهم: "ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقبض بقية شعبه... ويجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض..". (إشعيا 11: 11-12). "لأن الرب يرحم يعقوب ويختار إسرائيل ويريحهم في أرضهم، فتقترن بهم الغرباء، وينضمون إلى بيت يعقوب، ويأخذهم شعوب ويأتون بهم إلى موضعهم، ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيداً وإماءً، ويسبون الذين سبهم ويتسلطون على ظالمهم" (إشعيا 14: 1-2). "قومي استنيري (يا أورشليم) لأنه قد جاءك نورك ومجد الرب أشرق عليك. لأنه هاهي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيشرق الرب، ومجده عليك يُرى، فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك... وبنو الذين قهروك يسرون إليك خاضعين، وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك" (إشعيا 60: 1-3 و 14).

بعد ذلك تدخل الأرض في حالة فردوسية: "فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل، والشبل والمُسَمَّنُ معاً وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبّة ترعيان تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقرة يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سَرَبِ الصِّلِّ ويمد الفطيم يده على جُحْرِ الأفعوان، لا يسوؤون ولا يُفسدون في كل جبلٍ قدسي، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر" (إشعيا 11: 6-9). "لا ترفع أمةً على أمةٍ سيفاً، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد، بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته... ويملك الرب عليهم في جبل صهيون من الآن إلى الأبد" (مicha 4: 3-7).

على الرغم من هذا الموقف اللاهوتي الواضح من مسألة البعث والحساب، إلا أن بعض محرري الأسفار التوراتية تركوا لنا إشارات قليلة وغامضة عن قيامة الأموات، فتحت الباب فيما بعد لمؤلفي الأسفار غير القانونية للتوكيد تدريجياً على هذه المسألة، ومن ثم إلى صياغة لاهوت متكامل بخصوصها. من ذلك مثلاً ذلك الموقف الحائر الذي يبديه مؤلف سفر الجامعة من مصير الروح: "من يعلم، روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق؟ وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل الأرض؟" (الجامعة 3: 21). وما ورد في سفر دانيال: "وفي ذلك الوقت (=اليوم الأخير) يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت... وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي". ومن المعروف أن سفر دانيال هو آخر الأسفار القانونية، ويرجع تاريخ تدوينه إلى القرن الثاني قبل الميلاد، أي إلى الفترة التي بدأت فيها الأسفار غير القانونية بالظهور. وكما نلاحظ من قول محرر السفر: "وكثيرون من الراقدين... إلخ" أن اللاهوت التوراتي الرسمي لم يحسم أمره بخصوص القيامة العامة حتى هذا الوقت المتأخر.

في الأسفار غير القانونية:

يقدم لنا سفر عزرا الرابع عدداً من التصورات الآخروية التي أسست للاهوت البعث والقيامة في الفكر الديني اليهودي. يعود تاريخ تأليف النص العبري المفقود لهذا السفر إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وقد وجدت له ترجمات إلى اللغات اليونانية واللاتينية والأثيوبية والقبطية والأرمنية، إضافة إلى ترجمتين عربيتين محفوظتين بمكتبة الفاتيكان. والترجمة اللاتينية هي أكمل الترجمات وهي المعتمدة من قبل الباحثين اليوم.

في مدينة بابل التي سبق إليها عزرا مع مسبي يهوذا، تعرض له عدة رؤى متتابعة. في الرؤيا الأولى يطرح عزرا على ربه عدداً من التساؤلات التي تتعلق بأصل الشر في العالم ومصير إسرائيل والبشرية، فيقول له الرب عن طريق الملاك أوريثيل أنه في البداية لم يفرض على آدم إلا وصية واحدة فقط، ومع ذلك لم يكن أهلاً للالتزام بها، فأخطأ وحكم الرب عليه وعلى ذريته بالموت. وعن آدم نشأت شعوب وأمم كثيرة مشوا وراء أفكارهم وأداروا ظهورهم للرب، فأهلكهم بطوفان عظيم وأنجى نوحاً وأهله. ولكن أُمم ما بعد الطوفان لم تكن بأحسن حالاً من سابقتها، بل لقد فجرت وضلت أكثر منها. ولذا فقد اختار الرب إسرائيل شعباً خاصاً له وأعطاه الشريعة لتهديه، ولكن إسرائيل ضلت عن السبيل وعاشت بذرة الخطيئة التي زُرعت في قلب آدم مع الشريعة جنباً إلى جنب. ثم ذهب الخير واستقر الشر في القلوب، فألت إسرائيل إلى الخراب وإلى الدمار.

ينظر عزرا حوله ويرى أن خطيئة بابل وبقية الأمم لم تكن أقل من خطيئة إسرائيل، فلماذا حُم القضاء عليها وحدها بينما ترتع بقية الأمم بالثراء والدعة وتُكافأ على شرها؟ فيقول له الملاك أوريثيل بأن فهمه قاصر عن استيعاب ما يجري في العالم، لأن أسبابه كامنة وراء ما يبدو للعيان من ظواهر، وطرق الله خفية على البشر. ثم يكشف له عن مجيء ساعة قريبة يحصد فيها من زرع بذرة الشر محصوله، ويحصد من زرع بذرة الخير محصوله. وهذه الساعة تحل في موعد محسوب لا يتقدم ولا يتأخر. فكما أن رحم المرأة لا يستطيع الاحتفاظ

بالجنين إذا أتاها المخاض، كذلك هي الأرض التي أُنخمت بالموتى منذ بدء الخليقة ولكنها لا تلفظهم قبل حلول مخاضها في اليوم الأخير.

ولتلك الساعة علاماتها. ففي ذلك اليوم يملك الناس ذعر عظيم، وتغيب سُبُل الحق ويُفقد الإيمان. الشمس تشرق في الليل والقمر يطلع في النهار. النجوم تغير مجراها وتتساقط على الأرض. الدم ينبثق من الأشجار، والصخر يتكلم ويُسمع صوته. تتشقق الأرض عبر المفاظات الواسعة، وتندلع نيران لاهبة لا تنطفئ. تترك الطيور أعشاشها، والكواسر تهجر مقراتها، والبحر يلفظ أحياءه. تحمل النساء مسوخاً، وابن السنة يتكلم، والحوامل تضع في ثلاثة أو أربعة أشهر. تجف الحقول وتفرغ الإهراءات، ويختلط ماء الأرض الحلو بمائها المالح. يقوم الأصدقاء والإخوة ضد بعضهم ويتقاتلون بضراوة. يُفقد الرشد والتفكير السليم، وتنسحب الحكمة إلى مخبئها فلا يجدها أحد. عمل الناس لا يعطي ثماره وكدهم يذهب هباءً.

بعد ذلك ينقل الرب لعزرا عن طريق الملاك خبر مملكة المسيح القادمة على الأرض:

"هو ذا يوم يأتي بعد ظهور الإشارات التي أخبرتك بها، فتظهر المدينة التي لا أثر لها الآن، ويُكشف عن الأرض غير المنظورة الآن. عندها سيري كل من نجا من تلك الكوارث التي أخبرتك بها عجائبي. عندها سوف يظهر المسيح ابني والذين معه، وينعم الذين نجوا مدة أربعمئة سنة. ثم يموت المسيح وكل ذي نسمة معه، ويعود العالم إلى الصمت الذي كان عليه قبل البدايات لمدة سبعة أيام. بعد ذلك يستيقظ العالم النائم ويتلاشى منه ما هو قابل للفساد... سوف تلفظ الأرض الأجساد النائمة في باطنها، وتُخرج ردهات المطهر ما عُهد إليها من أرواح، ويظهر العلي مستويا على عرش الدينونة. عندها تزول الرحمة وتغيب الصبر ويبقى الحساب. عندها ينزرع الحق وينمو البر، يصحو الخير ولا ينام الصلاح، ويُعرض الثواب والعقاب. عندها تبرز هاوية العذاب ويبرز في مقابلها مقام النعيم. يُكشف عن أتون الجحيم ويظهر في مقابله الفردوس المقيم. عندها يقول العلي للأمم التي بعثت من الموت: انظروا إلى الذين أنكرتم وصاياي، ثم

انظروا إلى هذه الجهة وإلى تلك. هنا السكينة والنعيم وهناك العذاب والجحيم. هذا ما يقوله العلي في يوم الدينونة، يوم لا شمس فيه ولا قمر ولا نجوم، لا سحب ولا رعد ولا برق ولا ريح ولا هواء ولا ماء، لا صباح ولا مساء، لا صيف ولا ربيع، لا حرّ ولا صقيع، لا وابل ولا ندى، لا ظهر ولا مغرب، لا فجر ولا إشراق نور. وحده مجد العلي يتلأأ⁽¹⁾.

عقب ذلك يقول عزرا للملاك: إن الفئة الناجية هم قلة، والهالكون هم الكثير، لأن الشر المزروع في النفس الإنسانية قد حرف جُلَّ البشر عن طرق الله. فيجيئه الملاك: إن الحصى في الأرض أكثر من الرصاص، والرصاص أكثر من الحديد، والحديد أكثر من النحاس، والنحاس أكثر من الفضة، والفضة أكثر من الذهب، لأن الثمين في الأرض هو القليل والنادر. وهذا هو شأن طبقات البشر. لقد خلق العالم من أجل الكثيرين، ولكن القلة هي المعدة للخلاص ولورثة العالم القادم.

ولدينا في سفر أخنوخ الأول وصف مسهب لمجريات اليوم الأخير. وقد عثر على مقاطع من هذا السفر ضمن مخطوطات البحر الميت، الأمر الذي يدل على أن زمن تأليفه لا يتعدى أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وعلى الرغم من العثور على مقاطع متفرقة منه باللغتين اليونانية واللاتينية، إلا أن النص الكامل متوفر فقط باللغة الأثيوبية. والنص طويل ومليء بالتفاصيل، ولذلك سوف نكتفي فيما يأتي بإيراد بعض الملخصات التي تحتوي على أفكار ذات صلة بموضوعنا.

ففي ذلك اليوم ستعيد الأرض أمانتها وتعيد الهاوية ما أخذته إليها. وفي ذلك الوقت لن يستطيع أحد إنقاذ نفسه مقابل ذهب أو فضة من أهوال الساعة ومن مجلس القضاء. سيتجابه الآباء والأبناء والإخوة ويقتلون بعضهم من الفجر إلى المغيب، ولن يتردد الأب في أن يمد يده على ابنه ليقتله. الأمهات يلقين أطفالهن عن صدورهن، والمرضعات يتركن رضائعهن، والحوامل يجهضن. وبعد انتهاء أهوال الساعة سيعث

(1) هذه المقاطع والملخصات من سفر عزرا الرابع هي من ترجمتي عن موسوعة الأسفار غير القانونية:

- J. H. Charlesworth, The Old Testament Pseudepigrapha, vol. 1, pp. 525 ff.

الأموات من قبورهم، والذين هلكوا في الصحراء، والذين غرقوا في الأنهار، والذين ابتلعتهم أسماك البحر، سيعودون ويقفون للحساب أمام رب الأرواح الذي يجلس على عرشه وكتب الأحياء مفتوحة أمامه، ومجلس ملائكته منعقد لكي يشهدوا إحقاق الحق وإقامة العدل. في تلك الكتب دونت أعمال البشر كلها منذ الجيل الأول وحتى الجيل الأخير. عند ذلك توزن أعمال البشر بالميزان، والمخطئون يساقون من قبل الملائكة ويلقون في هوة عميقة تتأجج فيها النيران، ومهما وفد إليها من الناس لا تمتلئ، وفيها أدوات التعذيب وسلاسل حديدية يُغل بها أتباع عزازيل. عندها سيتوسلون من أجل بعض الراحة، ويلتمسون من ملائكة العذاب أن يعيدوهم إلى الحياة فيؤمنوا ويمجدوا ويسبحوا الرب، فيقول لهم رب الأرواح بأن مصيرهم قد تقرر والأمر والقضاء بحقهم قد صدر. أما الأبرار والمختارون فسيتنقذون في ذلك اليوم ولن يروا بعد ذلك وجه الخطأة والأشرار، وتحت عناية رب الأرواح سوف يأكلون وينامون ويقومون إلى الأبد، يرتدون عباءات المجد وثياباً لا تبلى، وجوههم تشع نوراً، وشفاهم تمجد رب الأرواح⁽¹⁾.

وفي نص الهاجاداه لدينا وصف للجنة والجحيم يرد في سياق أعمال الخلق التي قام بها الرب في مطلع الزمن، عندما خلق سبع سماوات طباقاً تتدرج من السماء الأولى التي تستند حوافها الخارجية إلى الأرض عند الجهات الأربع، وصولاً إلى السماء السابعة التي تتصل بيدي الخالق. وخلق سبع أرضين أيضاً يفصل بين كل أرض وأخرى سبع طبقات فرعية. وقد جعل الجحيم في الجهة الشمالية من الأرض، وقسمه إلى سبع درجات لكل درجة حصتها من الخطأة على قدر ذنوبهم، وقسم الدرجة إلى سبعة أجنحة والجناح إلى سبعة آلاف كهف والكهف إلى سبعة آلاف حجرة. وهنالك أنهار من حمم تجري في كل مكان وأنهار من إسفلت وقطران تغلي وتضطرم. وهنالك خمسة أنواع من النيران وقودها قطع من الفحم كل قطعة بحجم جبل. وهنالك ملائكة العذاب موزعون في كل مكان. وجعل الفردوس في الجهة الشرقية من الأرض، وقسمه إلى سبع درجات لكل درجة حصتها من الصالحين على قدر صلاحهم. وجعل للفردوس بوابتين عليهما ألوف من ملائكة الرحمة. فإذا وصل

(1) هذه الملخصات من سفر أخنوخ الأول، عن المرجع السابق الصفحة 36 وما بعدها.

واحد من أهل النعيم إلى البوابة، استقبلوه ونضوا عنه حِلَّةَ القبر وألبسوه عباءة من سحاب المجد، ووضعوا على رأسه إكليلاً من لآلئ وأحجار كريمة وفي يده سبعة أغصان تفوح بأطيب روائح الجنة، ثم اقتادوه إلى مكان ربيع دائم فيه أشجار من كل نوع وأنهار جارية من لبن وخمر وعسل، وشجرة الحياة التي تثمر سبعة عشر نوعاً لكل نوع مذاق ورائحة. ولكل واحد من أهل الفردوس ظِلَّةٌ يجلس تحتها وأمامه منضدة مصنوعة من أحجار كريمة يقوم على خدمتها ستون ملاكاً يقولون له: كل من هذا العسل واشرب من هذه الخمرة لأنك جاهدت في دراسة التوراة. وليس في الفردوس نور يأتيه من خارجه، بل إن نوره مستمد من ضياء وجوه الصالحين الذين تبدلت هيئاتهم فصار أقبحهم يضاهي يوسف في الحسن والجمال⁽¹⁾.

الإسكاتالوجيا القرآنية:

تعالج الإسكاتالوجيا القرآنية أربعة موضوعات رئيسة سوف نعرضها فيما يأتي، وهي: الساعة، والبعث، والحساب، والثواب والعقاب.
الساعة:

﴿...وَمَا يُذَرِّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (42 الشورى: 17)

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ (70 المعارج: 6-7)

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (21 الأنبياء: 40)

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ...﴾ (21 الأنبياء: 104)

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (36 يس: 49-50)

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَخُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا...﴾ (69 الحاقة: 13-17)

(1) من ترجمتي وتلخيصي عن:

- Willis Barnstone, The Other Bible, Harper, New York, 1984, pp. 16-20.

- ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (25 الفرقان : 25)
- ﴿.... وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ....﴾ (39 الزمر : 67)
- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ (73 المزمل : 14)
- ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ (56 الواقعة : 4-6)
- ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (99 الزلزلة : 1-2)
- ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (84 الانشقاق : 1-4)
- ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (53 الطور : 9-10)
- ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (70 المعارج : 8-9)
- ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ﴾ (75 القيامة : 7-10)
- ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِثَتْ * لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَضْلِ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَضْلِ﴾ (77 المرسلات : 9-14)
- ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * * * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتُ﴾ (81 التكويم : 1-14)
- ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (22 الحج : 2)
- ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِيمٌ حِيَمًا * يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُبْرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ * وصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَبْحِيهِ﴾ (70 المعارج : 10-14)
- ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ....﴾ (60 الممتحنة : 3)

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (26 الشعراء : 88-89)
 ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾
 (80 عبس : 34-37)
 ﴿وَيَوْمَ تَنْقَضُ السَّيِّئَاتُ بِالْغَنَامِ * وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
 الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (25 الفرقان : 25-26)

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (89 الفجر : 21-22)
 ﴿.... قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلِكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ....﴾ (6 الأنعام : 73)
 ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾
 (40 غافر : 16)

﴿.... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (69 الحاقة : 17)
 ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ....﴾ (40 غافر : 7)

البعث والقيامة العامة :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (23 المؤمنون : 15-16)
 ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ﴾ (16 النحل : 38)

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ....﴾
 (64 التغاين : 7)

﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
 مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (36 يس : 78-79)

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى
 فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (79 الزمر : 68)

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا
 هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (36 يس : 51-52)

﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (70 المعارج : 43-44)

الحساب ومجلس القضاء :

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً * ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ....﴾ (78 النبأ : 38-39)

﴿.... وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَغَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً * وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (18 الكهف : 47-49)

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (82 الانفطار : 10-12)

﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَسْتَاتَا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (99 الزلزلة : 6-8)

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً....﴾ (21 الأنبياء : 47)

﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ....﴾ (7 الأعراف : 8-9)

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ (101 القارعة : 6-11)

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (17 الإسراء : 13-14)

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾ (78 النبأ : 28-29)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ..... *..... * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *..... *..... * وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ﴾ (69 الحاقة : 19-25)

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (39 الزمر : 69)

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (39 الزمر : 75)

الثواب والعقاب :

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ *﴾ (26 الشعراء : 90-91)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (66 التحريم : 6)

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ *﴾

(15 الحجر : 43-44)

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا....﴾ (39 الزمر : 71)

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ (50 ق : 30)

﴿سَبِّحْهُم مِّنْ بَحْنَى * وَتَجَنَّبْهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى *﴾ (87 الأعلى : 10-13)

﴿....وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (14 إبراهيم : 17)

﴿....لَا يَفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيَفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا....﴾ (35 فاطر : 36)

﴿....فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا....﴾

(22 الحج : 19-22)

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ (76 الإنسان : 4)

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ *﴾

(40 غافر : 71-72)

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *﴾

(69 الحاقة : 30-32)

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا *﴾ (33 الأحزاب : 65)

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فَذُوقُوا فَلِمَ لِلظَّالِمِينَ

مِنْ نَصِيرٍ *﴾ (35 فاطر : 37)

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا

إِنَّا مُوقِنُونَ * * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ (32 السجدة : 12-14)

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا

* * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِينْتُمْ فَاذْخُلُوهَا خَالِدِينَ *﴾ (39 الزمر : 70-73)

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ﴾ (57 الحديد : 21)

﴿.... يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَكِينٍ فِيهَا

عَلَى الْأَرْزَاقِ نَعْمُ النَّوَابِ وَحُسْنَتُ مَرْفَقًا *﴾ (18 الكهف : 31)

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ

وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ *﴾

(37 الصافات : 44-49)

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِقَافِيَةٍ وَلَحْمٍ مَّا يَشْتَهُونَ * * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

مَّكْنُونٌ *﴾ (52 الطور : 22-24)

﴿.... فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمِيرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (47 محمد : 15)

في القرآن
﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَتَرَاهُ قَرِيباً﴾ - (70 المعارج: 6-7)
﴿....وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ - (25 الفرقان)
﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً تَتَنَبَّهُهُمْ....﴾ - (21 الأنبياء 40)
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ....﴾ - (39 الزمر 68)
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (81 التكوير 1) - ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (75 القيامة: 7-9)
﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ - (81 التكوير 2) - ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَثَرَتْ﴾ - (82 الانفطار 2)
﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ - (99 الزلزلة 1) - ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ - (56 الواقعة 4)

في التوراة بشقيها
1- ولولوا لأن يوم الرب قريب. (صفنيا).
2- ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت. (دانيال)
3- يصنع فناءً باغثاً لكل سكان الأرض. (صفنيا)
4- هو ذا الرب يخلي الأرض ويبيد سكانها. (إشعيا)
5- الشمس والقمر يظلمان، والنجوم تحجب لمعانها (يوئيل). والدراري تنقبض (زكريا).
6- النجوم تغير مجراها وتتساقط على الأرض (عزرا الرابع).
7- وأسس الأرض تزلزلت. تزعزعت الأرض تزعزعا وترنحت مثل السكران (إشعيا).

8- سوف تلفظ الأرض الأجساد
الثاوية فيها (عزرا الرابع). في ذلك
الوقت ستعيد الأرض أمانتها
(أخنوخ الأول).

9- وتلتف السماوات كدرج
(إشعيا).

10- لا فستهم ولا ذهبهم يستطيع
إنقاذهم في يوم غضب
الرب (صفنيا).

11- يقوم الأصدقاء والأخوة ضد
بعضهم ويتقاتلون (عزرا الرابع).

12- الأمهات يلقين أطفالهن عن
صدورهن، والمرضعات يتركن رضائعهن،
والحوامل يجهضن (أخنوخ الأول).

13- الرب قد ملك. لبس الجلال.
لبس القدرة (المزمور 93).

- ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾

(99 الزلزلة 2)

- ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَحَلَّتْ﴾ (84 الإنشقاق 3-4).

- ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ
لِلْكِتَابِ...﴾ (21 الأنبياء 104).

- ﴿...وَالسَّمَاءَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ...﴾
(39 الزمر 67).

- ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ
آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾
(26 الشعراء 88-89).

- ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمَ
الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بَيْنِيهِ *
وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ﴾

(70 المعارج: 10-12).

- ﴿لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ (60 الممتحنة: 3).

- ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا نَذْهَلُ كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا...﴾
(22 الحج 2)

- ﴿...لَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ﴾ (40 غافر 16).

14- ويظهر العلي مستوياً على عرش الدينونة (عزرا الرابع). الرب قد ملك، ترتعد الشعوب. وهو جالس على الكروبيم (المزمور 99).

15- سيعث الأموات من قبورهم، والذين هلكوا في الصحراء، والذين غرقوا في الأنهار، والذين ابتلعتهم الأسماك، سيعودون. (أخنوخ الأول)

16- ويقفون أمام رب الأرواح الذي يجلس على عرشه، وكتب الأحياء مفتوحة أمامه، ومجلس ملائكته منعقد لكي يشهدوا إقامة العدل (أخنوخ الأول).

17- عند ذلك توزن أعمال البشر بالميزان (أخنوخ الأول).

18- عندها تبرز هاوية العذاب، ويبرز في مقابلها مقام النعيم (عزرا الرابع).

- ﴿....وَيَجْلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ (69 الحاقة 17).

- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (23 المؤمنون: 16)

- ﴿....قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ....﴾ (36 يس 78-79)

- ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (89 الفجر: 22)

- ﴿وَنَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ....﴾ (39 الزمر 75)

- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ.... وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ....﴾ (39 الزمر 69)

- ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ....﴾ (21 الأنبياء 47).

- ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّرَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَافِلِينَ *﴾ (26 الشعراء 90-91)

19- والمخطئون يساقون من قبل
الملائكة ويلقون في هوة عميقة
تأجج فيها النيران.

20- ومهما وفد إليها من الناس فإنها
لا تمتلئ (أخنوخ الأول). الهاوية
والهلاك لا يشبعان (الأمثال).

21- وجعل الرب الجحيم في
الجهة الشمالية من الأرض وقسمه
إلى سبع درجات لكل درجة
حصتها من الخطأة وفق ذنوبهم.
وهناك ملائكة العقاب موزعون في
كل مكان (الهاجاده).

22- وفيه أدوات التعذيب
وسلاسل حديدية يُعَلَّ بها أتباع
عزازيل.

23- عندها يتوسل الأشرار لكي
يعادوا إلى الحياة مجدداً لكي يؤمنوا
بالرب ويسبحوه. فيقول لهم رب
الأرواح بأن الحكم قد صدر بحقهم
ولا رجعة فيه (أخنوخ الأول).

- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ....﴾
(39 الزمر 71)
- ﴿تَضَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾
(88 الغاشية 4)

- ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ
هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (50 ق 30).

- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * هَا
سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ
مَّقْسُومٌ﴾ (15 الحجر 43-44).
- ﴿....عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا
يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ....﴾
(66 التحريم: 6).

- ﴿إِنَّا آَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا
وَسَعِيرًا﴾ (76 الإنسان: 4).
- ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *
ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
فَأَسْلُكُوهُ﴾ (69 الحاقة 30-32).

- ﴿وَهُمْ يَضْطَرُّونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ....
فَذُوقُوا أَلَمَ اللَّظَالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (35
فاطر 37).

24- وجعل الرب الفردوس في
الجهة الشرقية من الأرض وقسمه
إلى سبع درجات... وجعل له
بوابتين عليهما ملائكة الرحمة
الذين يستقبلون أهل النعيم
ويلبسونهم عباءات من سحب
المجد ويضعون على رؤوسهم
أكاليل من لآلئ (الهاجاده).

25- ثم يقتادونهم إلى مكان ربيع
دائم وأنهار جارئة من لبن وخمر
وعسل (الهاجاده).

26- فيه أشجار من كل نوع وشجرة
الحياة التي تثمر سبعة عشر نوعاً لكل
نوع مذاق ورائحة (الهاجاده).

27- وليس في الفردوس نور يأتيه
من خارجه (الهاجاده).

28- بل إن نوره مستمد من ضياء
وجوه الصالحين (الهاجاده). وجوه
الأبرار في الجنة تشع نوراً (أخنوخ)

- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا
حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُمْتُمْ فَادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ﴾ (39 الزمر 73).

- ﴿....يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ....﴾ (18 الكهف 31).

- ﴿....فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ
مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
لِلْشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى....﴾
(47 محمد: 15)

- ﴿....وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ....﴾
(47 محمد: 15)

- ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ
* فِي يَدِّهِمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ * وَطَلَحَ مَنُودٍ *
وَظِلٌّ تَمْدُودٍ *﴾ (56 الواقعة 27-30).
- ﴿....لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
زَمْهَرِيرًا﴾ (76 الإنسان 13).

- ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى
نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ....﴾ (57 الحديد 12)

29- ولكل واحد من أهل الفردوس ظِلَّة يجلس تحتها، وأمامه منضدة من حجر كريم يقف لخدمتها ستون ملاكاً يقولون له تناول من هذا العسل واشرب من هذا الخمر (الهاجاداه).

- ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ (52 الطور: 24)

- ﴿بِأَنْوَافٍ وَبَارِقَاتٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * لَا يَصُدَّ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ *﴾ (56 الواقعة 18-21).

هذه هي أبرز وجوه التشابه بين الإسكاتولوجيا التوراتية والإسكاتولوجيا القرآنية. ولقد كان باستطاعتنا التوسع في المقارنة أكثر من هذا لو كنا قد قدمنا كل ما ورد لدى الجانبين من تصورات أخرى واقبشنا من الأسفار غير القانونية أكثر مما فعلنا. ولكننا لم نجد فائدة ترجى من ذلك، وآثرنا الاختصار والتركيز على أهم العناصر في تلك التصورات.

الفهرس

5	مقدمة لطبعة الأعمال غير الكاملة
9	فاتحة
11	مدخل: إطلالة على النصين
13	تاريخ التوراة العبرانية (العهد القديم)
23	تاريخ المصحف الشريف
37	دراسة مقارنة
39	1- إبراهيم الخليل
41	شباب إبراهيم في موطنه ، وهدايته:
44	الضيوف السماويون:
49	2- لوط
55	3- إسماعيل
57	1- إبعاد هاجر وابنها إلى الصحراء:
59	2- القربان والفداء:
60	3- بناء الكعبة:
61	4- يوسف الصديق
61	1- حلم يوسف:
62	2- مؤامرة الإخوة:
63	3- فوطيفار يشتري يوسف:
63	4- الإغواء:
65	5- يوسف في السجن:
66	6- حلم فرعون:

- 7- يوسف وزيراً: 67
- 8- قدوم إخوة يوسف: 67
- 9- العودة إلى كنعان واكتشاف الفضة المُعادة: 68
- 10- القدوم الثاني على يوسف: 69
- 5- موسى 75
- 1- الميلاد والطفولة: 75
- 2- الهروب إلى مديان: 76
- 3- التجلي في الوادي المقدس: 79
- 4- هارون، والدخول على فرعون: 81
- 5- الخروج وعبور البحر: 84
- 6- المن والسلوى: 86
- 7- تفجير الماء من الصخرة: 88
- 8- التجلي على الجبل: 88
- 9- الرسالة: 90
- 10- العجل: 90
- 11- الميقات مع السبعين: 92
- 12- التيه: 93
- هامان 95
- قارون 96
- 6- الملك شاول 97
- 1- تنصيب شاول: 98
- 2- جالوت وداود: 101
- 7- الملك داود 105
- 8- الملك سليمان 113
- سليمان والجن: 118

123	9- أيوب
123	أيوب في ثقافة الشرق القديم:
123	أيوب السومري:
129	أيوب في التوراة:
133	10- النبي إلياس
143	11- النبي اليسع
147	12- يونس / يونان
153	13- أصحاب الكهف
159	14- خراب أورشليم
163	الرجل الذي أماته الله مئة عام:
165	15- ياجوج ومأجوج ، هاروت وماروت
165	ياجوج ومأجوج:
168	هاروت وماروت:
173	16- قصة الخليقة
173	1- الخلفية الميثولوجية:
175	2- قصة الخليقة التوراتية:
179	3- قصة الخليقة القرآنية:
183	17- قصة خلق الإنسان
183	الخلفية الميثولوجية:
184	خلق الإنسان في التوراة:
185	سفر التكوين - القصة الأولى:
185	سفر التكوين - القصة الثانية:
193	18- إبليس الملاك الساقط
193	الخلفية التاريخية:
195	الشيطان في التوراة:

213	19- سقوط الإنسان الساقط
221	قابيل وهابيل
223	20- الطوفان الكبير
223	الخلفية الميثولوجية:
233	21- القيامة والتصورات الآخروية
239	في الأسفار غير القانونية:
243	الإسكاتالوجيا القرآنية:

صدر للمؤلف

- 1- مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة – سورية وبلاد الرافدين - الطبعة الثانية والعشرين 2016.
- 2- ملحمة جلجامش: الطبعة الرابعة 1988.
- 3- لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة - الطبعة الخامسة عشر 2016.
- 4- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم: هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟ الطبعة السادسة 2016.
- 5- دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني - الطبعة الثامنة 2016.
- 6- جلجامش: ملحمة الرافدين الخالدة - الطبعة السابعة 2016.
- 7- الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية - الطبعة السابعة 2016.
- 8- آرام دمشق وإسرائيل: في التاريخ والتاريخ التوراتي - الطبعة الخامسة 2016.
- 9- كتاب التاوتي تشينغ: إنجيل الحكمة التاوية في الصين - الطبعة الخامسة 2016.
- 10- الرحمن والشیطان: الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية - الطبعة السادسة 2016.
- 11- تاريخ أورشليم: والبحث عن مملكة اليهود - الطبعة الرابعة 2016.
- 12- مدخل إلى نصوص الشرق القديم: الطبعة الثالثة 2016.
- 13- الوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهودية - مقدمة في الغنوصية المسيحية - الطبعة الثالثة 2016.
- موسوعة تاريخ الأديان (تحرير ومساهمة) في خمسة مجلدات:
- 14- المجلد الأول: الشعوب البدائية والعصر الحجري.
- 15- المجلد الثاني: الشرق القديم.
- 16- المجلد الثالث: اليونان وأوروبا قبل المسيحية.
- 17- المجلد الرابع: الشرق الأقصى.
- 18- المجلد الخامس: الزرادشتية، المانوية، اليهودية، المسيحية، الطبعة الثالثة 2016.

- 19- طريق إخوان الصفاء: المدخل إلى الغنوصية الإسلامية - الطبعة الثالثة 2016.
- 20- الإنجيل برواية القرآن: الطبعة الثالثة 2016.
- 21- أَلغاز الإنجيل: الطبعة الثانية 2016.
- 22- أساطير الأولين: القصص القرآني ومتوازياته التوراتية - الطبعة الثانية 2016.
- 23- الله والكون والإنسان: نظرات في تاريخ الأفكار الدينية - الطبعة الأولى 2016.
- صدر له بالإنكليزية:
- 1- دراسة بعنوان:

Jerusalem in the Age of Judah Kingdom

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث الأميركي توماس ل. تومبسون شارك فيه عدد من المؤرخين والآثارين وصدر عن دار T&T Clark عام 2003 تحت عنوان:
Jerusalem in History and Tradition

2- دراسة بعنوان:

The Faithful Remnant and the Invention of Religious Identity

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث البريطاني كيث و. وايتلام شارك فيه عدد من الباحثين في تاريخ وآثار فلسطين وصدر عن جامعة Sheffield في بريطانيا عام 2013 تحت عنوان:

The politics of Israel's Past

منشورات دولية:

صدر له بالتعاون مع الباحث الصيني الدكتور شيوه تشينغ قوه كتاب بعنوان:
لاو تسي، عن دارالنشر باللغات الأجنبية/بكين، وهو تطوير لكتابه السابق
كتاب التاوتي تشينغ.

يُصدر قريباً في بكين:

- كتاب المحاورات لكونفوشيوس، ترجمة عن الانكليزية ومراجعة على النص الصيني من قبل شيوه تشينغ قوه.

- كتاب منشيوس، ترجمة عن الانكليزية ومراجعة على النص الصيني من قبل شيوه تشينغ قوه.

